دائرة معارف في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم

تأليف

العلامة شبلي النعماني

أكمله

العلامة / سيد سليمان الندوي

الجزء السابع

قدم له

أ. د/ علي جمعة

مفتي الديار المصرية

ترجمه وحققه وعلق عليه

د/ يوسف عامر

كلية اللغات - جامعة الأزهر

نشر على نفقة

د/ حسن عباس زكي

دائرة معارف
في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم

تأليف

العلامة شبلي النعماني

أكمله

العلامة / سيد سليمان الندوي

الجزء السابع

ترجمه وحققه وعلق عليه

د/ يوسف عامر

كلية اللغات جامعة الأزهر

قدم له

أ.د/ علي جمعة

مفتي الديار المصرية

طبع على نفقة

د/ حسن عباس زكي

تقديـــم (المترجم)

هذا هو الجزء السابع والأخير من كتاب "**دائرة معارف في سيرة النبـــي (ﷺ)**"، والذي ألفه العلامة شبلي النعماني (١٨٥٧م - ١٩١٤م)، وأكمله مولانـــا سيد سليمان الندوي (١٨٨٤م - ١٩٥٣م). وفي هذا الجزء يتحدث المؤلف عـــن المعاملات. وكان قد وضَّح قبل ذلك في الجزء الرابع ــ من هذا الكتـــاب ــ أن الشريعة الإسلامية تقوم على أربعة أركان وهي: العقائد، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات. وكتب عن كل ركن على حدة في جزء خاص به، مع تفصيل ودقة متناهية. وهو في كل هذا يكتب مستنداً على القرآن الكريم، والسيرة النبوية قولا وفعلا، إضافة إلى اعتماده على المصادر العربية في فن السيرة النبويـــة، كمـــا يرجع إلى ما كتبه الغرب أو المستشرقون عن سيرة النبي (ﷺ) مُوضحا لآرائهم ووجهات نظرهم وأغراضهم، رادًا عليها بالحكمة والموعظة الحسنة، ومـــستدلاً على ما يقول بالأدلة العقلية والنقلية.

يقصد المؤلف بمصطلح المعاملات هنا كل الأحكام الشرعية، والتي تتعلق بحقوق العباد، ويتضمنها القانون، فتدخل فيها المعاملات والعقوبات التي تهـــدف إلى الحفاظ على النفس والمال والعرض، سواء تتعلـــق بمـــصلحة الأفـــراد، أو الأسرة، أو المجتمع بأكمله. وبألفاظ أخرى أراد بالمعـــاملات كـــل معـــاملات المسلمين، التي ترتبط بقوانين ولوائح الحكومة والمجتمـــع والاقتـــصاد. وقـــسّم المسائل إلى ثلاثة أقسام، وهي مسائل اجتماعية، ومسائل اقتـــصادية، ومـــسائل سياسية. والمقصود من المسائل الاجتماعية قوانين الزواج والطـــلاق وغيرهـــا،

ومن المسائل الاقتصادية كل المعاملات المالية والتجارية. أما المسائل السياسية فيقصد بها هنا الحديث عن الحكم والدولة وما يتعلق بها.

تحدث المؤلف عن موقف الأديان الأخرى من المعاملات، فذكر "أن كل الأديان قد أظهرت اتجاهات مختلفة في جعل المعاملات جزءًا من تعاليمها. ففي التوراة نجدها جزءًا ضروريا ومهمًا فى القوانين الدينية، ولكن المسيحية أهملتها تماما. أما في الديانات الهندية، فنجد كلا الاتجاهين ... خلاصة القول هو أن كل الأمم (الديانات) تعترف بأن مصدر شريعتها علم إلهي، وعلم يفوق قدرة الإنسان".[1] كما ذكر أن هناك أمما قد جعلت أساس شريعتها ودستورها العقل الإنساني بدلا من الوحي الإلهي، وجعلت التجربة الإنسانية والقياس أساسا لقوانينها وشريعتها.

كتب عن عجز المشرعين في إيجاد قانون يساوي بين الأفراد جميعًا، وذكر أنه لا يوجد في قانون الإسلام ودستوره فرق واحد يحول بين المسلم وغير المسلم؛ أما في النظام الجمهوري فتوجد عشرات من الحجب والجدران، تحول بين المحلي والأجنبي، والغني والفقير، والرأسمالي والعامل، والتاجر والإقطاعي، وغيرها من عشرات الحجب التي يصعب إزالته. وحين يُعرض أن اقتراح للمناقشة؛ فلا يُفصل فيه طبقا لوجهة النظر الإنسانية طبقا لوجهة نظر البلد، والقوم، والجماعة، والطبقة، والحزب، ويُقدم على أنه آية رحمة للجمهور.

كتب أن الإنسانية عاجزة عن تشريع قانون عادل وصحيح، وذلك لأن منفّذه لا يتسم بشيء من الحساسية والعاطفة، ولأنه مبني على القوة الظاهرة فقط، لذا يصطدم بمصالح منفّذيه الشخصية في كل خطوة، وكثيرًا ما يصطدم بالحرص والطمع، والغرور والتكبر، والرشوة والمصالح الذاتية، والحرام

---

[1] سيرة النبي، ج ٧ ، ص ١١.

والخوف، والمكر والخداع وغيرها من عشرات الصفات التي تخالف الأحاسيس والصفات الإنسانية، ويصبح فتاتاً، وهنا يتحطم ميزان العدل.

ولهذا كان البشر وكل المخلوقات في حاجة إلى قانون إلهي، لذا اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون ميزان العدل في الأيدي الإلهية نفسها، والتي لا تتبع أي فرقة أو جماعة، وليست ملكا لواحدة دون الأخرى، فهي ملك للجميع، ومن أجل الجميع، وغنية ومنزهة عن سائر الأغراض النفسية، وهي لا تطمع في أي شيء لذاتها، وهي العليمة بالدنيا وأسرار طبيعتها، ومثلما أصدرت أمرها التكويني في الدنيا من العرش إلى الفرش، وهو ما يطلق عليه "القانون الطبيعي"، أصدرت على الأرض أمرها التشريحي، وهو ما يطلق عليه "الشريعة" مبنيًا وقائمًا على العدل. قال الله تعالى:

«اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ» (الشورى: ١٧)

«وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالْمِيزَانَ » (الحديد: ٢٥)

كتب المؤلف عن الكتاب والميزان، وبين أن المقصود بالميزان هنا ليس الميزان الحديدي، بل هو ميزان الطبيعة والعدل والحق، وهو ما يُوزن به كل أنظمة الكائنات وسائر الأعمال البشرية، وهو ميزان ليس فيه قلة أو نقص. يقول الله تعالى:« **الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ القُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ البَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ**» (الرحمن ١: ٩).

يقول المؤلف: في هذه الآيات الكريمة ورد ذكر الإنسان قبل الشمس والقمر والنبات، لأن الله تعالى خلق هذه المخلوقات مسلوبة الإرادة، وهي تسير بعدل وطبقًا للأحكام والأصول الطبيعية لله تعالى، لذا يجب على الإنسان، الذي

فاز بنعمة الإرادة أن ينجو بنفسه من رغبات النفس ووسوستها، ويتبع بإرادته العدل، ويمتثل الأوامر الله في كل الأقوال والأفعال، يقول الله تعالى:

"وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ" (الأنعام:١٥٢)

"فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ" (الأعراف: ٨٥)

"أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ" (هود:٨٥)

"وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ" (هود:٨٤)

يكتب المؤلف: أن المقصود من الميزان في هذه الآيات الكريمة هو ميزان المعاملات، والبيع والشراء بهذا الميزان وهذا الكيل، ويجب أن تُوزن سائر المعاملات الإنسانية بهذا الكيل وهذا الميزان. ويُرجع المؤلف سبب الظلم الإنساني كله إلى أن كل إنسان يريد ميزانا لنفسه، وميزانا آخر لغيره، فهو يزن لنفسه بميزان، ويزن لغيره بميزان آخر. لذا لعن الله تعالى والدنيا هذا الظلم يقول الله تعالى:« وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » (المطففين ١ : ٣)

كتب المؤلف عن طرق إرساء العدل، ومنع الظلم، معتمداً على ما جاء في آيات الذكر الحكيم. ذكر ثلاث طرق تُرسي العدل وتمنع الظلم: الأولى الكتاب. أي مجموعة الأحكام الإلهية. والثانية الميزان العادل والصحيح والفطري والراسخ في كل قلب يتصف بالصدق، وهو ما يقوم عليه أساس القانون الإنساني. والطريقة الثالثة هي طاقة وقوة السيف، وهو ما يجعل الناس تؤمن بهاتين الطريقتين. أي أن من يُنكر الإيمان بالأحكام الإلهية، ومن بفطرته يحطم ميزان العدل الصحيح، يُضطر إلى استخدام القوة معه حتى يؤمن ويعترف بالقانون. ويذكر المؤلف إن هذا الآلة الحديدية (السيف) تكون في إحدى أيدي

الحكومة أو الدولة، والتي لابد أن تضع في يدها الثانية كتاب القانون الإلهي، والذي تجبر رعاياها على الإيمان به.

استنبط المؤلف وسائل إرساء العدل هذه من قول الله تعالى: **«لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» (الحديد: ٢٥)**

كتب المؤلف عن ثبات القانون الإلهي، وذكر أن هناك شبهة على نظرية القانون الإلهي وهي أن أحوال الدنيا دائما في تغير، وتتغير معها أيضا خريطة المجتمع الإنساني، ومن ثم لابد من تغيير القانون أيضا. والحقيقة هي أن هذا الاعتقاد باطل تماما؛ إذا أن الشيء لا يتغير، وإنما تتغير ألوانه وأشكاله وأساليبه. فعلى سبيل المثال لا تتغير أبداً الأصول والقوانين الطبيعية للماديات (إلا ما شاء الله)، فالشيء الحار يبقى دائما حاراً، والبارد يبقى دائماً بارداً، ولا تصبح النار ثلجاً، ولا يصبح الثلج ناراً، ولا يصير الضياء ظلاماً ولا الظلام ضياءً، ويتغير الزمان دائما ويتعاقب الليل والنهار، وتتغير الساعات والثواني، وتتعاقب السنوات، ولكن القمر هو نفسه القمر، والشمس هي نفسها الشمس، وأحوالهما وقوانينهما هي نفسها لا تتغير، وإن القانون الطبيعي الذي كان يحكم البر والبحر قبل آلاف السنين مازال هو نفسه الآمر الناهي حتى اليوم، ولم يحدث فيه أي تغير في القرن الأول أو القرن الرابع عشر، ومازالت السنة تتكون من اثني عشر شهراً كما بدأت، ومازال اليوم والليلة يتكونان من أربع وعشرين ساعة كما بدءا. وهذا يعني أن أمر الله سبحانه وتعالى، وقانونه الطبيعي بقي على حاله كما كان. يقول الله تعالى: **« وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً» (الفتح : ٢٣)**

كتب المؤلف عن ثبات الحقوق الطبيعية والمعاملات، فذكر أنه بناءً على هذا المبدأ وهذه القاعدة فإنه لم يحدث أبداً أي تغير في المبادئ الطبيعية للقوانين الطبيعية والأخلاقية والمعاملات الإنسانية، ولن يحدث أي تغير فيها أبداً، فلن يتبدل الخير إلى الشر، ولن يتبدل الشر إلى الخير، ولن يتبدل الصدق إلى الكذب، ولن يتبدل الكذب إلى الصدق، ولن يأخذ الظلم مسمى العدل، ولن يأخذ العدل مسمى الظلم. وكان العمل على منع الأسباب التي تؤدي إلى الحرب والنزاع، ومنع كل ما يؤدي إلى سوء الأخلاق، وسد باب الفتن والفساد، كل هذه الأمور كانت مواد في أي قانون شُكِّل في أي عصر من العصور. فهذه المواد الفطرية والطبيعية بنود حتمية وضرورية للقانون، ولا بد أن يشتمل عليها دائما.

كتب المؤلف عن مكانة وأهمية الحكم في الإسلام، وذكر أن محمداً رسول الله (ﷺ) بعثه الله تعالى في هذا العالم ببركتي الدنيا والآخرة، ولذا لم يُبشر (ﷺ) بالملوكية السماوية فقط، وإنما بشّر أيضاً بملوكية الدنيا بجانب الملوكية السماوية، حتى يُعبد الله تعالى ويُطاع في الدنيا دون خوف، وتُقام ملوكيته سبحانه في الدنيا طبقا لقانونه عز وجل. يقول الله تعالى: « **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً** » (النور: ٥٥)

ولهذا يجب محاربة العاصين لله حتى يكون الحكم كله لله. يقول الله تعالى: «**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**» (الأنفال : ٣٩)

وعن دعاء الصالحين يقول المؤلف أن القرآن الكريم قد أخبر بدعاء بعض عباد الله الصالحين. يقول الله تعالى: « **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** » (البقرة: ٢٠١)

ثم يقول: إن خير الآخرة معروف، أما عن خير الدنيا فقال عنه المفسرون أنه هو العلم، والعبادة، والصحة، والرزق، والثروة. والنصر، والخلف الصالح. ويُعد إطلاق الحق سبحانه وتعالى لهذا الأمر دعوة إلى التجديد في التفسير والتأويل. وخير الدنيا هو كل مباح في شريعة الله تعالى. يقول الله تعالى: «**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ**» (النحل : ٣٠)

ويذكر المؤلف: أن أكبر نعم الله في هذه الدنيا هي الحكم والسلطة وسياسة الدنيا، وتأتي هذه النعمة تالية في الدرجة لنعمة الكتاب والنبوة . يقول تعالى: «**فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً**» (النساء: ٥٤)

كتب المؤلف تفصيلاً عن نظام الحكم في عهد النبوة، وذكر أنه من السائد أن بداوة ووحشية وجهل العرب كان عائقا كبيراً واجه الإسلام في تأسيس وإقامة نظام حكم عادل، ولكن الحقيقة هي أن تمدن تلك الفترة كان نفسه عدواً لنظام حكم الإسلام العادل أكثر من هذه الوحشة والبداوة العربية، أو مساوياً لها على الأقل، فرغم أن العرب البدو حنوا أعناقهم أمام الإسلام بعد فتح مكة في سنة ٨ هجرية، إلا أنه كانت مازالت حتى الآن رأس تمدن تلك الفترة مرفوعة بتكبر وغرور، ومن ثم وقعت غزوة مؤتة وغيرها في سنة ٩ هجرية نتيجة لرد ملك ملوك إيران وحلفاء قيصر الروم، ثم وقعت بعد ذلك حروب في عهد الخلفاء الراشدين مع الفرس والروم نتيجة لهذا التمرد والعناد.

حين بُعث النبي (ﷺ)، وبزغ الإسلام كانت كل قوى العالم السياسية تحت ظل قوتين عظيمتين في الشرق والغرب. وكانت حدودهما تلتقيان عند الحدود العراقية والشامية للعرب، وكانت قبائل العرب – والتي كانت بعيدة تماما عن

التمدن والحضارة - تابعة وخاضعة لأي من هاتين القوتين، فكانت اليمن والبحرين وعمان والعراق خاضعة للفرس، أما وسط بلاد العرب وحدود الشام فكانت خاضعة للرومان.

لذا أقام بنو لخم سلطنة كبيرة في الحيرة خاضعة للفرس. وكان الغساسنة يحكمون حدود الشام تحت نفوذ وسيطرة الرومان. وأقام العرب ولايات قبلية مستقلة في اليمن، إلا أن اليمن في آخر الأمر خضع للفرس. لذا كان من الطبيعي أن يؤثر نفوذ وسيطرة هاتين القوتين في نفوس العرب تأثيراً بلغ إلى أنه حين كان يُذكر أي نظام حكم أو نظام تمدن، يعتقد العرب في إما أنه نظام حكم ونظام تمدن الفرس، أو نظام حكم وتمدن الرومان، وبالتالي ما كان لهم أن يتخيلوا بأن هناك نظام حياة أفضل من هذين النظامين.

وعليه فإن نظام الحكم الذي أراد الإسلام إرسائه في بلاد العرب لم يكن يكفيه فقط القضاء على وحشة وجهالة العرب، وتأسيس الحضارة والثقافة الإسلامية، بل كان عليه أولاً أن يحرر العرب من التسلط الذهني للأمم الأخرى، ورعبهم السياسي وآثارهم الأخلاقية والثقافية، ليس هذا فحسب، بل تحرير العرب والعالم بأسره من عبودية القانون الإنساني، ومنحه الطاعة والخضوع للقانون الإلهي، وإبلاغه بأن ترك القانون الإلهي، والتمسك بالقوانين البشرية، ما هو إلا طريق آخر للشرك.

كتب المؤلف عن علاقة الدين بالدولة، وذكر أن اتحاد الدين والدولة هو عين اهتمام الإسلام، وأن عمل الدولة المطابق لأمر الله تعالى، وبغرض رضاه سبحانه هو الدين نفسه والعبادة نفسها. وخدمة الأمراء لرعاياهم وطاعة الرعية لأمرائهم وحكامهم طاعة لله، بشرط أن تكون النية والغرض هو تنفيذ أوامر الله تعالى.

ثم كتب المؤلف بعد ذلك عن حقيقة السلطنة والملوكية، وترك الإسلام للألفاظ الدالة على الملوكية، ومنع استخدام لقب ملك الملوك، كما كتب تفصيلاً عن بعثة الأمة الإسلامية، وخلافتها في الأرض، وعن القوة العاملة أو القوة الآمرة.

كتب المؤلف عن هذه الموضوعات كلها بدقة وهدوء معتمدًا في كل ما يقول على القرآن الكريم والسنة النبوية. ويرد على بعض الشبهات التي تتعلق بأي موضوع تحدث عنه في هذا الجزء.

تحدث الكاتب عن اليهود في هذا الجزء حديثًا مفصلاً، من حيث تفضل الله عليهم بكثير من النعم بسبب إتباعهم الحق، ثم غضبه عليهم حين ابتعدوا عن الله تعالى ودستوره سبحانه. يذكر الكاتب: بعد بعثة موسى (عليه السلام) وحين بدأ فرعون يُلحق الظلم ببني إسرائيل، نصحهم سيدنا موسى (عليه السلام) بالصبر والاستعانة بالله تعالى.. يقول الله تعالى: «**قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**» **(الأعراف: ١٢٨)**

أظهر بنو إسرائيل اضطرابا عكسيا على الصبر والسلوان. يقول الله تعالى: «... **عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** »**(الأعراف: ١٢٩)**.

وحين جاء وقت تحقيق الوعد الإلهي انقلب عرش ملوكية فرعون، وفاز قوم مصر بتاج الخلافة الإلهية. يقول الله تعالى:« **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا** » **(الأعراف: ١٣٧)**.

بيّن المؤلف أن بني إسرائيل فازوا بهذه النعمة بسبب صبرهم وتمسكهم بطريق الحق، وظلوا يفوزون بخير الدنيا، ولكنهم حين أخذوا يبتعدون عن الصبر والطريق الحق، ويصدون عن الإيمان بالأنبياء، ويرفضونهم، وقع تاج العزة من على رؤوسهم. ويقول الله تعالى في حقهم: «**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُواً كَبِيراً (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً**» (الإسراء: ٤- ٧).

يكتب المؤلف أن ذكر أحداث ووقائع بني إسرائيل في القرآن الكريم كان لأغراض، من بينها أن تكون عبرةً ودرسًا للمسلمين، حتى يدركوا بأنهم إذا لم يوفوا بعهد الله تعالى؛ فسوف يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل.

يذكر المؤلف أنه حين فاز بنو إسرائيل بالخلافة؛ نُبّهوا بادئ ذي بدء بأنهم سيفوزون بهذه الخلافة وهذا الملك طالما يتبعون الأحكام الإلهية، وإن أعرضوا عنها، فسوف يُحرمون من رحمة الله تعالى. وقد تعرض اليهود في تاريخهم قبل الإسلام لهذين الأمرين، وبسبب أعمالهم أُنتُهِك بيت المقدس، وأُذِلُّوا، وأصبحوا محكومين مرتين، واحدة على يد ملك بابل، والثانية على يد الرومان.

يذكر المؤلف أن اليهود أُمْهِلوا مرة أخيرة حين جاء محمد رسول الله (ﷺ)، فقال الله تعالى: « **عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ**

لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً (٨) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً» (الإسراء: ٨، ٩).

إن تمني هذه الرحمة كان مشروطا بشرط، ألا وهو إيمانهم بخاتم النبيين محمد (ﷺ) بن عبد الله ، ولكنهم حين عاندوا الله وأنفسهم، وحرموا أنفسهم من هذا الإيمان، ابتعدت عنهم أيضاً رحمة الخالق سبحانه، لذا قال الله تعالى: «... وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ... » (البقرة: ٤٠).

يذكر المؤلف أن هذا الميثاق الإلهي قد ورد في سورة البقرة أكثر من مرة. يقول الله تعالى: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ» (البقرة: ٨٣ – ٨٥).

وحين نسي اليهود هذا العهد، نسيهم الله تعالى للأبد. يقول الله تعالى: «فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ »(البقرة ٨٥) .

يكتب المؤلف أن أهل الكتاب قد أخبروا بهذا العقاب بسبب إثم وجريمة تخريب المساجد، خاصة التخريب الظاهري والباطني لبيت المقدس. يقول الله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا

أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » تعالى: (البقرة: ١١٤) .

يذكر المؤلف أن القرآن الكريم أخبر بأن عقوبة سادة اليهود وأحبارهم، والذين تركوا الكتاب الإلهي واتخذوا عاداتهم وتقاليدهم شريعة لهم هي: « **لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » (البقرة ١١٤).**

خلاصة القول هو أن بعثة خاتم الأنبياء محمد (ﷺ) كانت آخر مهلة لليهود، ولكنهم أصروا على عنادهم المعهود، لذا كتب الله عليهم الذلة والمسكنة، والعبودية للغير إلى يوم القيامة. يقول الله تعالى: « **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ» (آل عمران ١١٢).**

اقتبس المؤلف في هذا الجزء كثيرًا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الكريمة يستدل بها على ما يقوله، ويُوضح بها بعض الأحكام والقضايا، ولكن النسخة التي اعتمدت عليها في الترجمة بها أخطاء كثيرة في تخريج الآيات القرآنية، لذا حرصت على تخريجها تخريجا صحيحا، وكتابتها بخط واضح ومضبوطة بالشكل، حتى يسهل حفظها لمن أراد. أما الأحاديث النبوية، فقد اكتفى المؤلف بكتابة ترجمتها الأردية فقط، دون إدراج نصها العربي، لذا حرصت على كتابة النصوص الأصلية للأحاديث بعد تحقيقها من كتب الصحاح والأسانيد. وإذا اقتبس المؤلف فقرة أو جملة من الحديث، قمت بكتابة ما يقابله فى نص الحديث، ثم كتابته كاملا فى الحاشية، حتى يتعرف القارئ على نص الحديث كاملاً بروايته، ويسهل عليه حفظه، خاصة وأنه مضبوط بالشكل. وهناك أحاديث اكتفى المؤلف بذكر معانيها ومدلولاتها فقط، لذا ترجمتُ ما كتبه من

معان ومدلولات، وقمت بتحقيقها كاملة في الحاشية، حتى يرجع إليها القارئ حين يشاء. وهناك بعض الأحاديث النبوية كتبها المؤلف بنصها العربي، لذا حرصت على تحقيقها وتخريجها كاملة في الحاشية، ثم كتابتها في المتن بخط واضح حتى تكون مميزة عن بقية الترجمة.

وحقيقة الأمر هي أن تحقيق وتخريج الأحاديث المترجمة كان أمراً في غاية الصعوبة؛ إذ أن الفقير إلى الله تعالى لا يحفظ هذا الكم الكبير من الأحاديث النبوية، خاصة وأن هناك أحاديث كثيرة وردت بروايات مختلفة، ولكن الله تعالى قد وفقني إلى ما ارتضاه سبحانه وتعالى. هذا وإذا كان هناك أي خطأ في كتابة أي حديث أو في تحقيقه أو في تخريجه، فهو راجع إليَّ أنا، والمؤلف منه براء براءة الذئب من دم ابن يعقوب، لذا قمت بكتابة (المترجم) بعد أي حديث حققته أو خرجته. وأسأل الله تعالى المغفرة والعفو.

اقتبس المؤلف فقرات كثيرة من التوراة والأناجيل المختلفة، يستدل بها على ما يقول، واكتفى بترجمتها إلى اللغة الأردية دون كتابة نصها العربي، لذا حرصتُ على توثيق هذه الاقتباسات من مصادرها العربية، وكتابة نصها العربي في المتن، أو في الحاشية إذا كان المؤلف قد اكتفى بالإشارة إليها في المتن. كما قمت بتصحيح أسماء الأسفار وأرقام الإصحاحات والفقرات التي وردت خطئاً في النص الأردي.

أورد المؤلف بعض الاقتباسات من المصادر العربية بنصها العربي، لذا حرصت على كتابتها بخط واضح حتى تتميز عن الترجمة.

يستشهد المؤلف أحياناً ببعض الأبيات الفارسية، حتى يوضح ما يقوله أو يثير ذهن وحافظة المتلقي، لذا حرصت على ترجمتها. وهذا يدل على حرص

علماء شبه القارة الهندية الباكستانية على الثقافة الشرقية، خاصة وأنهم ينكـــرون العصبية القومية.

حرص المؤلف على الدقة المتناهية في ترجمة معاني الآيـــات القرآنيـــة والأحاديث النبوية الشريفة، وترجمها ترجمة صحيحة، ترجمة تنم عـــن فهمـــه الدقيق وتدبره لمعاني الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف. كما تفـــوق فـــي ترجمة ما اقتبسه من المصادر العربية ومن التوراة ومن الأناجيل.

ويتميز الكتاب بالفكر الثاقـــب، وبأســـلوب بيانـــه الرفيـــع، والمنطقيـــة والاستدلال المتنوع، والرجوع إلى المصادر الأصيلة في كل ما يكتـــب، كمـــا يتميز بالأسلوب الذي يخاطب المسلم وغيره.

وفي النهاية أتقدم بخالص الشكر والتقدير للأستاذ الدكتور/ على جمعـــة مفتي الديار المصرية، والأستاذ الدكتور/ حسن عباس زكي، اللذان أتاحـــا لـــيَ فرصة ترجمة هذا الكتاب. أدعو الله تعالى أن يجعله في ميزان حـــسناتهما، وأن ينفع الله به عامة الناس في كل زمان ومكان.

المترجم

يوسف عامـــر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آلـــه وأصحابه الطاهرين.

مقدمـــة

المعاملات

المعاملات هي موضوع الجزء السابع:

يتحدث هذا الجزء السابع من كتاب "دائرة معارف في سيرة النبـــي ﷺ" عن المعاملات.

حدود المعاملات:

أطلق الفقهاء مسمى المعاملات علي الجزء الخاص من حقـــوق العبـــاد. علي سبيل المثال قسّم بعض فقهاء الشافعية الأحكام الشرعية إلي التالي: إما أن تكون متعلقة بالآخرة؛ فيقال لها العبادات، وإما أن تكون متعلقة بـــأمور الـــدنيا، فهي هنا على ثلاثة أقسام. فإن كانت هذه الأحكام الشرعية المتعلقة بأمور الدين تتضمن الحفاظ علي بقاء الأشخاص، يطلق عليها المعاملات) مثل البيع والشراء والإجارة والرهن وغيرها)، وإن كانت تعمل على الحفاظ علي الأسرة وبقائهـــا، فتسمي النكاح (مثل الزواج والطلاق والخلع وغيره). وإن كانت تعمـــل علـــى

الحفاظ على العمران(المدينة) فتسمي العقوبات[1] (مثل القصاص والعقوبة والتعزير وغيره).

قسم الإمام الشاطبي في بداية كتاب "الموافقات" الأحكام الضرورية للدين – والتي يتوقف عليها نفع ومصلحة الدنيا والدين، ويجد الفساد طريقه في الدين والدنيا، وتقع الحياة الإنسانية في المخاطر – إلى أقسام عدة هي:

١. العبادات: مثل أحكام الصلاة والصوم وغيرهما.
٢. العادات: مثل أحكام الطعام والشراب والملبس والمسكن.
٣. المعاملات: مثل أحكام الحفاظ علي النسل والنفس والمال.
٤. الجنايات: والمقصود بها تلك الأحكام التي تُطبق علي ذلك الشخص الذي لا يُنفذ الأحكام السابقة. مثل القصاص والحدود والتعزير.

قسم العلامة "ابن النجيم" (رحمه الله) أحد فقهاء الأحناف أمور الدين في كتابه" البحر الراق" إلى خمسة أقسام. وهى: العقائد، والعبادات، والمعاملات، والعقوبات، والأخلاق. ووضّح أن المعاملات تنقسم إلي خمسة أبواب هي:

١. المعاوضات المالية) البيع والشراء وغيرهما).
٢. النكاح (الزواج والطلاق وغيرهما).
٣. المخاصمات (الفصل في النزاع والشجار).
٤. الأمانات والميراث.
٥. العقوبات: وهي الأمور التي حرمتها الشريعة. وهي على خمسة أقسام هي الأخرى:عقوبة قتل النفس، وعقوبة السرقة، وعقوبة القذف، وعقوبة الاغتصاب، وعقوبة الردة.

---

[1] الكشاف، اصطلاحات الفنون، أحمد تهانوى، طبعة كلكته، ج١، ص٢٣، نقلا عن التوضيح والتلويح.

المراد بالمعاملات:

ولكننا في هذا الكتاب نطلق المعاملات علي أكثر من هذه المعاني الثلاثة. أي نقصدُ من المعاملات هنا كل الأحكام الشرعية، التي تتعلق بحقوق العباد، والتي يتضمنها القانون. فيدخل فيها المعاملات والعقوبات، التي تهدف إلى الحفاظ علي النفس، والمال، والعرض، سواء تتعلق بمصلحة الأشخاص، أو الأسرة، أو المجتمع بأكمله.

ويُطلق على قوانين الحفاظ على المدينة والعمل على نفعها مسمى السياسة، ولكن فقهاءنا القدامى أطلقوا عليها مصطلح السّير، مثل كتاب "السيّر" للإمام "محمد"، والذي يتضمن الحديث عن مسائل الإمارة والخلافة والسلم والحرب. وعبّر عنها المتأخرون باسم "الأحكام السلطانية". مثل كتاب "الأحكام السلطانية" للقاضي الماوردي الشافعي (ت ٤٥٠هـ)، و"الأحكام السلطانية" للقاضي أبي يعلي الحنبلي (ت ٤٥٨هـ). وورد حديث ضمني أيضًا في هذين الكتابين عن المسائل المالية ضمن الحديث عن الجزية والخراج والزكاة. ولذا فصل بعض المشايخ هذه المباحث،وأطلقوا عليها مسمّى كتاب "الأموال"، أو كتاب "الخراج"، من مثل "كتاب الأموال" لـ" أبي عبيد بن سلام" (ت ٢٢٤هـ)، و"كتاب الخراج" للقاضي "أبي يوسف" (ت ١٨٢هـ)، و"كتاب الخراج" لـ"يحيي بن آدم القرشي" (ت ٢٠٣هـ).

ويرى أهل السنة أنه بالرغم من أن الإمامة لا تتعلق بأصول العقائد، إلاّ أنهم ذكروها ضمن أحد المباحث الضرورية في خواتيم كتب العقائد، التي تتضمن حديثًا موجزًا عن شروط الإمامة وطريقة الانتخاب، والحاجة إليها وماهيتها.

ولكننا في العصر الحالي نجد اختلافًا كُليًا في ترتيب هذه المسائل، وأسلوب سردها عن أسلوبها عند السلف، لذا كانت هناك حاجة لاستخدام مصطلحات جديدة. وفي جزء المعاملات هذا ستكون هناك حاجة إلى تغيير وتبديل في المصطلحات القديمة والمباحث، وإضافة أبواب جديدة إليها.

والمراد الآن من المعاملات في مصطلحنا الجديد هو كل معاملات المسلمين، التي ترتبط بقوانين ولوائح الحكومة، والمجتمع والاقتصاد. ويمكن التعبير عن هذا أيضًا بألفاظ أخرى وهي أن مصطلح المعاملات في هذا الكتاب يُطلق على قوانين ولوائح التعاملات الاجتماعية بأسرها، والتي توضح الحقوق القانونية بين فردين أو أكثر، أو للمجتمع بأكمله. وإن أردنا تفصيل قوانين ولوائح هذه المعاملات؛ فيمكن لنا تقسيم المسائل كلها – مع قدر من التسامح – إلى ثلاثة أقسام. وهي: مسائل اجتماعية، ومسائل اقتصادية، ومسائل سياسية. ويمكن كتابة أبواب ضمنية تحت هذه العناوين الثلاثة. وأُطلق مسمى المعاملات على مجموعة هذه المباحث الثلاثة. وفى المسائل الاجتماعية سيكون الحديث عن قوانين الزواج والطلاق وغيرهما. وفى المسائل الاقتصادية يدور الحديث عن كل المعاملات المالية والتجارية. أما فى المسائل السياسية؛ فسوف يقتصر الحديث على الحكم والسلطنة وما يتعلق بها.

إشكالية هذا العمل:

وردت هذه الأحكام في سور عديدة من القرآن الكريم، وذكر المحدثون أحاديث في أبواب مختلفة في كتب الحديث وردت فيها هذه الأحكام. وأحاط الفقهاء بهذه المسائل في أبواب فقهية متعددة، ومن هنا لو نقوم بنقل هذه الأحكام فقط؛ لكان العمل سهلاً، ولكن في العصر الحاضر لا تتسع وتتعدد نوعية العمل

فقط؛ بل هناك حاجاتُ أخري، أولها هي أنه لابد من شرح وتفصيل هذه المسائل بطريقة وأسلوب يفي الواقع. هذا فضلاً عن أنه يجب حل المسائل التي تواجهنا اليوم اعتماداً علي ما يناظرها عند السلف. ورغم الحرص علي الدقة والاحتياط في شرح وتفسير هذه الأمور، إلا أن القلم يواجه كثير من العثرات للمرور في هذا الطريق، خاصةً وأن مؤلفات السلف خالية من الرّدود علي الأسئلة الحالية المتعلقة بالسياسة والاقتصاد، وبدون الاهتداء بها صعب جداً طي هذا الطريق بأمان. وهناك سبب أخر لهذه الإشكالية وهو أن ذات ﷺ نفسها كانت منبعًا لأحكام وفروض السياسة في العهدِ النبوي، وذات النبي ﷺ جامعةُ للإمامة والنبوة معاً، ولا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى مثلما لا يُفصل الظفر عن اللحم، و هذا هو السبب في أني ترددت كثيرًا لسنوات طويلة لكتابة هذا الجزء من الكتاب، وكثيراً ما قدمتُ علي تأليفه، إلا أنني كنت أتراجع. وكنت قد بدأت في هذا العمل في ٧ جمادى الثاني ١٣٥٨هـ، ولكني تراجعت بعد كتابة بعض الصفحات. وبعد سنتين أي في ٢٩ رمضان ١٣٦٠هـ عزمت علي الكتابة، ولكني توقفت ثانيةً، وفي ٢٤ شعبان ١٣٦٢هـ أصرّ قلمي علي طي هذا السفر البعيد، ولكنه توقف بعد عّدة خطوات. والآن ونحن في غرة رمضان المبارك ١٣٦٤هـ عزمت على السير في هذا الطريق مرة ثانية، والنتيجة يعلمها علام الغيوب. قال الله تعالي:

" رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي"(طه:٢٥-٢٨)

الأديان الأخرى والمعاملات:

أظهرت أديان الدنيا مختلف الاتجاهات في جعل المعاملات جـزءًا مـن تعاليمها؛ ففي التوراة نجدها جزءًا ضروريًا ومهمًا في القوانين الدينيـة، ولكـن المسيحية أهملتها تماماً. أما في أديان الهند، فنجد كلا الاتجاهين؛ ففي الهندوسية تعتبر "منوشا ستر "وشروحها المختلفة فروعًا من هذه المعاملات، ولكن الديانة البوذية حثت على الأخلاق، وحاولت جعلها قانونا. ولكن هذه الأقوام (الديانات) كلها تعترف بأن مصدر شريعتها علم إلهي، وعلم يفوق قدرة الإنسان.

مصادر المعاملات:

توجد في الدنيا أمم جعلت أساس شريعتها ودستورها العقل الإنساني بدلا من الوحي الإلهي، كما جعلت التجربة الإنـسانية والقيـاس أساسًـا لقانونهـا وشريعتها، ففي بعض الأماكن تكون رغبات القائد أو الملك الشخصية وطباعـه معيارًا للقانون، وفي أماكن أخري اختار شخص الشكل الجمهـوري، وجُعلـت كثرة الأفراد وقلتهم، وكثرة وقلة عدد المنتخبين لأي طـرف معيـارًا ومقياسًـا للصحيح والخطأ، والحق والباطل، ويُنتخب هؤلاء الأفراد والأعضاء من مختلف المؤسسات ومختلف المذاهب والجماعات، مما ينتج عنه أنه إن لم يكـن هنـاك رغبات ذاتية ومأرب شخصية فسوف تكون هناك رغبات مذهبيـة وتعـصبات حزبية، ويصبح نفع وضرر الفرق والجماعات أساسًا لقوانين الجمهورية، ومـن أجل مصلحتها فقط تُنَفِّذ المآرب الشخصية والمذهبية الحكم على الجمهور فـي زي الجمهورية، وتخضع الجمهور لهذا الحكم.

عجز المشرعين:

لا يوجد فرق واحد فى قانون الإسلام يحول بين المسلم وغير المسلم؛ في حين أن النظام الجمهوري يوجد به عشرات من الحُجب والجدران تحول بين المحلي والأجنبي، والغني والفقير، والرأسمالي والعامل، والتاجر والإقطاعي، والطبقي والغير طبقي، والحزبي والغير حزبي وغيرها من عشرات الحُجب التي كل واحدة منها راسخة رسوخ يصعُب معه إزالتها، وحين يُعرض أي اقتراح للمناقشة؛ فلا يفصل فيه طبقاً لوجهة النظر الإنسانية، بل طبقاً لوجهة نظر البلد، والقوم والجماعة والطبقة والحزب، ويقدم علي أنه آية رحمة للجمهور.

فشل الجمهورية:

إن أي اقتراح يُقدم بحماس وقوة ودليل ويُوافق عليه؛ فيكون هذا حال ضعفه، وهو إما أن يتغير دفعة واحدة، أو علي مراحل في كل جلسة أخرى، ثم يأتي مقترح جديد وفقاً لمكانه. ولا يتعدى عمره بضعة أيام، وينتهي هو الأخر، ويأتي الثالث والرابع والخامس ويكون مصيرهم أيضا الفناء والتغيير. وفي ظل كل هذه التغيرات تكون الأيد المتحكمة هي المصالح القومية والشعبية والحزبية، وحين لا تتحقق الفائدة لأي حزب أو جماعة، أو تتحقق لواحد دون الأخر؛ فيبحث الأخر عن طريق ثانٍ، وعندما يغلق هذا الطريق، يبحث عن طريق ثالث. وهكذا يمضي العمر كله في البحث ولا تتحقق الطمأنينة للجمهور.

عجز الإنسانية عن تشريع قانون عادل وصحيح:

إن القانون الذي يصدر رغم هذه التغيرات لا يتسم مُنفِّذه بأي شيء من الحساسية والعاطفة، لأنه مبني علي القوة الظاهرة فقط، ومن ثم يصطدم بمصالح مُنفِّذيه الشخصية في كل خطوة، وكثيرًا ما يصطدم بالحرص والطمع والغرور والتكبر والرشوة والمصالح الذاتية والحرام والخوف والمكر والخداع وغيرها من عشرات الصفات، التي تخالف أحاسيس وصفات الإنسانية، ويصبح فُتاتًا، وهنا يتحطم ميزان العدل.

الحاجة إلي القانون الإلهي:

ولهذا السبب اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون ميزان العدل هذا في الأيدي الإلهية ذاتها، والتي لا تتبع أي فرقة أو جماعة، وليست ملكًا لواحدة دون الأخرى، فهي ملك للجميع ومن أجل الجميع، وغنية ومنزهة عن سائر الأغراض النفسية، والتي لا تطمع في أي شيء لذاتها، والتي هي عليمة بالدنيا وأسرار فطرتها وطبيعتها، والعليمة بكل ذرة في الكون والخبيرة بكل زاوية من زوايا العالم، ومثلما أصدرت أمرها التكويني في الدنيا من العرش إلي الفرش، والذي يُطلق عليه القانون الطبيعي، أصدرت على الأرض أمرها التشريحي، والذي يُطلق عليه الشريعة مبنيًا علي العدل.قال تعالي:

"اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ" (الشورى:١٧)

"وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ" (الحديد:٢٥)

الكتاب والميزان:

ليس المقصود بالميزان هنا الميزان الحديدي، بل ميزان الطبيعة والعدل والحق، والذي به تُوزن كل أنظمة الكائنات، وتوزن سائر الأعمال البشرية، لذا فإنه لو يُعبر عن خلاصة العدل في سائر المعاملات بجملة واحدة؛ يُقال" ليس فى ميزان العدل قلة أو نقص". يقول الله تعالي:

"الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ* الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ* وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ* وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ* أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ* وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ" (الرحمن:١-٩)

هذا هو أكبر ميزان في الدنيا، وبه ذاته تُوزن سائر الأعمال والمعاملات في الدنيا، واسم هذا الاعتدال والنقص والقلة هو الحق والباطل، والعدل والظلم، والصواب والخطأ، لذا لابد من وضع هذا المعيار والميزان دائما علي شوكة الصدق والعدل. وفى هذه الآيات الكريمة ورد ذكر الإنسان قبل الشمس والقمر والنبات؛ لأن الله تعالى خلق هذه المخلوقات مسلوبة الإرادة. وهي تسير بعدل وطبقاً للأحكام والأصول الطبيعية لله تعالي، لذا يجب علي الإنسان الذي فاز بنعمة الإرادة أن ينجو بنفسه من رغبات النفس ووسوستها، وبإرادته يتبع العدل، ويعمل طبقا لأحكام الله تعالي. ويقول الله تعالى في كتابه الكريم في أكثر من آية:

"وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ" (الأنعام:١٥٢)

"فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ" (الأعراف: ٨٥)

"أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ" (هود:٨٥)

"وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ" (هود:٨٤)

والمقصود في هذه الآيات الكريمة هو ميزان المعاملات، والبيع والشراء بهذا الميزان وهذا الكيل، ولكن لابد من ميزان سائر المعاملات الإنسانية بهذا الكيل وهذا الميزان[1]، وإن بذرة الظلم الإنساني كله هي أن كل إنسان يريد ميزانا لنفسه، وميزانا آخر لغيره، فهو يزن لنفسه بميزان، ويزن لغيره بميزان آخر، ولعن الله والدنيا هذا الظلم. يقول الله تعالى:

"وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ" (المطففين: ١-٣)

وهذا هو تفصيل لمجمل الفساد في المعاملات الإنسانية، وتفسير لهذا الأمر. وقد بَيِّن الله تعالى في سورة الحديد ثلاث طرق لإرساء العدل في الدنيا. يقول الله تعالى:

"لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ" (الحديد: ٢٥)

وضّح الله تعالى في هذه الآية الكريمة ثلاث طرق تعمل على إرساء العدل ومنع الظلم. الأولى: هي الكتاب، أي مجموعة الأحكام الإلهية. والثانية: هي الميزان العادل والصحيح والفطري والراسخ في كل قلب يتصف بالصدق، والذي يقوم عليه أساس القانون الإنساني. والطريقة الثالثة: هي طاقة وقوة السيف، وهو الذي يجعل الناس تؤمن بهاتين الطريقتين. أي أن من ينكر الإيمان والاعتقاد بالأحكام الإلهية، ومن بفطرته يحطم ميزان العدل الصحيح؛ فيُضطرّ هنا إلي القوة حتى يؤمن ويعترف بالقانون. إن هذه الآلة الحديدية (السيف) تكون في إحدى أيادي الحكومة أو الدولة، والتي لابد أن تضع في يدها الثانية كتاب القانون الإلهي، والذي تُجبر رعاياها على الإيمان به (بهذه الآلة الحديدية).

---

[1] انظر تفسير آيات الميزان في سورة الحديد وسورة الرحمن وغيرهما في تفسير الطبري.

ثبات القانون الإلهي:

هناك شبهة على نظرية القانون الإلهي وهي أن الأحوال في الدنيا دائمـا تتغير، ولذا تتغير أيضا خريطة المجتمع الإنساني، وسوف تستمر فـي تغيرهـا هذا، ومن ثم لابد من تغيير القانون أيضا. والحقيقة هي أن هذا الاعتقاد باطـل تماما؛ إذ أن الشيء لا يتغير، وإنما تتغير ألوانه وأشكاله وأساليبه. على سـبيل المثال لا تتغير أبدا الأصول والقوانين الطبيعية للماديـات (إلا مـا شـاء الله)، فالشيء الحار يبقى حارا دائما، والبارد يبقى باردا دائما، ولا تصبح النار ثلجـا ولا يصبح الثلج نارا، ولا يصير الضياء ظلاما، ولا الظلام ضـياءً، والزمـان دائما يتغير، ويتعاقب الليل والنهار، وتتغيـر الـساعات والثـواني، وتتعاقـب السنوات، ولكن القمر هو نفسه القمر والشمس هي نفسها الـشمس، وأحوالهمـا وقوانينهما هي نفسها لا تتغير، وإن القانون الطبيعي الذي كان يحكم البر والبحر قبل آلاف السنين، مازال هو نفسه حتى اليوم، ولم يحدث فيه أي تغير في القرن الأول، أو القرن الرابع عشر، ومازالت السنة تتكون من اثني عشر شهرًا كمـا بدأت، ومازال اليوم والليلة يتكونان من أربع وعشرين ساعة كما بدأ. وهذا يعنى أن أمر الله سبحانه وتعالى وقانونه الطبيعي بقي على حاله كما كان. يقـول الله عز وجل في كتابه الحكيم:

" **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** " (الفتح:٢٣)

ثبات الحقوق الطبيعية والمعاملات:

وعلى هذا المبدأ وهذه القاعدة فإنه لم يحدث أبدا أي تغير في المبادئ الطبيعية والفطرية للقوانين الأخلاقية والاجتماعية والمعاملات الإنسانية، ولن يحدث أي تغير فيها أبدا، فلن يتبدل الخير إلى الشر، ولن يتبدل الشر إلى الخير، ولن يتبدل الصدق إلى الكذب، ولن يتبدل الكذب إلى الصدق، ولن يأخذ الظلم مسمى العدل، ولن يأخذ العدل مسمى الظلم. وكانت هذه الأمور محرمة دائما، وستبقى محرمة ما بقت الدنيا أيضا وهى: الاستيلاء على حقوق الآخرين واغتصابهم أشيائهم دون حق، والسرقة، وقطع الطريق، وهتك عرض الآخرين، والسطو على ثروة الغير بدون وجه حق، والاعتداء على المرأة دون أي حق قانوني، والاستيلاء على ثروة وأملاك الغير. إن رضا الطرفين في التعاملات، والعمل على منع الأسباب التي تؤدى إلى الحرب والنزاع، ومنع كل ما يؤدى إلى سوء الأخلاق، وسد باب الفتن والفساد، وإزالة الطرق المؤدية إلى الظلم، كل هذه الأمور كانت مواد في أي قانون شُكّل في أي عهد من العهود، فهذه المواد الفطرية والطبيعية بنود حتمية وضرورية للقانون، والآن أيضا إذا شُكّل أي قانون فسوف تكون هذه المواد الطبيعية أجزاءً لا تتجزأ من بنوده ومواده. ولا شك في أن جزئيات هذه المواد ستُحدَّث، وتبدو فروع هذه الكليات في أشكال جديدة، ومن أجلها سوف يُستخرج دائما ما يناظرها من جزئيات وأحكام من كليات القانون الإلهي.

الاعتقاد والفكرة الأساسية للقانون:

لكل مجموعة من القانون اعتقاد وفكرة أساسية، والتي عليها يرتكز كل جزء من أجزاء هذه المجموعة، فأحيانا يكون هذا الاعتقاد وهذه الفكرة الأساسية

مبنية على الأفضلية القومية، وأحيانا على الفائدة الوطنية، وأحيانا على التمييز العرقي، وأحيانا على المصالح التجارية، ولذا تتضح سلسلة من الأغراض الأساسية في هذه المجموعة من القانون، فحيثما يرتكز القانون على الأفضلية القومية تتحكم مبادئ الأبيض والأسود، والأوربي والمحلي، وحيثما يكون الوطن أساسا للقانون تكون جغرافية الأرض سببا في اختلافات القانون، وقد قسمت النزعات الرومية والغير رومية، واليونانية والغير يونانية، والمصرية والغير مصرية، والوطنية والأجنبية المصالح والمنافع الإنسانية إلى أجزاء متناثرة، ثم تطورت هذه النزعة القومية وغرست بذرة اختلاف قومية الأقاليم في البلد الواحد، فالبنجابي أجنبي في إقليم البنغال، والبنغالي أجنبي في إقليم البنجاب رغم أنهما هنديان، ولا يجد البهاري مكانا له في إقليم أُتربرديش، ولا يجد الأتربرديشي مكانا في إقليم بهار، ويُعبد الإله العرقي في الفاشية والنازية، وتُستعبدُ الأمم في الإمبريالية المعاصرة بسبب الأغراض والمنافع التجارية.

أساس القانون الإلهي وشموليته:

إن أساس قانون الإسلام هو دفع الفتنة والفساد، وإرساء العدل والأمن والأمان بين عباد الله تعالى، ودفع النزاع والمكر والخداع بين الناس في المعاملات، وهذا كله من أجلِ رضا الله عز وجل وطاعةً له[١]. ومن ثم فإن الحدود والتعزيرات التي توجد في قانون الإسلام تهدف إلى القضاء على الفتنة والفساد في الأرض، وإرساء العدل والأمن والطمأنينة بين الناس جميعا في كل

---

[١] العلامة عز الدين عبد السلام المصري، المتوفى سنة ٦٦٠ هـ، قواعد الأحكام في مصطلح الأنام، وانظر أيضا شاه ولي الله الدهلوي، كتاب حجة الله البالغة، باب المعاملات.

المعاملات، والهدف من الممنوعات والمنهيات القانونية في المعاملات هو استئصال النزاع والمكر والخداع.

رأيتَ فيما ذُكر أنه لا فرق في قانون الإسلام بين اللون والعرق والبلد والإقليم واللغة والحضارة، فهذا هو قانون الله، شُكِّل لسائر عباد الله، سواء كانوا بيضا أو سودا، آريين أو ساميين، أوربيين أو آسيويين، هنودا أو عرب، عجم أو تتاريين، فهو قانون واحد للجميع، والجميع أمامه سواء.

فرق جوهري:

لا شك في أن هناك فرق وهو أن الحكم يكون لمن يؤمن بأن هذا القانون قانون إلهي، وعليه ينقسم الأمر إلى ثلاثة أقسام:

١. من يؤمنون بأن هذا القانون قانون إلهي، أي يؤمنون بأن هذا القانون جاء من عند الله الواحد الحق عن طريق محمد رسول الله ﷺ على أنه آخر قانون. وهم المسلمون.

٢. من لا يؤمنون بهذا القانون الإلهي الخاص، ولكنهم يؤمنون بأي قانون إلهي آخر ـ حتى وإن أصابه التحريف ـ، وهم أهل الذمة. وهم على نوعين:

الأول: الكتابي وهو من عنده قانون إلهي يؤمن به، ومازال حتى الآن موجودا ضمن صحيفته الإلهية التي يؤمن بها. والنوع الثاني هو شبه الكتابي وهو من فقد صحيفة قانونه الإلهي.

٣. من لا يعرفون أي صحيفة إلهية، ومحرمون من أي قانون إلهي، وهم المشركون. ولا شك في أنه توجد بعض الامتيازات في القانون الإسلامي الإلهي بين هذه الأقسام الثلاثة، وسوف نتحدث عن هذا تفصيلا في موضعه.

وبعد هذا الحديث المجمل لعلك أدركت إجمالا ما هي حدود المعـــاملات، وما الأشياء التي تندرج تحتها، حتى نُقدّم لك حديثا مبسطا لهذا الإجمال.

من أجل استقرار العلاقات الحسنة بين الناس، ولاستقامة وضبط ميـــزان الأمور الاجتماعية لابد من وجود قوة وطاقة عاملة، والتي تجعل سائر الأشـــياء مطابقة لأحكام الشرع ونظام العدل. ولهذا البحث جزءان ضروريان:

١- الحاجة إلى هذه القوة والطاقة العاملة، حقيقتها وماهيتهـــا، شـــروطها وأوصافها، شعبها وإداراتها.

٢- أقسام المعاملات الإنسانية، وأحكام كل قسم علـــى حـــدة، وأســـراره ومصالحه.

مكانة وأهمية الحكم في الإسلام:

لقد جاء محمد رسول الله ﷺ في هذا العالم ببركتي الدنيا والآخرة، ولم يُبشِّر ﷺ بالملوكية السماوية فقط، وإنما بَشّر أيضاً بملوكية الدنيا بجانب الملوكية السماوية، حتى تقام عبادة الله تعالى وطاعته في الدنيا دون خوف، ومن أجل هذا تُقام ملوكية الله تعالى في الدنيا طبقاً لقانونه عز وجل. يقول الله تعالى:

"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا" (النور:٥٥)

ولهذا يجب محاربة العاصيين لله حتى يكون الحكم كله لله. يقول سبحانه وتعالى:

" وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه") الأنفال:٣٩)

أخبر القرآن الكريم بدعاء بعض عباد الله الصالحين .إذ يقول الله سبحانه:

" رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ") البقرة:٢٠١)

خير الآخرة معروف، أما عن خير الدنيا فقال عنه المفسرون أنه هو العلم، والعبادة، والصحة، والرزق، والثروة، والنصر، والخلف الصالح. ولكن إطلاق الحق سبحانه وتعالى لهذا ما هو إلا دعوة إلى التجديد في التفسير والتأويل. وخير الدنيا هو كل مباح في شريعة الله تعالى. يقول الله تعالى في آية أخرى:

" لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ") النحل:٣٠)

والمقصود هو أن المتقين ينالون ثواب الدنيا والآخرة، ولكن ثواب الآخرة أفضل وأعظم بكثير من ثواب الدنيا.

وهذه بشارة للذين ضحّوا بأنفسهم في سبيل الله تعالى. فيقول الله تعالى:

"فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ "(آل عمران:١٤٨)

إن ثواب الدنيا هو النصر، والفتح، والشهرة، والعزّة، والثروة، والملك.

والذين هاجروا في سبيل الله وتكبدوا الصعاب بكلّ رضا، آتاهم الله سبحانه ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

"وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ" (النحل:٤١)

إن أفضل شيء في الدنيا هو الملك، وكل ما هو مشروع من نعم الدنيا.

دعا سيدنا موسى عليه السلام ربه أن يمنحه نعمتي الدنيا والآخرة:

"وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ" (الأعراف:١٥٦)

إن ما يدعو للتدبر في هذه الآيات الكريمة كلها هو حث المؤمنين والمتقين على ثواب الدنيا وثواب الآخرة. ولكن ورد في كل آية أن نعيم الآخرة أفضل وأعظم بكثير من نعيم الدنيا، وهو الباقي، ومن ثم فلم يكن خير الدنيا هو الهدف الأصلي من حياتنا، ولكنه هدف ضمني، أي أنه صدقة وفداء لأعمال الآخرة، ولو أن الدنيا هي الهدف من حياتنا فسنحصل عليها، ولكن لن ننعم بثواب الآخرة. يقول تعالى:

"مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ* أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" (هود:١٥-١٦)

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ" (الشورى:٢٠)

"مَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ" (آل عمران:١٤٥)

"مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا *وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا" (الإسراء:١٨-١٩)

"مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ" (النساء:١٣٤)

لكم يكون أحمقًا من يطلب خير وثواب الدنيا فقط، في حين أن خزائن الدنيا والآخرة في يد الله سبحانه.

خلاصة القول هو أن من يطلب الدنيا وحدها، محروم من الآخرة، ولكن من يطلب ثواب الآخرة مفتوحة له أبواب الدنيا والآخرة معاً، ولكن من يطلب بجهله وحمقه ثواب الدنيا فقط، فله بغيته، ولكن سيُغلق أمامه باب ثواب وخير الآخرة.

إن أكبر نعم الله في هذه الدنيا هي الحكومة والسلطة وسياسة الدنيا، حتى أنها تأتي تالية في الدرجة لنعمة الكتاب والنبوة. يقول تعالى :

"فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا" (النساء:٥٤)

يقول سيدنا موسى عليه السلام لقومه:

"يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّـهِ عَلَـيْكُمْ إِذْ جَعَـلَ فِـيكُمْ أَنبِيَـاء وَجَعَلَكُـم مُّلُوكًـا" (المائدة:٢٠)

تحققت نبوءة سيدنا موسى عليه السلام هذه والتي كانت في شكل نبأ فـي عهـد الملك طالوت وداود وسليمان عليهما السلام، ويقول الله تعالى عن طالوت:

"إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا" (البقرة:٢٤٧)

وحين اعترض الناس على هذا؛ فقال الله تعالى:

"وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء" (البقرة:٢٤٧)

وقال الله تعالى لداود عليه السلام:

"يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ") سورة ص:٢٦)

دعا سليمان عليه السلام الله تعالى بالكثرة والمزيد في هذه النعمة:

"رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي" (سورة ص:٣٥)

وهذه النعمة لا تؤتى من أي إنسان، فمالكها هو الله سبحانه يؤتهـا مـن يشاء وينزعها ممن يشاء .يقول تعالى:

"اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُـؤْتِي الْمُلْـكَ مَـن تَـشَاء وَتَنـزِعُ الْمُلْـكَ مِمَّـن تَـشَاء" (آل عمران:٢٦)

يؤتي الله الملك لمن؟ وينزعه ممن؟ لقد وضع الله سبحانه وتعالى قاعـدة حكيمة في هذا الشأن. يقول تعالى:

"أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ* إِنَّ فِـي هَـذَا لَبَلَاغًـا لِّقَـوْمٍ عَابِـدِينَ" (الأنبياء:١٠٥- ١٠٦)

وحين بشر الله تعالى بهذه النعمة أخبر سبحانه أيضاً بالأعمال التي تكون هذه النعمة جزاءً لها .يقول تعالى:

" وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ*الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ" ، (الحج: ٤٠-٤١)

وواضحٌ أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر سيكون هو بنفسه أولاً خيِّرا، ويبتعد عن كل شر.

ونصر الله هنا يعني أنه يجب نصر دين الله الحق، وإن من ينهض لنصرة الحق؛ فإن الله ينصره. وفي هذه الآيات إشارة إلى أنه يجب أن تكون قوة التنفيذ وإقامة قانون الله سبحانه في أيدي المسلمين، حتى تقوم كل الحدود والتعزيرات في الإسلام طبقًا للشريعة الإسلامية.

يقول الله تعالى في حد الزنا:

" لَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ" (النور: ٢)

إن من لا يؤمن بالقانون الإسلامي فيما يتعلق بالربا؛ فيجب عليه أن يستعد لحربٍ من الله ورسوله .يقول تعالى:

"فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ" (البقرة: ٢٧٩)

ولذا فإن معاهدة الصلح التي كان قد عقدها النبي (ﷺ) مع مسيحيّ نجران، كان من بين بنودها أنهم إذا تعاملوا بالربا تُلغى هذه المعاهدة.[١] إن من يبغي على دولة الإسلام، ويقطع الطريق، ويسلب وينهب، يقول القرآن الكريم عنه بأنه يحارب الله والرسول ﷺ، وعقابه القتل، أو الصلب، أو قطع اليد، أو السجن، أو النفي. وعبّر عن عجزهم وحالتهم هذه بالعذاب والخزي في الدنيا . يقول تعالى:

---

[١] سنن أبي داود، باب أخذ الجزية.

"إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (المائدة:٣٣)

بعد بعثة سيدنا موسى عليه السلام، وحين بدأ فرعون بسبب غرور ملوكيته في إلحاق الكثير من المظالم ببني إسرائيل، فهدأهم سيدنا موسى عليه السلام. يقول الله تعالى:

"اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" (الأعراف:١٢٨)

أظهر بنو إسرائيل اضطراباً عكسيًا على الصبر والسلوان، والذي كان في حقيقة الأمر بشارة للنبوءة. يقول الله تعالى:

"عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ" (الأعراف:١٢٩).

وأخيراً عندما حل وقت تحقيق الوعد الإلهي، انقلب عرش ملوكية فرعون، وفاز قوم مصر بتاج الخلافة الإلهية. يقول الله تعالى:

"وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ" (الأعراف:١٣٧)

فاز بنو إسرائيل بهذه النعمة بسبب صبرهم وتمسكهم بطريق الحق، وظلوا يفوزون ببركة الدنيا، ولكن حين بدءوا يبتعدون عن الصبر والطريق الحق، ويصدون عن الإيمان بالأنبياء وعدم الاستجابة لهم؛ وقع تاج العزة هذا فجأة من على رؤوسهم. وكان الله تعالى قد قال في حقهم:

"وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا* فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً* ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا" (الإسراء: ٤-٧)

يعرف أهل العلم أن ذكر أحداث ووقائع بني إسرائيل في القرآن الكريم كان لأغراض، من بينها أن تكون عبرةً ودرسا للمسلمين حتى يدركوا بأنه إذا لم يفوا بعهد الله تعالى؛ فسوف يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل.

في الآيات الكريمة السابقة تصريح بأنه حين فاز بنو إسرائيل بالخلافة؛ فنُبّهوا بادئ ذي بدء بأنهم سيفوزون بهذه الخلافة وهذا الملك طالما يتبعون الأحكام الإلهية، وإن أعرضوا عنها، فسوف يحرمون من رحمة الله تعالى. وقد تعرض اليهود في تاريخهم قبل الإسلام لهذين الأمرين، وبسبب أعمالهم أُنتُهك بيت المقدس وأُذلوا وأصبحوا محكومين مرتين، واحدة على يد ملك بابل بنوكدنذر المعروف ببخت نصر والثانية على يد الرومان بعد عيسى عليه السلام.

اتضح من هذه الآيات الكريمة أن اندثار الملك الديني، والأسر في قبضة ملك ظالم، والتبعية والخضوع للآخرين - والتي هي نتيجة لأعمالنا السيئة- بسبب غضب الله سبحانه وتعالى في الدنيا.

وقد أُمهل اليهود مرة أخيرة حين جاء محمد رسول الله ﷺ، فقال الله تعالى بعد الآيات السابقة:

" عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا* إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا" (الإسراء:٨-٩)

إن تمنى هذه الرحمة كان مشروطا بشرط، ألا وهو إيمانهم بخاتم النبيين ﷺ، ولكنهم حين حرموا من هذا الإيمان، ابتعدت عنهم أيضًا الرحمة الإلهية، لذا أُخبروا بقول الله تعالى:

"وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ" (البقرة:٤٠)

وورد هذا الميثاق الإلهي في سورة البقرة أكثر من مرة. يقول الله تعالى:

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ*ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ" (البقرة:٨٣-٨٥)

ولكن الله سبحانه وتعالى نسيهم للأبد بسبب نسيانهم دائما لهذا العهد والميثاق. يقول الله تعالى:

"فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ " (البقرة:٨٥)

أُخبر أهلِ الكتاب بهذا العقاب بسبب إثم وجريمة تخريب المساجد خاصة التخريب الظاهري والباطني لبيت المقدس. يقول الله تعالى:

"وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ" ، (البقرة:١١٤)

إن من يحاربون الله عز وجل ورسوله، وينشرون الفساد والنهب في أرض الله تعالى تحددت عقوباتهم في الدنيا، وهي إما أن يقتّلوا، أو يصلّبوا، أو تُقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو يُنفوا من الأرض. يقول الله تعالى:

" ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ " (المائدة:٣٣)

وأخبر القرآن الكريم بأن عقوبة سادة اليهود وأحبارهم الذين تركوا الكتاب الإلهي واتخذوا عاداتهم وتقاليدهم شريعة لهم هي:

" لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ " (البقرة:١١٤)

فإن من يجادل من الناس في الدين بغير علم ولا هدى ولا كتاب معتمدا على أوهامه ومعتقداته الباطلة، ويضل عن طريق الحق بسبب غرور الثروة والجاه والنفوذ الدنيوي؛ فله في الدنيا خزي فضلا عن عذاب الآخرة. يقول الله تعالى:

" وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ " (الحج:٨-٩)

حين اتخذ اليهود العجل (ابن البقرة) صنما وعبدوه، فحذر الوحي الإلهي موسى عليه السلام:

" إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ" (الأعراف:١٥٢)

ليس هذا فحسب بل ضربت عليهم الذلة والمسكنة والغضب الإلهي للأبد، إذ أنهم ابتعدوا عن الأحكام الإلهية، وقتلوا الأنبياء، وتعدوا حدود الله. يقـــول الله تعالى:

" وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّه ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ كَـانُواْ يَكفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَـدُونَ" (البقرة:٦١)

كانت بعثة خاتم الأنبياء ﷺ آخر مهلة لليهود، ولكنهم أصروا على عنادهم المعهود، لذا كتب الله عليهم الذلة والمسكنة والعبودية للغير إلى يـوم القيامـة. يقول الله تعالى:

" ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّه وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَـآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَـاتِ اللّـهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ" (آل عمران:١١٢)

وفي سورة الأعراف يقول الله عز وجل:

" وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُـوءَ الْعَـذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ " (الأعراف :١٦٧

منذ بداية تاريخ اليهود وحتى اليوم والقرآن الكريم شاهد على صدق هذا الأمر وهو أنه لا يوجد أي عهد لم ينل اليهود عقاب أعمالهم علـى يـد ظلمـة الحكام والممالك القوية، وما يحدث اليوم في العالم واضح أمام الجميع.[1]

فسّر علماء التفسير هذا العذاب الدنيوي والذلة والنكبة والمسكنة بالجزية، أي عبوديتهم وتبعيتهم الدائمة. ورد في دعاء القرآن الكريم قوله تعالى:

---

[1] نشير إلى أن هذا الكتاب قد تم تأليفه ونشره قبل ظهور دولة إسرائيل، أي إبّـان فتـرة تشتت وتشرد اليهود في دول أوربا وغيرها بسبب سوء أعمالهم.(المترجم).

" **اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ" (آل عمران:٢٦)**

في هذه الآية الكريمة لف ونشر، أي وُضّح فيها عِزُّ نيل الملك، وذُلّ نزع الملك. ولكن لابد علينا هنا أن نذكر هذا الأمر الجدير بالذكر وهو أن ما يحدث لليهود الآن وما سيحدث ليس له أية علاقة بالجنس اليهودي وقوميته، وإنما يرتبط بأفعالهم وسلوكياتهم من ابتعادهم عن الأحكام الإلهية، وتكذيبهم وقتلهم للأنبياء وطمعهم وبخلهم وأكلهم الربا، وكل الذمائم والقبائح الأخرى، التي ذُكرت تفاصيلها وهم مسئولون عن أنهم حرموا من شرف خلافة الله في الأرض للأبد.

يقول الله تعالى:

" **إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ" (الأعراف:١٥٢)**

إن هذا الذل والخزي ليس عذابا دنيويا خاصا لمن يعبدون صغير البقرة(العجل) فقط، بل هو ذل وعذاب دنيوي لكل مفتر يحني جبهته أمام عتبة الغير رغم أنه موحد، ويترك مالك السموات والأرض، ويبحث عن مالكين آخرين، وهو بهذا لن يصل إلي ثروة العزة والكرامة أبدا. يقول العلى القدير في كتابه الحكيم:

" **وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ" (الحج:١٨)**

إن عبادة الله سبحانه وتعالى وطاعته هي الوسيلة الوحيدة للفوز بنعمة الله التي وعد بها، وتتضح عبادته وطاعته هذه عن طريق الإيمان الكامل بأحكامه سبحانه وتعالى وأوامره والعمل بما يطابقها، وهذا هو طريق الفوز برضا الله تعالى. والجنة هي رضا الله تعالى في الآخرة، والطمأنينة والبركة بمختلف صورها هي رضا الله تعالى في الدنيا. والتسليم والإقرار بأحكام الله تعالى

بالقلب والروح واللسان يسمى في الشرع الإيمان، والعمل بما يطابق أحكامه وأوامره سبحانه يسمى العمل الصالح، فالإيمان والعمل الصالح هما مفتاح خزينة بركات وخير الدين والدنيا، وبهما يهطل مطر البركة والخير من السموات والأرض، وتفور عيون النصر والفتوحات. يقول الله تعالى مخاطبا اليهود والنصارى:

" وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ* وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم" (المائدة: ٦٥-٦٦)

لكنهم مع الأسف لم يصغوا إلى هذا النداء، ومن ثم عُوقبوا بمثل ما عوقب به العصاة الآخرون من الأمم. يقول الله تعالى:

" وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ" (الأعراف: ٩٦)

ثم وعد الله تعالى المسلمين خاصة بقوله سبحانه عز وجل:

" وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ " (النور: ٥٥)

وقال في آية أخرى:

" وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ" (الفتح: ٢٠)

بُشّر مجاهدو الأمة بأن لهم خير الدنيا والآخرة:

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ* تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ

طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ* وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" (الصف: ١٠- ١٣)

وكان فتح مكة المكرمة هو طليعة هذا النصر والفتح في هذه الدنيا، أما نهايته فهو رفع راية الإسلام على سائر العالم، وغلبة الدين الإلهي على كل الأديان. يقول الله تعالى:

" وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" (التوبة:٣٣)

وردت هذه النبوءة وهذه البشرى مرتين في سورتي الفتح والصف، فقد كان يُعرف بأن نبوءة وبشرى سورتي التوبة والفتح مقابلة للكفار، وبشارة ونبوءة سورة الصف مقابلة لأهل الكتاب. وقد تمت هذه البشرى والنبوءة في أمر (ألا وهو فتح مكة)، والآن يتحقق أمرها الثاني (ألا وهو غلبة الإسلام على كل الأديان) في المستقبل، وهذا سبب لاتحاد المسلمين وطمأنينتهم، ولكن السعي فُرض على المسلمين من أجل تحقيق هذا الأمر الثاني. ورغم أن النبي ﷺ الصادق المصدوق كان قد بشر بالنصر في غزوة بدر وغيرها من الغزوات، ولكن المسلمين سعوا كل السعي من أجل تحقيق هذا النصر. وفي بشري سورة الفتح إشارة إلى هذا السعي. يقول الله تعالى:

" وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه " (الأنفال:٣٩)

الحكم(الدين) كله لله يعنى أنه لاَ تستحق أي قوة روحانية أو جسمانية أي طاعة أو خضوع في الدنيا؛ فالطاعة والخضوع لله تعالى وحده وإن من تجب

إطاعته فتكون أيضا ضمن إطاعة الله تعالى، وإن من يجب رضاه يكون رضاه طبقا لطاعة الله تعالى أيضا.[1]

بُشِّر المسلمون في آيات مختلفة من آيات الذكر الحكيم بالفوز بالنصر والمغانم الكثيرة، وهذا يعنى بوضوح أنهم سيفتحون المدن ويحكمون البلاد، ومغانم كثيرة يأخذونها. يقول الله تعالى في سورة الفتح:

" لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا*وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا* وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا* وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا " (الفتح: ١٨- ٢١)

إن بُشرى ونبأ الفتح والغنيمة في هذه الآية الكريمة هو فتح خيبر، والذي تم بعد بيعة الرضوان مباشرة، وهناك إشارة إلى التمكن من الفتح الثاني بعد هذا

---

[1] المراد هنا هو أن الطاعة في الدنيا والخضوع لله تعالى وحده، وليس هناك في الدنيا من هو يستحق الطاعة المطلقة سوى الله، فطاعة ولي الأمر على سيل المثال لابد أن تكون مطابقة لطاعة الله تعالى ومرضاته، وطاعة الرسول طاعة لله تعالى. ورد في صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب باب قول اللَّهِ تعالى: {أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ} (النساء: ٥٩)، (٦٩٧٩) حدَّثنا عبدانُ أخبرَنا عبدُ الله عن يونسَ عنِ الزهريِّ أخبرني أبو سلمةَ بن عبد الرحمن أنه سمعَ أبا هريرةَ رضيَ اللهُ عنه يقول: أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَن أطاعني فقد أطاعَ اللهَ ومن عصاني فقد عصى اللهَ، ومن أطاعَ أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني». (المترجم).

وهو فتح مكة، ومن ثم بُشر المسلمون بهذه البشري أثناء عودتهم من الحديبيـــة. يقول الله تعالى:

"إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا"   (الفتح: ١)

حين أدى النبي ﷺ فروض النبوة في الدنيا وطهّر الكعبة المشرفة والعرب أيضا من نجاسة عبادة الأصنام أمره الله سبحانه وتعالى بعد تحقيق وعــده لــه بالفتح والنصر بالتوجه إلى عالم الآخرة. يقول الله تعالى:

" إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ"   (الفتح: ١-٣)

بدأت دعوة الإسلام برفض الشرك والدعوة إلى التوحيــد، ثــم أخــذت الشرائع والأحكام تنزل تدريجيا، وتدريجيا أيضا أخذت تكتمل تعاليم رضــا الله تعالى ودعوة طاعاته وعباداته وأداء الفروض والحقوق وصفاء القلوب والنفوس والتمسك بالأخلاق والمثل العليا، وبجانب هذا تشكل نظام الحكم بنفسه، واكتمل. وهنا لابد من دفع هذه الشبهة[١] وهي(أن الهدف من الدعوة الإسلامية هو تأسيس دولة).

لا يوجد بين طيات دفتر الإسلام كله حرف يدل على أن تأسيس دولة كان هو الهدف الأصلي من دعوة الإسلام، وأن دعوة العقيدة والإيمــان والــشرائع والأحكام والحقوق والفروض كانت تمهيدا لتأسيس هذه الدولة. إن الثابت هو أن الدعوة إلى الشرائع والحقوق والفروض كانت هي الهدف الأصــلي، وإن قيــام دولة صالحة كان بمثابة سبب يبعث على الطمأنينة والسكون من أجل تحقيق هذه

---

[١] وهي أن بعض المستشرقين والمعارضين للإسلام يزعمون بأن الهدف من الإسلام كان تأسيس دولة كبيرة.(المترجم).

الدعوة، ومن أجل تنفيذ الأحكام الإلهية بسهولة ويسر، ومن هنا كان قيام الدولة مطلبا عارضا. والآية الكريمة التالية تترجم هذا بوضوح:

" وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا " (النور: ٥٥)

إن الغرض من عطاء الخلافة في هذه الآية الكريمة هو عطاء بالأمن بعد الخوف، وقوة بعد الضعف حتى تتحقق عبادة الله وطاعته في كل أمر، ويُبتعد عن أي شرك، ولو أن الواقع يخالف هذا فيقال إن تعليم العبادة الإلهية ودعوة رد الشرك من أجل قيام الخلافة والفوز بالملك والسلطنة.

ومن الواضح أنه منذ أن أصبح الإسلام دينا، كان دولة أيضا من ذلك اليوم نفسه، كان مسجده ديوانا لهذه الدولة، ومنبره كان عرشا لها. زعم أعداء الإسلام أن محمدًا رسول الله ﷺ عرض في بداية الأمر دعوة الدين، وحين تحقق له النجاح، والتف حوله مجموعة من محاربي العرب، فأخذ يفكر في قيام وتأسيس دولة. والحق هو أن اعتقادهم وزعمهم هذا مبني على عدم معرفتهم بحقيقة الإسلام وتاريخه، فمثل هذه الرياسة والملوكية والزعامة قدّمها سادة وزعماء قريش بأنفسهم إلى النبي ﷺ شريطة ألا يسيء إلى أصنامهم، ولكن النبي ﷺ ضرب بطلبهم وعرضهم هذا عرض الحائط[١]، إذ أن الغرض من دعوته ﷺ لم يكن الملوكية البشرية لمحمد ﷺ؛ بل كان تأسيا وإرساءً لملوكية الله الواحد الحق على وجه الأرض، لذا جاء الإسلام منذ يومه الأول بدعوة الدين والدنيا، وجنة الأرض وجنة السماء، وبدعوة الملوكية السماوية وخلافة الأرض معا، وليس في نظره الإله والقيصر اثنان كما يزعم المسيحيون، بل هو ملك

---

[١] انظر سيرة ابن هشام، وفد سادة قريش.

واحد على الإطلاق، ليس في حدود مملكته لا قيصر ولا كسري، وحكمه سار وجار من العرش إلى الفرش، ومن السماء إلى الأرض، وهو الحاكم في السماء، وهو الآمر على الأرض. يقول الله تعالى:

" وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ" (الزخرف:٨٤)

جاء الإسلام ليطرد الكُهّان والنماردة والفراعنة ومن على شاكلتهم جميعا من دواوينهم، وينادي بأنه لا يوجد في السماء والأرض سوي حكم واحد وهو حكم الله تعالى، ليس على أرضه لا قيصر ولا كسري، ولا في سمائه كاهن ولا مطلع على الأخبار، وإن من يقف في طريق هذه الدعوة يُبعدّ عن طريقها، وإن من يرفع السلاح في وجهها ليحول بينها وبين قصدها، يُسقَط سلاحه بالسلاح. نبّه الله تعالى المسلمين في آخر سورة المزمل والتي نزلت في بداية الوحي[1] قائلا:

" وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (المزمل:٢٠)

أُعلن عن نبوءة هذا القتال في تلك الفترة، التي لم يكن أحد يعرف فيها أن رسالة الإسلام ستُبلغ في فترة ما بلسان السيف، وكأنه كان معروفا منذ بداية الإسلام أن الناس سيرفضون قبول هذه الدعوة الإسلامية، ويحاولون منعها والقضاء عليها بالقوة، وعليه فسوف يضطر المسلمون إلى منازلة هؤلاء المنكرين والمخالفين في الميدان.

حين أُعلن عن التوحيد في مكة المكرمة، فتشاور عتبة (بن ربيعة) أحد سادة قريش مع غيره من الزعماء والسادة، وجاء إلى النبي ﷺ وقال: يا ابن

---

[1] ورد في بعض الروايات أن هناك سنة فاصلة بين نزول أول هذه السورة وأخرها. صحيح مسلم، باب صلاة الليل، والبيهقي، والحاكم، وأحمد.

أخي! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا. فقرأ النبي ﷺ آيات من سورة فصلت[1] ردًا عليه، وتأثر بها عتبة تأثرا كبيرا، وحين رجع قال لقريش: إني سمعت من محمد قولا، والله ما سمعتُ مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش! أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملكم، وعزه عزكم. ولكن سادة قريش قالوا له: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.ورفضوا هذا الرأي رفضًا تاما.

وبعدة عدة أيام اجتمع كبار سادة مكة المكرمة ثانية، وذهبوا إلى النبي ﷺ وقالوا له:

" يا محمد! والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة؛ فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا [2]

---

[1] " حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ" (فصلت: ١-٥)(المترجم).

[2] كانوا يسمون التابع من الجن رئيا. للمزيد أنظر سيرة ابن هشام.(المترجم).

تراه قد غلب عليك، فربما كان ذلك بذلنا لك من أموالنا في طلب الطب لك حتى ترئك منه، أو نعذر فيك"

استمع النبي ﷺ إلى هذا الكلام كله، وقال:

"ما بي ما تقولون، جئت بما جئتكم به لا أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل عليّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم"

اتضح من هذا الحوار أنه لم يكن غرض الإسلام تحقيق ملك شخصي أو قومي كما في الروم وإيران والحيرة والغساسنة، وإلا لكان كافيًا عرض سيادة قريش أو ملك الحجاز، ولكن حقيقة الأمر كانت بعيدة كل البعد عن هذا، فالإسلام جاء بنظام يُصلح الدنيا والحياة الأخلاقية والسياسية، ويتسع هذا النظام لكل شيء في الدين والدنيا، ومن ثم أُضطر إلى استخدام القوة مع العرب والعجم وغيرهم. وفي نهاية الأمر يأتي سادة قريش إلى أبي طالب، ويطلبون الصلح والسلام مع محمد ﷺ، فيقول أبو طالب لابن أخيه: يا ابن أخي! هؤلاء أشارف قومك، قد اجتمعوا لك، ليعطوك، وليأخذوا منك. فقال الرسول ﷺ: "أرأيتم إن أعطيتكم كلمة تكلمتم بها، ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم". قال أبو جهل: ما هي؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها. قال ﷺ: تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه".[١]

كان النبي ﷺ يلتقي بقبائل العرب كل على حدة في موسم الحج ويدعوهم إلى التوحيد، وكان يعرض عليهم دعوته بهذه الألفاظ:

---

[١] سيرة ابن هشام.

" أيها الناس قالوا لا إله إلا الله تسلموا، وتملكون بها العرب ويخضع لكم العجم وتدخلون الجنة"[1].

في بيعة العقبة حين جاء بعض الرجال من المدينة المنورة يبايعون النبي ﷺ خفية ليلاً في واد بمكة خشية كفارها فنهض خطيب من الأنصار وقال ببصيرة وفراسة إيمانه: إن هذا لإظهار لحقيقة عظيمة الشأن. وأمسك أسعد بن زرارة الأنصاري ﷺ بيدي النبي ﷺ وقال لأصحابه: أيها الناس أتعرفون على أي أمر تبايعون اليوم محمدًا رسول الله ﷺ؟ أ تعرفون أنكم تبايعون اليوم على أنكم مستعدون لقتال العرب والعجم بل الجن والبشر؟ أجاب الرجال جميعا: أجل. وهنا قال: يا رسول الله أمل علينا الآن شروطك. قال الرسول ﷺ: " آمنوا بأنه لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطيعوني واللائق لأي عمل لا تتنازعوا لسلبه منه، وأن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم" قال الأنصار: أجل يا رسول الله، موافقون على كل شروطك هذه، ولكن ما الذي سنفوز به من هذا؟ قال ﷺ: الجنة والنصر والفتح"[2].

وكأنه كان معروف منذ البداية أن كلمة التوحيد هي مفتاح ملك الدين والدنيا، وكان معروف أيضا أن رسالة الصلح التي جاء بها الإسلام ستقابلها الدنيا بالحرب، وفي النهاية لابد من إسقاط السيف بالسيف، وسوف يُضطر إلى محاربة العرب والعجم، بل الجن والبشر من أجل إرساء نظام الإسلام في الدنيا حتى يكتمل دين الله سبحانه وتعالى اكتمالا.

---

[1] طبقات ابن سعد، ج١، ص١٤٥، لايدن.

[2] طبقات ابن سعد، الجزء الثالث، البدريون، القسم الثاني، ص١٣٩، لايدن.

حين كانت طاقة الإسلام الدنيوية محاصرة دائما بالأعداء في بداية الإسلام، بشّر الرسول ﷺ صحابتَه الكرام في أحوال كثيرة بفتح مدن وبلدان كبيرة، الأمر الذي يوضح أن النبي ﷺ كان قد أُخبر بعلم هذه الأحداث، وكان ﷺ يعرف أنه حين يفي المسلمون بعهد الله تعالى، يفي الله سبحانه وتعالى بعهده أيضا، وينعم عليهم بملك الدنيا ويضع تحت أقدامهم تيجان الملوك.

إن الأحوال والصعاب التي أُحيط بها الإسلام في بدايته، لم تكن تجعل أي أحد يتوقع أن سواعد هذه الحفنة من الفقراء المهاجرين، ستقوى بعد سنوات قليلة، وتقلب عرش قيصر وكسري، ولكن النبي ﷺ الصادق المصدوق كان قد أخبر بهذا في ذلك الوقت بأن المسلمين سيفتحون القسطنطينية، ويستولون على المدائن، وتصبح خزائن قيصر الروم وكسري فارس في أيديهم، ويفوزون بعرش مصر، وسيقاتلون الأتراك أصحاب العيون الصغيرة والمدورة وجوههم، وتكون الهند ميدانا لجهاد جيوش المسلمين، ويكون بحر الروم ميدانا لسفنهم الحربية، وسيفوزون يوما بمفتاح بيت المقدس(١).

ولكن لابد من عدم نسيان هذا الأمر فى وجود هذه البشارات والتنبوءات، وهو أن الحكم والملك والتاج والخزينة أمور ليست مقصودة بالذات في الإسلام، وهذا لأنها معينة لتنفيذ أحكام الله تعالى، وهي وسائل لإجراء وتنفيذ حدود الإسلام وقانون العدل، وإن لم يكن هناك وجود لهذين الأمرين فيكون هذا الملك ليس ملكا إسلاميا حتى ولو كان للمسلمين. والأمر الثاني هو أنه لابد من إنفاق هذه القوة والنفوذ والشكيمة والثروة في كل ما فيه رضا الله تعالى فقط، وإن لم يتوفر هذا فيكون هذا الملك ملكا للهو والمتعة والثروة والحشم والجاه، وموجبا لسوء المآل، لذا لابد من تعلق القلب بالكَر والفر، والاعتقاد في أن ملك الدنيا

---

(١) ورد الحديث عن هذه النبوءات في الجزء الثالث من كتابنا هذا.

وجاهها، ومالها ليس للدنيا وإنما هي أمور من أجل تزيين وتجميل الآخرة، فالدنيا حرث وحقل الآخرة، ومن يجعل هذا الحرث حرثا للدنيا فما له في الآخرة من نصيب، ومن يجعله للآخرة؛ فيفوز بفلاح وثواب الدنيا والآخرة معا. يقول الله تعالى:

" مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ " (الشورى: ٢٠)

" وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ " (آل عمران: ١٤٥)

وهذا كله هو ما نُبّه إليه المسلمون في كل لحظة، أنه لابد عليهم ألا ينسوا بأن عقب الثروة الفانية ثروة باقية لأن لذة الدنيا وراحتها ومتاعها وثروتها وملكها لا شيء أمام لذة وثواب ونعم الآخرة. يقول الله تعالى:

" وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ " (النحل: ٤١)

إن من يرجحون بأخطائهم أجر الدنيا الفاني على أجر الآخرة الباقي ينبههم الله تعالى بقوله سبحانه:

" أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ " (التوبة: ٣٨)

" وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ " (القصص: ٦٠)

" بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى " (الأعلى: ١٦- ١٧)

" وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ " (الأعراف: ١٦٩)

وهكذا فإن عذاب الآخرة لأكبر بكثير من خزي الدنيا. يقول الله تعالى:

" فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (الزمر:٢٦)

" وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى " (طه:١٢٧)

لو أن أي أحد يحكم فى الدنيا دون الاهتمام بالآخرة، ويملأ بيته بثروة وأموال الدنيا؛ فيكون سعيه هذا كله دون فائدة، وتكون هذه الثروة جميعها خسارة. يقول الله تعالى:

"مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (هود: ١٥-١٦)

إن ملك الدنيا كله لا يساوي أي شيء أمام نعيم الآخرة. يقول الله تعالى:

" فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ" (التوبة:٣٨)

"وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ" (الرعد:٢٦)

إن يكن الحرص على متاع الدنيا فقط دون الاهتمام بنعيم وثروة الآخرة، فيصبح متاع الدنيا ولذتها خداعا وزيفا ليس إلا. يقول الله تعالى:

"وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ" (آل عمران:١٨٥، والحديد:٢٠)

إن الدنيا في الإسلام ليست من أجل الدنيا، وإنما هي من أجل الآخرة، لذا يُكرّر دائما في خطب يوم الجمعة:

إن الدنيا خلقت لكم وإنكم خلقتم للآخرة

وأخبر القرآن الكريم أن الله تعالى خلق للإنسان ما في الأرض جميعا. يقول الله تعالى:

"هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً" (البقرة:٢٩)

ثم يخبر الحق جل شأنه في آية أخرى الغرض من خلق الإنسان:

"وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات:٥٦)

سُخّرت الدنيا وكل ما فيها للإنسان حتى تكون وسيلة لرضا الله عز وجل، ويفوز الإنسان بنعم الآخرة نتيجة لأعماله في الدنيا، وقد أُعطيت له ثروة الدنيا حتى يحصل بها على صفقة الآخرة، لذا بيّن الله تعالى هذه الحقيقة في قصة قارون على لسان بعض مؤمني بني إسرائيل، إذ يقول جل شأنه:

"وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا" (القصص:٧٧)

وفي هذا المقام يُشتهر قول: **الدنيا مزرعة الآخرة.**

والآيتان الكريمتان التاليتان، والتي بُشّر فيهما بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ينالون الفتح والملك الدنيوي، تُوضح قصدنا هذا. قال الله تعالى:

"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (النور:٥٥-٥٦)

أخبر الله تعالى بأنه يمنح الذين آمنوا وعملوا الصالحات ملك الأرض، والأمن والتمكين في الأرض حتى يبتعدوا عن كل قوة مخالفة، ويطيعوا الله سبحانه وتعالى، ويعبدونه وحده عز وجل، وينفذوا أحكامه، ويعملوا طبقا لشريعته. وحين يعلو أي أحد برأسه على الأحكام الإلهية بعد هذا الأمن والتمكين واستئصال القوات والطاقات المانعة والمخالفة، فيصبح عاصيا. وهنا تكون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول وسيلة لرحمة الله تعالى.

يقول الله تعالى في آية أخرى:

(الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ) (الحج: ٤١).

ثبت من هذه الآية الكريمة أن الغرض من الإنعام على المسلمين بالقوة والتمكين فى الأرض هو أن يقيموا الصلاة — والتي هي دليل على أداء الحقوق الإلهية —، ويؤتوا الزكاة — والتي هي الاسم الثاني لحقوق العباد —، ويتمكنوا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إن الغرض من الملك والسلطنة الإسلامية ليس هو الحصول على الجزية أو الخراج، وليس كثرة الغنائم أو الثروة، وليس التجارة وكثرة أرباحها، وليس خداع الجاه والمنصب، ولا زيف اللهو والمتعة، ولا منظر الأبهة والشكيمة، وإنما هو أداء حقوق الله تعالى وحقوق العباد، ومن أجل هذا هناك ما يسمى بمسئولية الجد والجهد والسعي والكفاح.

نظام الحكم في عهد النبوة

من السائد أن الصعاب التي واجهت الإسلام في تأسيس وإقامة نظام حكم عادل في بلاد العرب كانت نتيجة لوحشة وبداوة وجهالة العرب، ولكن الحقيقة هي أن تمدن تلك الفترة كان نفسه عدوا لنظام حكم الإسلام العادل أكثر من هذه الوحشة والبداوة أو مساويا لها على الأقل، فرغم أن العرب البدو حنوا أعناقهم أمام الإسلام بعد فتح مكة في سنة ٨هـ؛ إلا أنه ما زالت حتى الآن رأس تمدن تلك الفترة مرفوعة بتكبر وغرور، ومن ثم وقعت غزوة مؤتة وغيرها فى سنة ٩هـ نتيجة لرد ملك ملوك إيران وحلفاء قيصر الروم، ثم بعد ذلك وقعت حروب في عهد الخلفاء الراشدين مع الفرس والروم نتيجة لهذا التمرد والعناد.

وتفصيل هذا الإجمال هو أنه حين بُعث النبي (ﷺ) في القرن السادس الميلادي، وبزغ الإسلام، كانت كل قوى العالم السياسية تحت ظل قوتين عظيمتين في الشرق والغرب. وكانت حدودهما تلتقيان على الحدود العراقية والشامية للعرب، وكانت قبائل العرب والتي كانت بعيدة كل البعد عن التمدن والحضارة تابعة وخاضعة لأي من هاتين القوتين، فكانت اليمن والبحرين وعمان والعراق خاضعة للفرس، أما وسط بلاد العرب وحدود الشام فكانت خاضعة للرومان.

ومن ثم أقام بنو لخم سلطنة كبيرة خاضعة للفرس في الحيرة، وكان حاكمها النعمان بن المنذر وخلفه آخرون. وكان الغساسنة – والذين استمروا حتى عهد النبي (ﷺ) – يحكمون حدود الشام تحت نفوذ وسيطرة الرومان، وأقام

العرب بأنفسهم لمدة ولايات قبيلية مستقلة في اليمن، إلا أن اليمن في آخر المطاف خضع لعلم الفرس، لذا كان باذان الحاكم الفارسي موجوداً في اليمن في عهد النبي (ﷺ). وكان قد أثر نفوذ وسيطرة هاتين القوتين في نفوس العرب تأثيراً كبيراً بلغ إلى أنه حين كان يُذكر أي نظام حكم أو نظام تمدن؛ فيعتقد العرب في إما أنه نظام حكم ونظام تمدن الفرس أو نظام حكم ونظام تمدن الرومان، وبالتالي ما كان لهم أن يتخيلوا بأن هناك نظام حياة أفضل من هذين النظامين.

وعليه فإن نظام الحكم الذي أراد الإسلام إرسائه في بلاد العرب لم يكن يكفيه فقط القضاء على وحشة وجهالة العرب وتأسيس الحضارة والثقافة الإسلامية بل كان عليه أولاً أن يحرر العرب من التسلط الذهني للأمم الأخرى، ورعبهم السياسي وآثارهم الأخلاقية والثقافية، ليس هذا فحسب بل الأكبر من هذا أيضا هو تحرير العرب والعالم بأسره من عبودية القانون الإنساني، ومنحهم الطاعة والخضوع للقانون الإلهي، وإبلاغهم بأن ترك القانون الإلهي والتمسك بالقوانين الإنسانية ما هو إلا طريق آخر للشرك. ولكن كما وُجد التدرج والترتيب في كل فروض الإسلام وأعماله وُجد أيضا تدرج وتطور في نظام الحكم الإسلامي. ورغم أن النبي (ﷺ) جاء لإصلاح الدنيا بأسرها، إلا أنه (ﷺ) بدأ عمله ورسالته من العرب، حتى تظهر جماعة صالحة تنشغل بإتمام هذا الفرض في عهد النبي (ﷺ) ومن بعده (ﷺ) أيضا. وتشير هذه الآية الكريمة إلى هذا الأمر. يقول الله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة : ١٤٣)

يتضح من هذه الآية الكريمة أن الرسول محمد (ﷺ) جُعل لهداية الأمة الإسلامية وجُعل المسلمون هداة للناس.

وقد لوحظ هذا التدرج التربوي في إصلاح العرب أنفسهم، فبادئ ذي بدء عرض النبي (ﷺ) الإسلام على أهل وسط بلاد العرب أي أهل تهامة والحجاز ونجد، وقضى النبي (ﷺ) حوالي ١٦ أو ١٧ سنة تقريباً من نبوته (٢٣ سنة) في إصلاح وهداية هذه القبائل، والسبب في هذا أن هذه الأماكن تُشبه أرض نخيل المدينة، رغم أن مرعي وخصوبة الهجر واليمامة كانت مستعدة لإيواء الإسلام، كما أراد رئيس قبائل اليمن الطفيل الدوسي أن يأخذ النبي (ﷺ) ويحميه في قلعة عظيمة لقبيلة دوس، ولكن النبي (ﷺ) ترك هذه الأماكن المتمدنة واتخذ من أرض المدينة الصخرية دارًا للهجرة رغم أنها كانت أكثر خطورة من مكة بسبب المنافقين واليهود، كما أن مناخها لم يكن ملائما للمهاجرين رضي الله عنهم في بداية الأمر. ورغم هذا هاجر إليها النبي (ﷺ). ولكن حين أقيم نظام الحكم الإسلامي في هذه المنطقة من بلاد العرب تدريجياً، ومهد صلح الحديبية الطريق إلى مكة مركز بلاد العرب، ثم تم فتحها، فحان وقت التوجه إلى المناطق الأخرى من بلاد العرب، ومن ثم اتسعت دائرة عمل الإسلام، وصدر الأمر بالتوجه إلى بقية مناطق بلاد العرب.

انتشر الإسلام على الأغلب في مناطق وسط بلاد العرب عن طريق سادة الأقوام وكبار القبائل، وفضل النبي (ﷺ) طريقة الدعوة هذه أيضا في هذه المناطق؛ لذا بادئ ذي بدء دعا سلاطين وأمراء وسادة البلاد المجاورة لشبه الجزيرة العربية إلى الإسلام، إذ كان دخول أي أحد منهم في الإسلام في تلك الفترة يهيئ دخول مئات الآلاف من البشر في الإسلام، لذا كتب النبي (ﷺ) في

كتابه إلى قيصر الروم فقرة يقول فيها: فإن توليتَ فعليكَ إثمُ الأريسِيِّينَ[1] ورغم أن

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخارى، باب بدء الوحي: (٧) حـدَّثنا أبـو اليَمانِ الحَكَمُ بنُ نافعٍ قال: أَخْبرَنا شُعَيْبٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ قال: أَخْبَرَني عُبَيْدُ الله بنُ عبدِ اللَّه بنِ عُتْبَةَ بنِ مَسْعُودٍ أن عبدَ اللَّهِ بنَ عباسٍ أخبرهُ أنَّ أبا سُفْيانَ بنَ حَرْبٍ أخبرَهُ أنَّ هرقْلَ أرْسَلَ إليْهِ في رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وكانوا تجَّاراً بالشَّامِ في المُدَّةِ التي كان رسـولُ اللّـهِ صلى الله عليه وسلم مادَّ فيها أبا سُفْيانَ وكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فأتوهُ وَهُمْ بإيْلِيَاءَ، فـدعاهُمْ فـي مَجلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَماءُ الرُّومِ، ثمَّ دَعاهمْ وَدَعا بِتَرْجُمانِه، فقالَ: أيُّكُمْ أقْرَبُ نَـسَباً بهـذا الرَّجُلِ الذي يَزْعُمُ أنَّهُ نَبِيٌّ؟ فقال أبو سُفْيانَ: فقلتُ أنا أقْرَبُهمْ نَسَباً. فقال: أدْنـوهُ منّـي، وَقَرِّبوا أصحابَهُ فاجْعَلُوهُمْ عندَ ظَهْرِه. ثمَّ قال لِتَرْجُمانِه: قُلْ لهمْ إنِّي سائلٌ هذا الرَّجُـلَ، فإن كَذَبني فكذِّبوه. فواللَّه لَوْلا الحَياءُ مِنْ أنْ يَأثِرُوا علَيَّ كَذِباً لَكَذبْتُ عنهُ. ثُمَّ كـانَ أوَّلَ ما سَألَني عنهُ. أنْ قال: كَيفَ نَسَبُهُ فيكمْ؟ قلتُ: هوَ فينا ذُو نَسَب. قال: فهلْ قـال هـذا القَوْلَ منكم أحَدٌ قَطُّ قَبْلَه؟ قلتُ: لا. قال: فهلْ كانَ مِنْ آبائه مِنْ مَلِك؟ قلـت: لا. قـال: فأشرافُ الناسِ يَتَّبِعونَهُ أمْ ضُعَفاؤُهُم؟ فقلتُ: بَلْ ضُعَفاؤُهُمْ. قال: أيَزيدونَ أمْ يَنْقُـصون؟ قلتُ: بَلْ يَزيدون. قال: فهلْ يَرْتَدُّ أحَدٌ منهمْ سَخْطَةً لِدِينِه بعدَ أنْ يَدْخُلَ فيـه؟ قلـتُ: لا. قال: فهلْ كُنتمْ تَتَّهِمونَهُ بالكذِبِ قبلَ أنْ يَقولَ ما قال؟ قلتُ: لا. قال: فهلْ يَغْدِرُ؟ قلتُ: لا، ونحنُ منهُ في مُدَّةٍ لا نَدْري ما هو فاعلٌ فيها. قال: ولم تُمْكنِّي كلمةٌ أُدْخِلُ فيها شَيئاً غيْرُ هذهِ الكلمة. قال: فهل قاتَلْتُموهُ؟ قلتُ: نعم. قال: فكيفَ كان قِتالُكمْ إيَّاهُ؟ قلتُ: الحربُ بَيْننا وبينَهُ سِجالٌ، يَنالُ منَّا وَنَنالُ منه. قال: ماذا يأمُرُكمْ؟ قلتُ: يَقولُ اعْبُدُوا اللّهَ وَحْـدَهُ ولا تُشْرِكوا بهِ شيئاً، واتْرُكوا ما يَقولُ آباؤكُمْ. وَيَأْمُرُنا بالصلاةِ والصِّدْقِ وَالعَفافِ والصِّلَة. فقال للتَّرْجُمانِ: قُلْ له سَألْتُكَ عن نسَبِهِ فَذَكرتَ أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرُّسُل تُبْعَـثُ في نَسَبِ قَوْمِها. وَسَألْتُكَ هلْ قال أحدٌ منكمْ هذا القولَ؟ فذكرتَ أن لا، فقلتُ: لو كانَ أحَدٌ قال هذا القولَ قَبْلَهُ، لقُلتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بقولٍ قِيلَ قبلَه. وسألْتُكَ هلْ كان مِن آبائـه مِـنْ مَلِك؟ فذكرتَ أنْ لا، قلتُ فلو كان مِنْ آبائه مِنْ مَلِك قلتُ: رَجُلٌ يَطلُـبُ مُلْـكَ أبيـه. وسألْتُكَ هل كنتم تَتَّهمونَهُ بالكَذِبِ قبْلَ أن يقولَ ما قالَ؟ فذَكرتَ أنْ لا، فقد أعرفُ أنَّهُ لم

يكن لِيَذَرَ الكَذِبَ على الناسِ ويكذِبَ على اللَّه. وسألتُكَ أشرافُ الناسِ اتَّبَعوهُ أمْ ضُعَفاؤُهُمْ؟ فذكرتَ أنَّ ضُعَفاءهمْ اتَّبعوه، وهم أتْباعُ الرُّسُل، وسألتُكَ أيَزِيدُونَ أم يَنْقُصون؟ فَذكرتَ أنَّهمْ يَزِيدُون، وكذلِكَ أمرُ الإيمانِ حتى يَتِمَّ. وسألتُكَ أيَرْتَدُّ أحدٌ سَخْطَةً لدِينِه بعدَ أنْ يَدخُلَ فيه، فذكرتَ أنْ لا، وكذلكَ الإيمانُ حِينَ تُخالِطُ بَشاشَتُه القلوبَ. وسألتُكَ هلْ يَغْدِرُ؟ فذكرتَ أنْ لا، وكذلك الرُّسُل لا تَغدِرُ. وسألتُكَ بما يَأْمُرُكمْ؟ فذكرتَ أنه يأْمُرُكم أن تَعبُدوا اللَّهَ ولا تُشْرِكوا به شيئاً، ويَنهاكمْ عنْ عِبادةِ الأوثانِ، ويأْمُرُكم بالصَّلاةِ والصِّدقِ والعَفاف، فإن كانَ ما تقولُ حقّاً فسَيَملِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هاتَين. وقد كنتُ أعلمُ أنه خارجٌ، لم أكُنْ أظُنُّ أنه منكم، فلو أنِّي أعلَمُ أنِّي أخْلُصُ إليه، لَتَجَشَّمْتُ لِقاءَه، ولو كنتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عن قَدَمِه. ثمَّ دَعا بِكتابِ رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الَّذِي بَعَثَ به دِحْيَةُ إلى عَظيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَه إلى هِرَقْلَ، فقرأهُ، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

مِنْ مُحمد عبدِ اللَّهِ ورَسولِهِ إلى هِرَقْلَ عظيمِ الرُّوم. سَلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى. أمّا بعدُ فإنِّي أدْعُوكَ بِدِعايَةِ الإسْلام، أسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤتِكَ اللَّهُ أجْرَكَ مَرَّتين. فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عليكَ إثْمَ الأرِيسِيِّين و {يا أهلَ الكِتابِ تعالَوْا إلى كلمةٍ سَواءٍ بَيننَا وبَينَكم أنْ لا نَعبُدَ إلاَّ اللَّهَ ولا نُشْرِكَ بهِ شيئاً ولا يَتَّخِذَ بعضُنا بعضاً أرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فإنْ تَوَلَّوْا فقولوا اشْهَدُوا بأنَّا مسلمون}.

قال أبو سُفيانَ: فلما قال ما قال، وفَرَغَ مِنْ قِراءةِ الكتاب، كَثُرَ عندَهُ الصَّخَبُ، وارْتفعَتِ الأصواتُ، وأُخْرِجْنا. فقلتُ لأصحابي حين أُخرِجنا: لقدْ أَمِرَ أمرُ ابنِ أبي كَبْشَةَ، إنه يَخافُه مَلِكُ بني الأصفَر. فما زلتُ مُوقِناً أنه سيَظهرُ حتى أدْخَلَ اللَّهُ عليَّ الإسلام.

وكان ابنُ الناظُورِ ـ صاحبُ إيلْياءَ وهِرَقْلَ ـ أُسْقُفًّا على نَصارَى الشامِ يُحدِّثُ أنَّ هِرَقْلَ حين قَدِمَ إيلياءَ أصبحَ خَبِيثَ النفْس، فقال بَعْضُ بطارِقَته: قد استَنكرْنا هَيْئَتَك. قال ابنُ الناظُور: وكان هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ في النُّجوم، فقال لهم حينَ سَألوه: إني رأيتُ الليلةَ حينَ نظرتُ في النجومِ مَلِكَ الْخِتانِ قد ظَهَرَ، فمنْ يَخْتَتِنُ من هذه الأمَّة؟ قالوا: ليسَ يَخْتَتِنُ إلاّ اليهودُ، فلا يُهِمَّنَّكَ شأْنُهمْ، واكتُبْ إلى مَدائنِ مُلْكِكَ فيَقْتُلوا مَنْ فيهم مِنَ اليَهود. فبينما همْ على أمرِهمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أرْسَلَ به مَلِكُ غَسّانَ يُخْبِرُ عن خَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه

قلب قيصر الروم نفسه قد أُضيء بنور الإسلام، ولكنه كان قليلاً أمام تلألأ التاج المرصع والعرش الذهبي. أما النجاشي ملك الحبشة فقد آمن برسالة الرسول (ﷺ)، وأرسل أفراداً من قبيلته في وفد إلى النبي (ﷺ). واعتنق سادة اليمن جميعا الإسلام تدريجيا. وكانت سلطنة الغساسنة على حدود بلاد العرب ولكن لم يتم قمعها تماما في عهد النبي (ﷺ)، إلا أن عزوة تبوك قد مهدت الطريق كثيراً لخلفاء النبي (ﷺ). وهنا قد أصبحت بلاد العرب كلها تحت ظل لواء الإسلام، وساد نظام حكمه بلاد العرب جميعاً. وحان وقت إعلان آخر فرض في حياة النبي (ﷺ) وهو إعلان ملوكية الله تعالى في العالم كله، فقال النبي (ﷺ) هذه الكلمات بألفاظ بليغة في حجة الوداع:

«الزَّمانُ قدِ استدارَ كهَيْئَةِ يومَ خلقَ اللهُ السماواتِ والأرض» [١]

وسلم. فلمّا استخبرَهُ هِرَقلُ قال: اذهَبوا فانظروا أمُخْتَتِنٌ هوَ أم لا؟ فنظروا إليه، فحدَّثوه أنه مُخْتَتِن، وسأله عنِ العَرَبِ فقال: هم يَخْتَتِنون. فقال هِرَقْلُ: هذا مُلكُ هذه الأمَّةِ قد ظهر. ثمَّ كتب هِرَقلُ إلى صاحبٍ له برُومِيَةَ، وكان نَظيرَهُ في العلم. وسارَ هِرَقلُ إلى حِمْصَ، فلم يَرِمْ حِمصَ حتى أتاهُ كتابٌ مِن صاحبه يُوافقُ رَأْيَ هِرَقلَ على خُروجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأنه نبيٌّ. فأذِنَ هِرَقلُ لعُظماءِ الرُّوم في دَسْكَرَةٍ له بحِمْصَ، ثم أمرَ بأبوابها فغُلِّقَتْ، ثم اطَّلَعَ فقال: يا مَعْشَرَ الرُّوم، هلْ لكُمْ في الفَلاحِ والرُّشْدِ، وأنْ يَثْبُتَ مُلكُكُمْ، فتُبايعوا هذا النبيَّ؟ فحاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إلى الأبوابِ، فوَجَدُوها قد غُلِّقَتْ، فلمّا رأى هِرَقلُ نَفْرَتَهُمْ، وأيِسَ منَ الإيمانِ قال: رُدُّوهمْ عَلَيَّ. وقال: إنِّي قلتُ مَقالَتي آنِفاً أختَبِرُ بها شِدَّتَكمْ على دِينِكمْ، فقد رَأيتُ. فسجَدوا له ورَضُوا عنه، فكان ذلكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقلَ. رواه صالحُ بنُ كَيْسانَ ويُونُسُ ومَعْمَرٌ عنِ الزُّهريِّ. (المترجم)

[١] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخارى: (٤٢٩٨) حدَّثني محمدُ بن المثنَّى حدَّثنا عبدُ الوهابِ حدَّثنا أيوبُ عن محمدٍ عنِ ابن أبي بَكرَةَ عن أبي بكرةَ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الزَّمانُ قدِ استدارَ كهَيْئَةِ يومَ خلقَ اللهُ السماواتِ والأرض:

كان هذا بمثابة انقلاب عظيم قضى على أنظمة الحكم الملكي المتصف بالقوانين الموضوعة والتكلفات السياسية، والبدع والظلم، ولم يقض هذا الانقلاب على قصرْ كسرى وشخصية القيصر فقط بل أفنى النظام الكسروي والقيصري من صفحة الحياة تماما. وعُبر عن هذه النبوءة بهذه الألفاظ:

«إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده»(١)

بعد ذلك أُسس حكم عادل، قانونه قانون الله، حكومته حكومة الله فيه كل فرد حاكم لنفسه ومحكوم لها، لأن الحكم الإسلامي ليس ملكاً للملك أو لأسرته، بل هو ملك لله الواحد القهار فقط، ولكن نيابته حق مساوٍ لكافة المسلمين. أو لك

السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعةٌ حُرُم: ثلاثة متواليات ـــ ذو القَعدةِ وذو الحجةِ والمحرَّم ـــ ورجبُ مُضَرَ الذي بينَ جُمادَى وشعبان. أيُّ شهرٍ هذا؟ قلنا: الله ورسولُهُ أعلم. فسكتَ حتى ظننا أنه سيسمِّيه بغيرِ اسمه، قال: أليسَ ذو الحجَّة؟ قلنا: بلى. قال: فأيُّ بلد هذا؟ قلنا: اللَّهُ ورسوله أعلم. فسكتَ حتى ظَنَنّا أنه سيسمِّيهِ بغير اسمه، قال: أليس البلدة؟ قلنا: بلى. قال: فأيُّ يومٍ هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكتَ حتى ظننّا أنه سيسمّيه بغير اسمه. قال: أليس يومَ النَّحر؟ قلنا: بلى. قال: فإن دماءَكم وأموالكم ـــ قال محمد: وأحسبُهُ قال: وأعراضَكم ـــ عليكم حَرام، كحرمةِ يومِكم هذا، في بلدِكم هذا، في شهركم هذا. وستَلقَون ربَّكم فسيسألُكم عن أعمالِكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلاّلاً يَضربُ بعضكم رِقابَ بعض. ألا ليُبَلِغِ الشاهدُ الغائبَ، فلعلَّ بعضَ مَن يُبلغُه أن يكون أوعى له من بعض مَن سَمِعَه ـــ فكان محمدٌ إذا ذكرَهُ يقول: صَدَقَ محمدٌ صلى الله عليه وسلم ـــ ثم قال: ألا هل بلغت (مرَّتين)». (المترجم).

(١) وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٣٠٥٢) حدّثنا أبو اليمانِ أخبرَنا شُعيبٌ حدَّثنا أبو الزِّنادِ عن الأعرج عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: «إذا هلكَ كِسرَى فلا كسرَى بعدَه، وإذا هلكَ قَيصَرُ فلا قَيصرَ بعده. والذي نفسي بيدِه لَتُنْفَقُنَّ كنوزَهما في سبيل الله». (المترجم)

أن تقول بألفاظ أخرى أن كل فرد في نظام حكم الإسلام حاكم ومسئول عن مكانه ورعيته، فالزوج مسئول عن زوجته وعياله، والزوجة مسئولة عن زوجها وبيتها، والمعلم مسئول عن تلاميذه، والسيد مسئول عن عبيده، والعبد مسئول عن الأعمال المنوطة به. يقول النبي (ﷺ):

"كل راع وكلكم مسئول عن رعيته"[1] ومن هذا المنطق تتضح وجهة نظر أساسية لأصول الحكم في الإسلام.

إن عامة الممالك التي أُسست في الدنيا أو تؤسس ترتكز على قاعدة عامة وهي أن يأخذ فاتح مجموعة من الجند، ويخرج ثم يقتل مئات الآلاف من البشر، وبقوته يحطم آلاف البيوت والمساكن. ويخربها ويخضع أهلها له ويعلن سيادته وملوكيته. والهدف من إراقة هذه الدماء كلها إما أن يكون من أجل الزعامة الشخصية أو من أجل الرفعة القبلية أو من أجل العظمة القومية، ولكن الحرب والجهاد في نظام الحكم الإسلامي لا يطمع في أي شيء من هذا تماما، فلم يكن هناك هدف لسيادة شخصية الرسول (ﷺ)، ولم يكن هناك هدف لملوكية قبيلة قريش، ولم يكن هناك هدف لسلطنة العرب، ولم يكن هناك هدف لثروة الدنيا، بل كان له هدف واحد فقط وهو إعلان ملوكية ملك الأرض والسماء وخضوع كل عباد الله أمام الأمر الإلهي.

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخارى، باب الترغيب في النكاح: (٥٠٧٩) حدّثنا عَبدانُ أخبرَنا عبدُ الله أخبرَنا موسى بن عقبةَ عن نافعٍ عن ابن عمرَ رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسئول عن رَعيَّته، والأميرُ راعٍ، والرجلُ راعٍ على أهلِ بيتهِ، والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ زَوجِها ووَلَدِه، فكلُّكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيَّته».(المترجم)

لا ريب في أن هدف مؤسس الممالك والإمبراطوريات في العالم لا يتعدى سوى تأسيس السلطنة أو الإمبراطورية، ولكن الدولة التي كان الإسلام يريد تأسيسها لم تكن هي بذاتها الهدف، وإنما كانت بمثابة وسيلة قُضى عن طريقها على كل أنظمة الحكم الظالمة في العالم، هذه الأنظمة التي كان عباد الله فيها آلهة للعباد. ومن ثم كانت دولة الإسلام تهدف إلى إقامة نظام حكم عادل حسبما يأمر الله تعالى بدلاً من هذه الأنظمة، ولا يكون فيه سلطان لأي قوة أرضية أو سماوية سوى الله تعالى، ولا يسود فيه أي قانون سوى قانون الله تعالى، كما لا يوجد فيه أي أثر لشخصيات الحكام أو القومية أو اللغة أو العرق أو الوطن أو اللون، بل يهدف إلى إرساء العدل ونشر القانون الإلهي بين الناس والتمييز بين الحق والباطل.

وبناء على هذا الهدف أُختير العرب من بين شعوب الدنيا، بسبب خصائصهم الظاهرية والمعنوية. أما عن السبب الظاهري فهو وقوعهم بين إيران والروم، واللذان كانا مظهراً للقوة الدنيوية الفاسدة في ذلك الوقت، وكان لابد من القضاء عليهما وعلى قوتهما هذه، ومن أجل هذا كانت هناك حاجة لمثل هذا القوم الجار الوسطى. والسبب المعنوي هو كانت هناك حاجة لاستعداد فطري لدى هذا القوم الذي يمكن له القضاء على نظام الحكم الفاسد في ذلك الوقت، هذا الاستعداد الفطري الذي أودعه الله تعالى فيهم منذ الأزل، فالعرب فطرة يتصفون بالشجاعة والإباء والشكيمة وقوة الإرادة. ومن هنا كانت هذه الصفات الأخلاقية عناصر أساسية في تشكيل الحكم الإسلامي، وممكن أن يكون جلاء وإخلاص هذه الأوصاف والصبر والتوكل والاعتماد على الله وغيرها من الصفات من الأخلاق الروحانية، لذا طُهروا من أسلوب هذا الحكم الذي أسسته دول وممالك الدنيا من أجل بقاء شخصيتها ونسلها وقومها وجلالها، وسيطرتها

وهيبتها الملكية. ومن أجل بقاء الصفات الأخلاقية المذكورة أعلاه بل ومن أجل نشرها وتطورها كان لابد من وجود رسول من الله مأمور بأمره سبحانه، داع وقائد طاهر، إمام معصوم، تقي، رءوف رحيم، يقظ الضمير قادر على نشر نور الإيمان وجعل كل فرد ملتزما بقوانين الدولة تحت ظل الأحكام والأوامر الإلهية.

وبناء على هذا المبدأ فإن نظام الحكم الذي سيؤسس لا بد له من شرطين اثنين:

١. أن يكون مبنيا على عدة أصول وأركان أساسية.

٢. أن تكون هذه الأصول والأركان الأساسية غير مبنية على القانون الإنساني الجاف فقط، بل لابد أن يكون أساسها الأول هو إخلاص القلب وصفائه وطاعة الله تعالى.

لا ريب في أن نظام الحكم الإسلامي قام وتأسس على هذه الأصول والأركان، وظل قائما على حاله هذا حتى عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم. وكان من أكبر نتائج نظام الحكم هذا هو أنه في ظل قانونه أزيلت تماما التفرقة بين الكبير والصغير وبين الشريف والوضيع وبين الأسود والأبيض وبين العربي والأعجمي، فلا فرق بين نسب اليمن والبحرين وإيران، ولا فرق بين عرب نجد وعرب الحجاز، ولا فرق بين حبش الحبشة فالكل جميعاً في صف وفي مستوى واحد، وأنقلب عرش الملوكية والإمبراطورية الذي كان سائدا في الشرق والغرب، وتساوى عامة المسلمين مع إمام دولة المسلمين وعماله في الحقوق.

هناك اعتقاد سائد وهو أن دولة المساواة القانونية التي أسسها الإسلام لم تكن شيئا جديداً بالنسبة للعرب، لأن العرب كانوا يتصفون بالإباء بفطرتهم، كما كانت ولاية الشيوخ في قبائلهم تتسم بهذا. ولكن هذا خطأ تاريخي فادح؛ فقد

كانت هناك ثلاث دول في بلاد العرب استمرت لفترة وهي دولة اللخميين ودولة الحميريين، ودولة الغساسنة، وكان نظام حكمها جميعا هو نفسه نظام حكم ممالك الدنيا الأخرى. فكان في اليمن دولتي سبأ وحمير تتبعان هذا النوع من الحكم، كما كانت كنده – والتي كانت قبل الإسلام بفترة وجيْزة وكانت خاضعة للروم – تسير على هذا النهج في حكمها. أما عن زعماء وسادة القبائل فبالرغم من انتخابهم بناء على رغبة الجمهور أو لخلق جيد مثل الشجاعة والكرم وغيرها إلا أنهم كانوا يمتازون عن عامة أهل القبيلة في الحقوق، ومن ثم كانت هناك أسهم معينة لزعماء القبائل في الغنائم التي يحصلون عليها من الحرب يُحرم منها عامة الناس. وهذه الحقوق أو الأسهم هي التي يقال لها الصفية، والمرباع، والنشيطة، والفقول. جاء الإسلام وقضى على هذا كله وحدد الخمس فقط[1]. لم يكن لعامة الناس في التحدث بحرية في المجالس أمام سادة القبيلة، لذا يقول شاعر جاهلي يهودي

ونكران شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول[2]

لم يكن لعامة الناس الحق في أن تطأ أقدامهم المراعي المعينة لسادة القبيلة، ومن هنا وقعت حرب البسوس، وقال النبي (ﷺ): **«لا حِمَى إلا لِلَّهِ ولِرَسُولِهِ»** [1]

---

(1) يقول الله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأنفال: ٤١) (المترجم)

(2) أي لو أردنا رفض ما يقوله الناس لرفضنا، ولكن ليس لهم الحق في رفض ما نقوله نحن. (المترجم)

والهدف من هذا القول هو القضاء على هذا العرف.

كان السلاطين والملوك يعيشون في قلاع وقصور فخمة ويرتدون نفيس الثياب، ويتزينون بالذهب والفضة والجواهر، ويجلسون على عروش عالية تملئها الأبهة والفخامة والعظمة، وكان أمرائهم يجلسون على مقاعد من الحرير قدر مراتبهم. وجاءت تعاليم النبي (ﷺ) وقضت على كل هذه التفرقة الموضوعة تماماً، وحُرِّم استخدام الذهب والفضة للجلوس، واستخدام الحرير للثياب والفراش، وحُرِّم الذهب على الرجال، وجاء المسجد وأصبح وصحنه مقراً للخليفة وإصدار أحكامه، ولم يعد هناك الحجَّاب والحراس، ولم تعد هناك حاجة للشاويش والنقيب. ولم تعد هناك العروش المزينة بالذهب والفضة والزمرد، وأصبح الخليفة والمسلمون يجلسون جنبا إلى جنب وكتفا إلى كتف، ولم يبق هناك أي تمييز أو تفريق يدل على الرفعة أو الوضاعة؛ لذا لم يكن هناك أي فرق بين الرسول (ﷺ) وعامة المسلمين والصحابة في الملبس. وفي ذات مرة أحضر صحابي عباءة ملكية وجاء إلى النبي (ﷺ)، ولما كانت الوفود تأتي إلى النبي (ﷺ) من مختلف بلاد العرب، فعرض عليه عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ! اشتر هذه العباءة حتى تلبسها حين يأتيك الوفود من البلاد والمدن الأخرى، أو البسها في يوم الجمعة، والذي يجتمع فيه عامة المسلمين. وكان عمر رضي الله عنه يرى في مثل هذه الثياب الجاه والجلال الظاهري للإسلام، ولكن النبي (ﷺ) مزّق هذه العباءة على الفور كي لا تُحْدِث شبهة ولا تكون ذريعة في

---

(١) وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح ابن حبان: (٤٥٩٤) أخبرنا حامدُ بنُ محمد بنِ شُعيب، قال: حدثنا منصورُ بنُ أبي مزاحمٍ، قال: حدثنا يحيى بنُ حمزةَ، عن الزُّبيديِّ، عن الزُّهري، عن عُبَيْدِ اللَّه بنِ عبد الله، عنِ ابن عباس عن الصَّعْبِ بنِ جَثَّامَةَ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه يَقُولُ : «لا حِمَى إلا لِلَّهِ ولِرَسُولِهِ».(٢:١٨)(المترجم).

التعبير عن الجاه والسلطان الملكي لخليفة المسلمين (فيما بعد)، وقال النبي (ﷺ): "إنما يَلبسُ هذه من لا خَلاقَ له"[1].

وكما أن النبي (ﷺ) قضى على التفرقة والأفضلية في الثياب بين الخليفة أو الحاكم وعامة الناس قضى أيضا على التميز في الجلوس، إذ كان لا يوجد أي فرق أو ميزة تميز بينه (ﷺ) وبين عامة المسلمين في المجلس، ومن ثم حين كان يجلس الرسول (ﷺ) مع صحابته في أي مجلس، ويأتي أي قادم من الخارج فيضطر أولاً إلى السؤال. أيكم محمد ؟ فكان المسلمون يشيرون إليه (ﷺ). وأراد الصحابة رضي الله عنهم أن يُعدوا أريكة حتى يجلس عليها النبي (ﷺ) ويبدو للجميع، ولكن الرسول (ﷺ) منعهم من هذا[2].

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخارى، باب صلة الأخ المشرك: (٥٨٤٤) حدّثنا موسى بن إسماعيلَ حدَّثنا عبدُ العزيز بن مسلمٍ حدَّثنا عبدُ الله بن دينارٍ قال: سمعتُ ابنَ عمرَ رضي اللّه عنهما يقول: «رأى عمرُ حُلَّةَ سِيَراءَ تباع، فقال: يا رسولَ اللّه، ابتَعْ هذهِ والبَسْها يومَ الجمعة وإذا جاءكَ الوفود. قال: إنما يَلبسُ هذه من لا خَلاقَ له. فأتيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم منها بحُلَل، فأرسلَ إلى عمرَ بحلةٍ فقال: كيف أَلْبسُها وقد قلتَ فيها ما قلتَ؟ قال: إني لم أعطكَها لتلبَسَها، ولكن تَبيعها أو تَكسُوها. فأرسل بها عمر إلى أخ له من أهلِ مكةَ قبلَ أن يُسلم».

[2] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخارى: (٦٣) حدَّثنا عبدُ اللّهِ بنُ يُوسُفَ قال: حدَّثَنا الليثُ عنْ سعيدٍ ــ هو المَقْبُرِيُّ ــ عنْ شَرِيكِ بنِ عبدِ اللّهِ بنِ أبي نَمِرٍ أنَّه سَمِعَ أَنَسَ بنَ مالكٍ يقول: «بَيْنما نحنُ جُلوسٌ معَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في المسجدِ، دَخَلَ رَجُل على جَمَل فأَناخَهُ في المسجدِ ثمَّ عَقَلَهُ ثم قال لهم: أَيُّكُمْ محمد؟ ــ والنبيُّ صلى الله عليه وسلم متكئ بَيْنَ ظَهْرَانيهمْ ــ فقلنا: هذا الرجُلُ الأبيضُ المتكئ، فقال له الرجُل: ابنَ عبدِ المطَّلبِ؟. فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: قدْ أَجَبْتُكَ. فقال الرجلُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: إني سائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عليكَ في المَسْأَلةِ، فلا تَجِدْ عليَّ في نَفْسِكَ.

كان الملك وأفراد أسرته جميعا في حكومات تلك الفترة مستثنين من الالتزام بالقانون، ولكن الحال هنا في الإسلام هو أن رسول الله (ﷺ) وأهل بيته رضوان الله عليهم أجمعين كانوا النموذج الأصلي لتنفيذ القانون الإلهي، وكان حكم الله هو أنه -- نعوذ بالله – لو أن أحداً من أهل بيت النبي (ﷺ) عصى الله تعالى، فيضاعف له العذاب ضعفين[1]. وفي ذات مرة سرقت امرأة من بني مخزوم وهي فاطمة بنت قيس فأمر النبي بقطع يدها، ولما كانت هذه المرأة تنتمي لأسرة عريقة لها مكانتها؛ فثقل هذا (الحكم) على الصحابة رضوان الله عليهم، وأرادوا أن يتشفعوا لها عن طريق إرسال أسامة بن زيد رضي الله عنهما إلى رسول الله (ﷺ)، فقال النبي (ﷺ): " يا أيها الناس إنما ضلَّ مَن كان قبلكم أنهم كانوا إذا سَرقَ الشريفُ تركوه، وإذا سرقَ الضَّعيفُ فيهم أقاموا عليه الحدَّ. وايمُ اللهِ لو أن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقت لقطعَ محمدٌ يدها "[2].

فقال: سَلْ عَمَّا بدا لك، فقال: أسألُك بربِّك وربِّ من قَبْلَكَ، آللّهُ أرسلَكَ إلى الناسِ كلِّهمْ؟ فقال: اللهُمَّ نَعم. قال: أَنشُدُكَ باللّه، آللّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصلِّيَ الصلَواتِ الخمْسَ في اليومِ والليلةِ؟ قال: اللهُمَّ نَعم. قال: أَنْشُدُكَ باللّه، آللّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصومَ هذا الشهرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قال: اللهُمَّ نَعم. قال: أَنْشُدُكَ باللّه، آللّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هذه الصَّدَقَةَ منْ أَغْنيائنا فتَقْسِمَها على فُقَرائنا؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: اللهُمَّ نَعم. فقال الرَّجُلُ: آمَنْتُ بما جِئْتَ به، وأنا رسولُ مَنْ وَرائي مِن قَومي، وأنا ضِمامُ بنُ ثَعْلبةَ، أخو بني سَعْدِ بنِ بَكْرٍ». رواه مُوسى وعليُّ بن عبدِ الحميدِ، عن سُلَيمانَ عن ثابتٍ عن أنسٍ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بهذا.(المترجم).

[1] وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ (الأحزاب: ٣٠) (المترجم).

[2] ورد هذا الحديث في أبواب مختلفة من صحيح البخاري، منها (كراهية الشفاعة في الحدود إذا رفع إلى السلطان).وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري:

في ذات مرة كان النبي (ﷺ) يقسم الغنائم على الصحابة رضوان الله عليهم فجاء رجل وبسبب طمعه وقع على النبي (ﷺ) وكان في يد النبي (ﷺ) آلة يُقطع بها جريد النخيل، فوخزه بها فجُرح الرجل في وجهه، وهنا دعاه النبي (ﷺ): أن يقتص منه ﷺ، ولكن هذا الرجل قال: "يا رسول الله لقد عفوت عنك"[1].

ذات مرة جاءت سبايا كثيرات إلى النبي (ﷺ)، وكانت فاطمة رضي الله عنها قد تورمت يداها من استخدامها للرحى، فأرتها للنبي (ﷺ) وقالت: أنعم علي بجارية منهن حتى تقوم بأعمال المنزل. ولكن النبي قال: "سَبَقَكُنَّ يَتَامَى بَدْرٍ"[2].

وهذا نص الحديث في صحيح البخارى: (٦٦٤٠) حدّثنا سعيدُ بن سليمان حدَّثنا الليثُ عن ابن شهابٍ عن عُروةَ عن عائشةَ رضيَ الله عنها «أن قريشاً أهمتهم المرأةُ المخزوميةُ التي سرقت فقالوا: «من يُكلم فيها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ومن يجترئ عليه إلا أُسامةُ حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فكلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: أتشفعُ في حدّ من حدودِ الله؟ ثم قام فخطبَ فقال: يأيها الناس إنما ضلَّ مَن كان قبْلكم أنهم كانوا إذا سَرقَ الشريفُ تركوه، وإذا سرقَ الضَّعيفُ فيهم أقاموا عليه الحدَّ. وأيمُ اللهِ لو أن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقت لقطعَ محمدٌ يدها».(المترجم).

[1] أبو داود ٢ ج ٢، صـ ١٥٨، كتاب الحدود.

[2] أبو داود. وهذا نصه كاملا: (٢٩٨٩) ـــ حدثنا أَحْمَدُ بنُ صَالِحٍ أخبرنا عَبْدُ الله بنُ وَهْبٍ حدَّثَني عَيَّاشُ بنُ عُقْبَةَ الْحَضْرَمِيُّ عن الْفَضْلِ بنِ الْحَسَنِ الضَّمْرِيِّ أنَّ أُمَّ الْحَكَمِ أوْ ضُبَاعَةَ ابْنَتَيْ الزُّبَيْرِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، حَدَّثَتْهُ عنْ إحْدَاهُمَا أنَّهَا قَالَتْ: « أصَابَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم سَبْياً فَذَهَبْتُ أنَا وَأُخْتِي وَفَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فَشَكَوْنَا إلَيْهِ مَا نَحْنُ فيه وَسَأَلْنَاهُ أنْ يَأْمُرَ لَنَا بِشَيْءٍ مِنَ السَّبْيِ، فقال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم سَبَقَكُنَّ يَتَامَى بَدْرٍ، ولَكِنْ سَأَدُلُّكُنَّ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُنَّ مِنْ ذَلِكَ تُكَبِّرْنَ الله عَلَى إثْرِ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ تَكْبِيرَةً وَثَلاثاً وَثَلاَثِينَ تَسْبِيحَةً وَثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ

وحين حُرم الربا فبادئ ذي بدء حَرَّم النبي (ﷺ) كل المعاملات الربوية لعمه العباس رضي الله عنه، وحين صدر قانون القضاء على الثأر في الجاهلية، فبادئ ذي بدء عفا النبي (ﷺ) عن ثأر قبيلته الذي كان لدى القبائل الأخرى[1]،

تَحْمِيدَةً وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». قَالَ عَيَّاشٌ وَهُمَا ابْنَتَا عَمِّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.(المترجم).

(1) وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد: (٢٠٢٩٨) حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أنبانا علي بن زيد عن أبي حرة الرقاشي عن عمه قال: كنت آخذاً بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوسط أيام التشريق، أذود عنه الناس فقال: يا أيها الناس، أتدرون في أي شهر أنتم؟ وفي أي يوم أنتم؟ وفي أي بلد أنتم؟ قالوا: في يوم حرام، وشهر حرام، وبلد حرام. قال: فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقونه. ثم قال: اسمعوا مني تعيشوا، ألا لا تظلموا، ألا لا تظلموا، ألا لا تظلموا. إنه لا يحل مال امرئ إلا بطيب نفس منه، ألا وإن كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه إلى يوم القيامة، وإن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل، ألا وإن كل ربا كان في الجاهلية موضوع، وإن الله عزَّ وجلَّ قضى أن أول ربا يوضع ربا العباس بن عبد المطلب، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، ثم قرأ {إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم} ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون، ولكنه في التحريش بينكم فاتقوا الله عزَّ وجلَّ في النساء فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإن لهن عليكم ولكم عليهن حقاً أن لا يوطئن فرشكم أحداً غيركم ولا يأذن في بيوتكم لأحد تكرهونه، فإن خفتم نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح ــ قال حميد: قلت للحسن: ما المبرح؟ قال:

كما كانت أسرة النبي (ﷺ) كعامة المسلمين تؤدي الزكاة وتتصدق وتؤدي العشر (عن محصول الأرض الزراعية).

كان الملوك والسلاطين قد أوجدوا اعتقاداً في نفوس عامة الناس بفضل علو نسبهم وشرف مرتبتهم بأنهم أفضل من سائر المخلوقات. وعلى العكس من هذا تماما فإن اللقب والخطاب الذي حصل عليه النبي (ﷺ) لنفسه من الله تعالى هو عبد الله[1]. والعبودية الكاملة كانت كمالاً له (ﷺ). ومن هنا قضى (ﷺ) على كل الطرق الوهمية والأخيلة الواهمة للعزة والشرف التي كان الملوك والسلاطين يعطونها لأنفسهم منذ زمان، وأخبر (ﷺ) بأن أسوء اسم عند الله تعالى هو من يطلق على نفسه ملك الملوك. وفي ذات مرة قال رجل له (ﷺ): "يا سيدنا". فقال (ﷺ): "السيد الله" كما لم يُرد الرسول (ﷺ) أن يُفضله الناس على سائر الأنبياء عليهم السلام.

المؤثر ـ ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله عزَّ وجلَّ، ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وبسط يديه فقال: ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟ ثم قال: ليبلغ الشاهد الغائب، فإنه رب مبلغ أسعد من سامع» ـ قال حميد: قال الحسن: حين بلغ هذه الكلمة قد والله بلغوا أقواماً كانوا أسعد به ـ(المترجم).

(1) يقول الله تعالى:"وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً" (الجن:١٩). وأمر النبي (ﷺ) المسلمين بعدم المغالاة تجاهه (ﷺ) إذ يقول كما ورد في صحيح ابن حبان: (٦١٣٠) أخبرنا ابنُ سَلْمٍ، قال: حدَّثنا عبدُ الرحمٰن بنُ إبراهيمَ، قال: حدَّثنا ابنُ وهبٍ، قال: أخبرنا يونسُ، عَنِ ابنِ شهابٍ، عن عُبيدِ الله بن عبدِ الله، عن ابنِ عبَّاسٍ عن عمرَ بنِ الخطَّابِ، قال: قال رسول الله : «لا تُطْرُوني كما أَطْرَتِ النَّصارَى عيسى ابنَ مريمَ، فإنَّما أنا عَبْدٌ، فقولُوا: عَبْدُ اللَّهِ ورسولُهُ». (٢:٢٤) (المترجم)

وفي ذات مرة كسفت الشمس، ووافق هذا يوم وفاة إبراهيم ابـــن النبـــي (ﷺ)، وكان العرب يعتقدون في أن الشمس تكسف عند وفاة أي شخص عظـــيم، لذا قال الناس بأن الشمس قد كسفت لموت إبراهيم، ولكن النبي (ﷺ) حين فـــرغ من صلاة الكسوف خطب في الناس وقضى على هـــذا الاعتقـــاد، وقـــال: " إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتانِ من آياتِ اللهِ لا يَنخسِفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياته "[١].

وفي ذات مرة جاء رجل إلى النبي (ﷺ). وظهر عليه رعب النبوة، ودبت في جسمه رعشة، فقال النبي (ﷺ):«هَوِّنْ عَلَيْكَ. فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ. إِنَّمَا أَنَا ابْـــنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ». [٢].

---

[١] صحيح البخاري، باب الكسوف، (١٠٣٠) ــــ حدثنا عبدُ اللهِ بنُ مَسلمةَ عن مالكٍ عـــن هشامِ بنِ عُروةَ عن أبيهِ عن عائشةَ أنها قالت: «خَسفَتِ الشمسُ في عهـــدِ رســـولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فصلَّى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالناسِ فقامَ فأطالَ القيـــامَ، ثمَّ ركعَ فأطالَ الرُكوعَ، ثمَّ قامَ فأطالَ القيامَ ــ وهو دونَ القيامِ الأوَّلِ ــ ثمَّ ركعَ فأطالَ الركوعَ وهو دونَ الركوعِ الأوَّلِ، ثمَّ سجدَ فأطالَ السجودَ، ثم فعل في الركعةِ الثانيةِ مثلَ ما فعلَ في الأولى، ثمَّ انصرفَ وقدِ انجلَتِ الشمسُ، فخطبَ الناسَ، فحمدَ اللهَ وأثنى عليه ثمَّ قال: إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتانِ من آياتِ اللهِ لا يَنخسِفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياته، فـــإذا رأيتم ذلك فادْعوا اللهَ وكبِّروا وصلُّوا وتصدَّقوا. ثم قال: يا أُمَّةَ محمدٍ، واللهِ ما مِن أحـــدٍ أغْيَرُ منَ اللهِ أن يَزنيَ عبدُهُ أو تزني أمَتهُ. يا أُمَّةَ محمدٍ، واللهِ لو تعلمـــونَ مـــا أعلـــمُ لضحكتم قليلاً ولَبكيتُم كثيراً. (المترجم).

[٢] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن ابن ماجه: (٣٣٩١) ــــ حدثنا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَسَدٍ. حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ عَوْنٍ. حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِـــي مَسْعُودٍ، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ رَجُلٌ. فَكَلَّمَهُ. فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ. فَقَالَ لَهُ: «هَوِّنْ عَلَيْكَ. فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ. إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ».
قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: إِسْمَاعِيلُ، وَحْدَهُ، وَصَلَهُ.(البخارى).

ذات مرة أُتي بأسير إلى النبي (ﷺ) وقال: اللهم إني أتوب إليك وليس إلى محمد. فأخبر النبي (ﷺ) بأن هذا الرجل قد عرف أن هذا الحق كان لمن[1]. في حين أنه بهذه الجملة كان يُحكم على قائلها بعقوبة الإعدام شنقا في عدالة الملوك والسلاطين، إذ كان يُفهم منها عند الملوك بأنها إهانة لذات الملك.

بينما كان النبي (ﷺ) يصلي بالمسلمين، فقال بدوي من خلفه: "اللهم ارحمني وارحم محمداً ولا ترحم أي أحد معنا" فبمجرد أن فرغ النبي من الصلاة منع البدوي من هذا وقال: "لقد حَجَّرْتَ واسعا"[2] أي رحمة الله. في حين أنه أظهر بقوله هذا أكبر علامات الوفاء الملكي والذي بسببه كان الملوك والسلاطين يغدقون على من يقول مثل هذا القول النعم الكثيرة.

كان الملوك والسلاطين دائما يعتقدون في أن الغنائم التي تنتج عن الغزو والحروب ملكا لهم أنفسهم، ولا يحق لأي أحد غيرهم وغير أسرتهم أن ينعم بهذه الغنائم، وحين كانوا يعطون الآخرين شيئا من هذه الغنائم فكانوا يعتقدون في أن هذا إحسانا منهم عليهم، ولكن النظام الذي أقره الحكم الإسلامي فيه الغنائم وسائر أموال الدولة ملك لله، وبالتالي تعود ملكيته إلى بيت مال المسلمين، وإن ما كان تحصل عليه الدولة من الزكاة والصدقات والخراج والجزية رغم أنه

---

(1) مسند ابن حنبل، ج ٣، صـ ٤٣٥، ومسند الأسود بن شريح.

(2) صحيح البخاري، ج ٢، صـ ٨٨٩، كتاب الأدب. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخارى: (٥٨٧٣) ـــ حدّثنا أبو اليمان أخبَرنا شُعيبُ عن الزُّهريِّ قال: أخبرني أبو سلمةَ بن عبد الرحمن أنَّ أبا هريرةَ قال: «قام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في صلاةٍ وقمنا معَه، فقال أعرابيٌّ وهوَ في الصلاة: اللّهمَّ ارحمني ومحمداً، ولا تَرحمْ معنا أحداً. فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم قال للأعرابيّ: لقد حَجَّرْتَ واسعاً. يُريدُ رحمةَ الله».(البخارى).

كان تحت أيدي الرسول (ﷺ) إلا أنه (ﷺ) لم يعتبره ملكا له بل جعله ملكا لعامة المسلمين كل حسب سهمه، وما تصرف النبي (ﷺ) أبداً في هذا المال لذات شخصه، وحرم أخذ الزكاة على نفسه وأهله وعياله وقبيلته بني هاشم جميعاً، وجعلها أي الزكاة بأمر من الله حقا للفقراء والمساكين، وأعلن عن هذا صراحة فورد عنه (ﷺ) في أبي داود أنه قال:

«مَا أُوتِيكُمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا أَمْنَعُكُمُوهُ إِنْ أَنَا إِلاَّ خَازِنٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ»[1].

وقال في موضع آخر

"إنما أنا قاسم والله يعطي"[2]

كانت أموال الغنيمة أيضاً تُعطى للمجاهدين، وكان للنبي (ﷺ) الحق في التصرف في الخمس[3] فقط وهذا التصرف يعني أن النبي (ﷺ) ينفق على أهل بيته من هذا الخمس ويعطي منه أيضا لمساكين المسلمين وفقرائهم الذين لم يكن

---

[1] أبو داود، ج ٢ صـ ١٥، كتاب الخراج والإمارة. وهذا نصه كاملا كما ورد في سنن أبي داود: (٢٩٥١) ـــ حدثنا سَلَمَةُ بنُ شَبِيبٍ أخبرنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أخبرنا مَعْمَرٌ عن هَمَّامِ بنِ مُنَبِّهٍ قالَ هٰذَا مَا حَدَّثَنَا بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ، قالَ قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَا أُوتِيكُمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا أَمْنَعُكُمُوهُ إِنْ أَنَا إِلاَّ خَازِنٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ».

[2] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٣٠٤٩) ـــ حدّثنا محمدُ بن سِنان حدّثنا فُلَيحٌ حدّثنا هِلالٌ عن عبدِ الرحمنِ بن أبي عَمرةَ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال «ما أعطيكم ولا أمنَعُكم، إنما أنا قاسمٌ أضَعُ حيثُ أُمِرتُ». (المترجم)

[3] قال الله تعالى: **"واعلموا أنما غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول" (الأنفال: ٤١)** (المترجم)

لهم نصيب في الغنائم طبقا لقواعد الحرب. أما المناطق التي كانت تدخل تحت لواء الإسلام دون حرب فرغم أنها كانت تدخل في تصرف النبي (ﷺ) مباشرة، إلا أن هذا التصرف كان يهدف فقط إلى أن النبي (ﷺ) يقضي حاجاته المنزلية من دخلها ثم ينفق منها أيضا على حاجات الدولة، وكان يذكر بأن هذا القدر سينفق على حاجات المسلمين.

حسب بعض الصحابة الذين قد رأوا جاه وجلال وعظمة وأبهة ملك إيران وقيصر الروم الظاهري أنه لابد أن يكون هناك شيء من مثل هذه الأبهة والعظمة الظاهرية من أجل إظهار رعب ووقار الإسلام، لذا تمنوا مراراً أن يقضي الرسول (ﷺ) حياته بشيء من مثل هذه الراحة ورغد العيش كملك إيران وقيصر الروم بدلا من التواضع والبساطة والزهد والقناعة.

ذات مرة دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى النبي (ﷺ) في حجرته (ﷺ) فما وجد عنده شيء سوى حاجاته (ﷺ) الضرورية. رأى عمر ﷺ وسادة من الجلد محشوة بأوراق النخيل ولحاء الشجر، ورأى النبي (ﷺ) مضجعا على حصير خال من الفراش وقد ظهرت على جسده المبارك آثار نسيج السرير. وحين تلفت حوله في الحجرة ما وجد سوى ثلاث جلود للحيوان معلقة ولم يكن هناك أثاث سوى هذا، وفي ناحية حفنة شعير. فتأثر عمر كثيراً بهذا الحال وانسابت الدموع من عينيه؛ فسأله النبي (ﷺ) عن سبب البكاء قال: يا نبي الله أي شيء يبعث على البكاء أكثر من هذا ؟ وهناك آثار على جسدك من هذا الحصير وأثاث بيتك قلة أمام عيني وهناك قيصر الروم وكسرى فارس يغتنمان من ملذات الدنيا ورسول الله (ﷺ) يعيش على هذا الحال. فقال الرسول: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلاَ تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟» قال عمر رضي الله عنه: "نعم"

لا ريب في هذا يا رسول الله"[1] وورد في رواية أخرى أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله أدع الله تعالى أن ينعم على أمتك بالطمأنينة وراحة البال

---

(1) صحيح البخاري ومسلم، كتاب النكاح، باب الإيلاء. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٣٦٤٦) ــــ حدثني زُهَيرُ بْنُ حَرْبٍ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُونُسَ الْحَنَفِيُّ: حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ: عَنْ سِمَاكٍ أَبِي زُمَيْلٍ. حَدَّثَنِي عَبْدُ اللّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ اللّهِ نِسَاءَهُ قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى وَيَقُولُونَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللّهِ نِسَاءَهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرْنَ بِالْحِجَابِ. فَقَالَ عُمَرُ فَقُلْتُ: لأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ. قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ. فَقُلْتُ: يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ! أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ اللّهِ ؟ فَقَالَتْ: مَا لِي وَمَا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ عَلَيْكَ بِعَيْبَتِكَ. قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ. فَقُلْتُ لَهَا: يَا حَفْصَةُ أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي رَسُولَ اللّهِ ؟ وَاللّهِ! لَقَدْ عَلِمْتِ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ لاَ يُحِبُّكِ، وَلَوْلاَ أَنَا لَطَلَّقَكِ رَسُولُ اللّهِ، فَبَكَتْ أَشَدَّ الْبُكَاءِ. فَقُلْتُ لَهَا: أَيْنَ رَسُولُ اللّهِ ؟ قَالَتْ: هُوَ فِي خِزَانَتِهِ فِي الْمَشْرُبَةِ. فَدَخَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَبَاحٍ غُلاَمِ رَسُولِ اللّهِ قَاعِداً عَلَى أُسْكُفَّةِ الْمَشْرُبَةِ. مُدَلٍّ رِجْلَيْهِ عَلَى نَقِيرٍ مِنْ خَشَبٍ. وَهُوَ جِذْعٌ يَرْقَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللّهِ وَيَنْحَدِرُ. فَنَادَيْتُ: يَا رَبَاحُ اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ. فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئاً، ثُمَّ قُلْتُ: يَا رَبَاحُ! اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ. فَنَظَرَ رَبَاحٌ إِلَى الْغُرْفَةِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ. فَلَمْ يَقُلْ شَيْئاً، ثُمَّ رَفَعْتُ صَوْتِي فَقُلْتُ: يَا رَبَاحُ! اسْتَأْذِنْ لِي عِنْدَكَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ. فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ظَنَّ أَنِّي جِئْتُ مِنْ أَجْلِ حَفْصَةَ، وَاللّهِ! لَئِنْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللّهِ بِضَرْبِ عُنُقِهَا لأَضْرِبَنَّ عُنُقَهَا، وَرَفَعْتُ صَوْتِي. فَأَوْمَأَ إِلَيَّ أَنِ ارْقَهْ، فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ فَجَلَسْتُ،فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ. وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ. فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللّهِ، فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ. وَمِثْلِهَا قَرَظاً فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ. وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ. قَالَ: فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ. قَالَ: «مَا يُبْكِيكَ؟ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ» قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللّهِ وَمَا لِي لاَ أَبْكِي؟ وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ. وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لاَ أَرَى فِيهَا إِلاَّ مَا أَرَى. وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالأَنْهَارِ. وَأَنْتَ

فالروم وإيران رغم أنهم لا يعبدون الله إلا أن الله أنعم عليهم بكل النعم الدنيوية فنهض الرسول (ﷺ) من فوره واستفسر من ابن الخطاب ﷺ مستنكرا لم يعتقد في أن الروم وإيران قد أعطيتا نعم الدنيا كلها.

انظر إلى هذا الخطاب القلبي المؤثر الذي نجد فيه عمر رضي الله عنه يوصي النبي (ﷺ) بالتمتع بنعم الدنيا كقيصر الروم وكسرى فارس، ولكنه حين

رَسُولُ اللَّهِ وَصِفْوَتُهُ. وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ. فَقَالَ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلاَ تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟» قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ حِينَ دَخَلْتُ وَأَنَا أَرَى فِي وَجْهِهِ الْغَضَبَ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا يَشُقُّ عَلَيْكَ مِنْ شَأْنِ النِّسَاءِ؟ فَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فَإِنَّ الله مَعَكَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ، وَقَلَّمَا تَكَلَّمْتُ، وَأَحْمَدُ اللَّهَ، بِكَلاَمٍ إِلاَّ رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي الَّذِي أَقُولُ. وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ. آيَةُ التَّخْيِيرِ: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ} (٦٦التحريم الآية: ٥) {وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ الله هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} (٦٦التحريم الآية: ٤) وَكَانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ وَحَفْصَةُ تَظَاهَرَانِ عَلَى سائر نِسَاءِ النَّبِي. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَطَلَّقْتَهُنَّ؟ قَالَ: «لاَ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى، يَقُولُونَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ نِسَاءَهُ، أَفَأَنْزِلُ فَأُخْبِرَهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُطَلِّقْهُنَّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنْ شِئْتَ» فَلَمْ أَزَلْ أُحَدِّثُهُ حَتَّى تَحَسَّرَ الْغَضَبُ عَنْ وَجْهِهِ، وَحَتَّى كَشَرَ فَضَحِكَ، وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ ثَغْراً. ثُمَّ نَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ وَنَزَلْتُ. وَكَانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ وَحَفْصَةُ تَظَاهَرَانِ عَلَى سائر نِسَاءِ النَّبِي. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَطَلَّقْتَهُنَّ؟ قَالَ: «لاَ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى، يَقُولُونَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ نِسَاءَهُ، أَفَأَنْزِلُ فَأُخْبِرَهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُطَلِّقْهُنَّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنْ شِئْتَ» فَلَمْ أَزَلْ أُحَدِّثُهُ حَتَّى تَحَسَّرَ الْغَضَبُ عَنْ وَجْهِهِ، وَحَتَّى كَشَرَ فَضَحِكَ، وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ ثَغْراً. ثُمَّ نَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ وَنَزَلْتُ.(المترجم).

يتولى خلافة المسلمين يرتدي ثوبا مرقعا[١]. ويعيش في بيت صغير ويحكم الروم وإيران بما فيها من ذهب وفضة وجواهر قيصر الروم وكسرى فارس، ويُوقع بهما الهزيمة في كل ميدان.

ذهب الصحابي قيس بن سعد إلى الحيرة ورأى هناك أن الناس يسجدون لرئيسهم، فترك هذا أثراً كبيراً عليه، وقال في نفسه، أن النبي (ﷺ) لأحق بالسجود له، لذا جاء إلى الرسول (ﷺ)، وأعرب عن هذا. فقال الرسول (ﷺ): " فَلاَ تَفْعَلُوا لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لأَزْوَاجِهِنَّ "[٢]. وورد في رواية أخرى أن النبي (ﷺ) سأله: "أَرَأَيتَ لَوْ مَرَرْتَ بِقَبْرِي أَكُنْتَ تَسْجُدُ لَهُ؟" قال: "لا". فأخبره النبي (ﷺ) بأن هذا لا يجب الآن أيضا"[٣].

---

[١] المعارف.

[٢] أبو داود، كتاب النكاح. وهذا نصه كاملا كما ورد في سنن أبى داود: (٢١٤٤) حدثنا عَمْرُو بنُ عَوْنٍ أنبأنا إِسْحَاقُ بنُ يُوسُفَ عن شَرِيكٍ عن حُصَيْنٍ عن الشَّعْبِيِّ عن قَيْسِ بنِ سَعْدٍ، قال: «أَتَيْتُ الْحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانٍ لَهُمْ، فَقُلْتُ: رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَهُ. قال: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقُلْتُ: إِنِّي أَتَيتُ الحِيرَةَ فَرَأَيْتهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانَ لَهُمْ فأَنتَ يَا رَسُولَ الله أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ، قال: أَرَأَيتَ لَوْ مَرَرْتَ بِقَبْرِي أَكُنْتَ تَسْجُدُ لَهُ؟ قال قُلْتُ: لاَ. قال: فَلاَ تَفْعَلُوا لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لأَزْوَاجِهِنَّ لِمَا جَعَلَ الله لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَقِّ». (المترجم).

[٣] سنن ابن ماجه، كتاب النكاح. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن ابن ماجه: (١٩٠٦) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا عَفَّانُ. حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ جَدْعَانَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «لَوْ أَمَرْتُ أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا. وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً أَمَرَ امْرَأَةً أَنْ تَنْقُلَ مِنْ

ورد في رواية أخرى أنه ذات مرة رجع سيدنا معاذ الصحابي الجليل رضي الله عنه من الشام، فسجد للنبي (ﷺ). فقال له النبي (ﷺ) بحيرة: «مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟» قال: "يا رسول الله إني رأيت أهل الروم يسجدون لزعمائهم وأئمتهم، فأردت أن أسجد لك". فقال النبي (ﷺ): " فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا. "[1].

يتضح جليا من كل هذه الأحداث أن أهل العرب كانوا معتادين على أنهم يرون ملوكهم وأئمتهم وزعمائهم في أبهة وعظمة وفي رغد من العيش مثل سلاطين وملوك البلاد المجاورة لهم، ولكن النبي (ﷺ) وضَّح لهم بفضل تعاليمه ونفسه الزكية وكرم أخلاقه وقدوته العملية بأن الله تعالى لا يحب حياة الاستكبار والترفع والإسراف والتبذير، ومن ثم فمثل هذه الصفات مرفوضة في التعليم الإسلامي فزينة الحياة الدنيا لا تزيد عن منظر رونق السراب أو فقاقيع الماء. وضح الله تعالى في القرآن الكريم هذه الحقيقة في أكثر من آية، كما وضحها أيضا النبي (ﷺ) وأصبح هو نموذجا عمليا لها، ثم جاء من بعده الخلفاء

جَبَلٍ أَحْمَرَ إِلَى جَبَلٍ أَسْوَدَ، وَمِنْ جَبَلٍ أَسْوَدَ إِلَى جَبَلٍ أَحْمَرَ، لَكَانَ نَوْلُهَا أَنْ تَفْعَلَ». (المترجم).

[1] المرجع السابق. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن ابن ماجه: (١٩٠٧) حدثنا أَزْهَرُ بْنُ مَرْوَانَ. حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنِ الْقَاسِمِ الشَّيْبَانِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ مُعَاذٌ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِيِّ. قَالَ: «مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟» قَالَ: أَتَيْتُ الشَّامَ فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتِهِمْ. فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «فَلاَ تَفْعَلُوا. فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ رَبِّهَا حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا وَلَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا، وَهِيَ عَلَى قَتَبٍ، لَمْ تَمْنَعْهُ». (المترجم).

الراشدون والصحابة الكرام رضوان الله عليهم جميعا واتبعوه في هذا، وبدا جليا أن التواضع وَالبساطة شعار الإسلام.

كان الحال في عامة الممالك هو أن ثروة المملكة توزع علـــى الأمـــراء وغيرهم ممن هم مقربون إلى الملك مما كان ينتج عنه ازدياد الأغنيـــاء ثـــراء، وازدياد الفقراء فقراً ومسكنة، ولكن نظام الحكم الإسلامي الذي أرســـاه محمـــد (ﷺ) طبقاً للأحكام والشريعة الإلهية لا يوجد فيه ثراء أو تقرب، بل المعيار فيه هو مدى الحاجة والضرورة، لأن الاهتمام بحق الضعفاء أكثر من الاهتمام بحق الأقوياء. لم يكن في بلاد العرب أي حق للعبيد والجواري، ولكـــن النبـــي (ﷺ) جعل لهم حقاً مع الأحرار. رُوي في أبي داود عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنه كانت قد جاءت صرة إلى النبي (ﷺ) بها أشياء من اليمن، فقسمها النبي (ﷺ) على الجواري والأحرار من النساء، وحين كان يُقسم أي صدقة فيبدأ أولاً بالعبيد الذين أُعتقوا[1].

لم يكن أي أحد يجرؤ على فتح فيه في حضرة السلاطين والملوك، بـــل كان هذا جرما عظيما وإن أُذن لأي أحد بالحديث أمام السلطان فيتحدث بأسلوب

---

[1] وردت هاتان الوقعتان في سنن أبي داود، كتاب الخراج.وهذه هي الروايـــة الأولـــى: (٢٩٥٤) حدثنا إبْرَاهِيمُ بنُ مُوسَى الرَّازِيُّ أخبرنا عِيسَى أخبرنا ابنُ أبي ذِئْبٍ عن القَاسِمِ بنِ عَبَّاسٍ عن عَبْدِ الله بنِ دِينَارٍ عن عُرْوَةَ عن عَائِشَةَ، رَضِيَ الله عَنْهَا: « أنَّ النَّبـــيَّ صلى الله عليه وسلم أُتِيَ بِظَبْيَةٍ فِيهَا خَرَزٌ فَقَسَمَهَا لِلْحُرَّةِ وَالأمَةِ قالَتْ عَائِشَةُ كَانَ أبِـــي رَضِيَ الله عنْهُ يَقْسِمُ لِلْحُرِّ وَالْعَبْدِ ».أما الرواية الثانية فهي: (٢٩٥٣) حدثنا هَارُونُ بنُ زَيْدِ بنُ أبي الزَّرْقَاءِ أخبرني أبي أخبرنا هِشَامُ بنُ سَعْدٍ عنْ زَيْدِ بن أسْلَمَ،: « أنَّ عَبْدَ الله بنَ عُمَرَ دَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ فقالَ حَاجَتُكَ يَا أبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ فقالَ عَطَاءُ المُحَرَّرِينَ فَإنِّي رَأيْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم أوَّلَ ما جَاءَهُ شَيْءٌ بَدَأ بالمُحَرَّرِينَ». (المترجم).

يُظهر عبوديته وملوكيته للسلطان، ولكن في نظام الحكم الإسلامي رغم أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يجلسون في معية النبي (ﷺ) وكأن على رؤوسهم الطير ولكن كان لأي شخص الحق في التعبير عن أي شيء يريده. وحين كان يأتي أي بدوي غير متحضر، فيخاطب الرسول (ﷺ) قائلا له: "يا محمد"، فكان النبي (ﷺ) يجيبه بطيب خاطر وسرور وإذا أراد أي مسلم الاستفسار عن أي شيء كان يقول: يا رسول الله. ثم يبدأ حديثه. وكان كل مسلم يؤمن إيمانا كاملا بوجوب تنفيذ أوامر الرسول (ﷺ)، ولكن حين كان يبدو لهم أن أمر الرسول (ﷺ) من سبيل أخذ المشورة، فكانوا يبدون رأيهم بدون أي حرج أو تكلف، ويُصغي إليهم الرسول (ﷺ) بكل شفقة ورحمة ولا يجبرهم على التسليم برأيه.

ينص قانون الإسلام على أنه لو أن أي سيد زوج جارية بعبد، ثم أعتقت هذه الجارية بعد هذا الزواج، فلها الحق أن تُبقي هذا الزواج أو تفسخه. كانت السيدة بربرة رضي الله عنها جارية لأم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، وحين أُعتقت فضلت الانفصال عن زوجها (الذي كان ما زال عبدا)، ومن ثم كان زوجها يبكي حزنا على هذا الانفصال، وفي النهاية نصحها الرسول (ﷺ) بأنها إن رجعت إليه لكان أفضل لها، فقالت: "يا رسول الله أهذا أمر منك ؟ فأخبرها النبي (ﷺ) أن هذا ليس أمراً وإنما شفاعة. قالت: "إني أعتذر عن قبول هذه الشفاعة". ولم يؤاخذها الرسول على فعلها هذا أبداً.(١)

---

(١) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخارى: (٥١٦٢) حدّثني محمدٌ أخبرَنا عبدُ الوهابِ حدثنا خالدٌ عن عكرمةَ عن ابن عباس «أنَّ زوجَ بريرةَ كان عبداً يُقال له مُغيث، كأني أنظرُ إليه يَطوف خلْفَها يبكي ودُموعه تسيل على لِحيَته؛ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لعباسٍ: يا عباسُ ألا تعجبُ من حُبِّ مُغيثٍ بَرِيرَةَ، ومن بُغضِ بريرة

نزل النبي (ﷺ) في غزوة بدر في مكان ما، فقال مهرة فن الحرب من الصحابة: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أ منزلاً أنزلكه الله، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قالوا: فإن هذا ليس بمنزل (جيد من الناحية العسكرية) فأنهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم. فقال النبي (ﷺ): لقد أشرت بالرأي. وحول هذا النوع من المشورة يقول النبي (ﷺ):

"أنتم أعلم بأمور دنياكم"

حين قدم النبي (ﷺ) المدينة، فرأى أناسا يأبرون النخل أي يجعلون طلع الذكر في طلع الأنثى، فقال (ﷺ):«مَا يَصْنَعُ هٰؤُلاَءِ؟». فقالوا "شيء تعودناه". قال: «مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذٰلِكَ شَيْئاً». فعمل الأنصار بهذا، ونتج عنه أن قل الإنتاج وجاء الثمر رديئا، وحين مر عليهم الرسول (ﷺ) فسأل عن الأمر فأخبروه بما حدث. فقال: "إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني به، أنتم أعلم بأمور دنياكم، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا؛ فخذوا به". وأخبرهم الرسول (ﷺ) بأنه إذا أشار عليهم في أيِ أمر من أمور الدنيا فهم أحرار في الأخذ برأيه (ﷺ) من عدمه لأن أمور الدنيا مدارها على التمرين والتجربة[1].

مُغيثاً. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: لو راجعتِه. قالت: يا رسولَ الله تأمُرُني؟ قال: إنما أنا أشْفع، قالت: لا حَاجَةَ لي فيه.(المترجم)

(١) صحيح مسلم، باب الفضائل. ورد في صحيح مسلم: (٦٠٧٩) حدّثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ الثَّقَفِيُّ وَ أَبُو كَامِلٍ الْجَحْدَرِيُّ. وَتَقَارَبَا فِي اللَّفْظِ. وَهٰذَا حَدِيثُ قُتَيْبَةَ. قَالاَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ سِمَاكٍ عَنْ مُوسَىٰ بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ بِقَوْمٍ عَلَىٰ رُؤُوسِ النَّخْلِ. فَقَالَ: «مَا يَصْنَعُ هٰؤُلاَءِ؟» فَقَالُوا: يُلَقِّحُونَهُ. يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الأُنْثَىٰ فَتَلْقَحُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذٰلِكَ شَيْئاً» قَالَ: فَأُخْبِرُوا بِذٰلِكَ فَتَرَكُوهُ. فَأُخْبِرَ

لهذا الحديث أهمية كبرى فيما يتعلق بالأمور الدنيوية التي ترجع إلى التجربة والخبرة، ولكن في الأمور التي يُوحى إلى الرسول (ﷺ) بها، والتي تُبنى على إطاعة الله فهي لا تقبل المشورة أبداً، لأن مُنْشِئها هو الحكم الإلهي، والذي يجب الإيمان به وتنفيذه، وليس للإنسان أي تدخل فيه.

حين وافق النبي (ﷺ) على الصلح مع قريش في الحديبية على شروط يسيرة، فشعر عمر رضي الله عنه بأن في هذا الصلح نوعا من أنواع الضعف فغضب، ولم يستطع ضبط نفسه، وجاء إلى النبي (ﷺ) وقال: "يا رسول الله ! ألست نبي الله حقا ؟" قال: "بلى". قال عمر رضي الله عنه: "ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟". قال النبي (ﷺ): "بلى". قال عمر رضي الله عنه: "فعلام نعطي الدنية في ديننا إذن ؟". قال النبي (ﷺ): "إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري". فقال عمر رضي الله عنه: "أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟" قال النبي (ﷺ): "بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟". قال: "لا". قال (ﷺ): "فإنك آتيه ومطوف به". ثم انطلق عمر رضي الله عنه متغيظا فأتى أبا بكر، فقال له كما قال لرسول الله (ﷺ)، ورد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله (ﷺ) سواء، وفي نهاية الأمر أدرك عمر رضي الله عنه أنه ليس على حق ومن ثم تصدق وصام وأعتق الرقاب كفارة عما صنعه يومئذ[١].

رَسُولُ اللّهِ بِذَلِكَ فَقَالَ: «إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ. فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا. فَلاَ تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ. وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللّهِ شَيْئاً، فَخُذُوا بِهِ. فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَىٰ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ». (المترجم).

[١] البخاري، ج ١، ص ٣٨٠، كتاب الشروط. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخارى: (٢٦٧٣) حدثني عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ حدَّثنا عبدُ الرزَّاقِ أخبرَنا مَعْمَرٌ قال: أخبرَني الزُّهريُّ قال: أخبرَني عُروةُ بنُ الزُّبَيرِ عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمةَ و مَروانَ

ـ يُصدِّقُ كلُّ واحد منهما حديث صاحبه ـ قالا: «خرَجَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم زمنَ الحُدَيبيةِ حتّى إذا كانوا ببعضِ الطريقِ قال النّبيُّ صلى الله عليه وسلم: إنَّ خالدَ بنَ الوَليدِ بالغميم في خَيلٍ لقُرَيشٍ طَليعةً، فخُذوا ذاتَ اليمين. فوَاللهِ ما شَعَرَ بهم خالدٌ حتّى إذا هم بقَتَرَةِ الجيشِ، فانطَلَقَ يَركُضُ نَذيراً لقُريشٍ، وسارَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، حتّى إذا كان بالثَّنيَّةِ التي يُهبَطُ عليهم منها بَرَكَت به راحلتُه، فقال الناسُ: حَلْ حَل. فألَحّتْ. فقالوا خلأَتِ القَصواء. فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: ما خَلأَتِ القَصواء وما ذاك لها بخُلُق. ولكن حَبَسَها حابسُ الفيل. ثم قال: والذي نفسي بيده، لا يَسألونني خُطَّةً يُعظِّمون فيها حُرُماتِ اللهِ إلا أعطَيتُهم إياها. ثم زجَرَها فوَثَبَتْ. قال فعَدَلَ عنهم حتّى نزَلَ بأقصىٰ الحُدَيبيةِ على ثَمَدٍ قليلِ الماء يَتَبرَّضهُ الناسُ تَبرُّضاً، فلم يُلَبِّثْهُ الناسُ حتّى نزَحوهُ، وشُكِيَ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم العطشُ، فانتزَعَ سَهماً من كِنانته، ثمَّ أمرَهم أن يَجعلوهُ فيه، فوَاللهِ ما زالَ يَجيش لهم بالرِّيِّ حتّى صدَروا عنه. فبينما هم كذٰلكَ، إذ جاءَ بُدَيلُ بنُ وَرقاءَ الخُزاعيُّ في نفَرٍ من قَومهِ من خُزاعةَ ـ وكانوا عَيبةَ نُصحِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم من أهلِ تِهامةَ ـ فقال: إني تَركتُ كعبَ بنَ لُؤيٍّ وعامرَ بنَ لُؤيٍّ نزلوا أعدادَ مياهِ الحُدَيبيةِ، ومعَهمُ العُوذُ المَطافيلُ، وهم مُقاتلوكَ وصادُّوكَ عن البيتِ. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: إنّا لم نَجِيء لقتالِ أحد، ولكنّا جِئنا مُعتمرينَ، وإنَّ قُرَيشاً قد نَهكَتْهُم الحربُ وأضرَّتْ بهم، فإنْ شاؤوا مادَدْتُهم مُدَّةً ويُخلُّوا بَيني وبينَ الناسِ، فإنْ أظهَرْ فإن شاؤوا أن يَدخلوا فيما دَخَلَ فيه الناسُ فعلوا، وإلاّ فقد جَمُّوا. وإنْ هم أبَوا فوَالذي نفْسي بيدِه لأُقاتِلَنَّهم على أمري هٰذا حتّى تَنفرِدَ سالِفَتي، ولَيُنْفِذَنَّ اللهُ أمرَه. فقال بُدَيلٌ: سأُبَلِّغُهم ما تقولُ. قال فانطَلَقَ حتّى أتىٰ قُرَيشاً قال: إنّا جئناكم من هٰذا الرَّجُل، وسمعناه يقولُ قَولاً، فإنْ شئتم أنْ نَعرِضَهُ عليكم فعلْنا. فقال سُفَهاؤهم: لا حاجةَ لنا أن تُخبِرونا عنهُ بشيء. وقال ذَوُو الرأيِ منهم: هاتِ ما سمِعتَهُ يقول. قال سمعتُهُ يقولُ كذا وكذا. فحدَّثَهُم بما قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم. فقامَ عُروةُ بنُ مَسعودٍ فقال: أيْ قَومِ، ألستُم بالوالدِ ؟ قالوا: بلىٰ. قال: أوَلستُ بالوَلَدِ ؟ قالوا: بلىٰ. قال: فهل تَتَّهمونَني ؟ قالوا: لا. قال: ألستُم تَعلمونَ أنّي استَنفَرْتُ

أهلَ عُكاظَ، فلمّا بَلَّحوا عليَّ جئتُكم بأهلي وولَدي ومَن أطاعَني ؟ قالوا: بَلىٰ. قال: فــإنَّ هٰذا قد عَرَضَ عليكم خُطَّةَ رُشْدٍ اقبَلوها ودَعوني آتيهِ. قالوا: ائْتِه.فأتاهُ، فجعَلَ يُكلِّمُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم نَحواً مِن قَولِهِ لِبُدَيل. فقال عُروةُ عندَ ذٰلكَ: أيْ محمدُ، أرأيتَ إنِ استأْصَلتَ أمرَ قَومِكَ، هل سمعتَ بأحَدٍ منَ العَرَبِ اجتاحَ أهلَهُ قبلَكَ ؟ وإنْ تَكُنِ الأخرىٰ، فإني واللهِ لا أرَى وُجوهاً، وإني لأرَى أشواباً مِنَ الناسِ خَليقاً أنْ يَفِرُّوا ويَدَعوك، فقال لهُ أبو بكرٍ: امْصصْ بِبَظْرِ اللاتِ، أنحنُ نَفِرُّ عنه ونَدَعُهُ ؟ فقال: مَن ذا ؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نَفْسي بيدِه، لَوْلا يَدٌ كانتْ لكَ عندي لم أجْزِكَ بها لأجَبْتُك. قال: وجعلَ يُكلِّمُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فكلَّما تَكلَّم كلمةً أخَــذَ بِلِحْيَتِه، والمغيرةُ بنُ شُعبةَ قائمٌ على رأسِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ومعَــهُ الـسَّيفُ وعليهِ المِغْفَر، فكلما أهْوَىٰ عُروةُ بيدِه إلىٰ لِحية النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ضَرَبَ يَدَهُ بنَعْلِ السيفِ وقال له: أخِّرْ يدَكَ عن لِحيةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم. فرفَعَ عُروةُ رأسَهُ فقال: مَن هٰذا ؟ قال: المغيرةُ بنُ شُعبة. فقال: أيْ غُدَر، ألستُ أسعىٰ في غَدْرتِكَ ؟ وكان المغيرةُ صَحِبَ قوماً في الجاهليةِ فقتلهم وأخذَ أموالَهم ثمَّ جاء فأسلم. فقال النَّبــيُّ صلى الله عليه وسلم: أمّا الإسلام فأقبلُ وأما المال فلستُ منهُ في شيء. ثمَّ إنَّ عُــروةَ جَعلَ يَرْمُقُ أصحابَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بعَينَيهِ. قال فوَاللهِ ما تَنَخَّمَ رســولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم نُخامةً إلاّ وَقَعَتْ في كفِّ رجُلٍ منهم فدَلَكَ بها وَجهَهُ وجِلْــدَه، وإذا أمرَهُم ابتَدَرُوا أمرَه، وإذا تَوَضَّأ كادُوا يَقْتَتِلونَ على وَضُــوئِه، وإذا تَكلمــوا خَفَــضوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّونَ إليهِ النَّظرَ تَعظيماً لهُ. فرجعَ عُروةُ إلى أصحابهِ فقــال: أيْ قَومِ، والله لقَد وفَدْتُ على المُلوكِ، ووَفدتُ على قَيصَرَ وكِــسْرَى والنَّجاشــيِّ، واللهِ إنْ رأيتُ مَليكاً قطُّ يُعظِّمُهُ أصحابهُ ما يعظم أصحابُ محمد صلى الله عليه وسلم محمــداً، واللهِ إنْ يَتَنَخَّمُ نُخامةً إلاّ وقَعَت في كفِّ رجُلٍ منهم فدَلَكَ بها وَجهَه وجلدَه، وإذا أمــرَهم ابتَدروا أمرَه، وإذا تَوَضَّأ كادوا يَقتَتِلونَ على وَضوئِه، وإذا تكلموا خَفَــضوا أصــواتَهم عندَه، وما يُحِدُّونَ إليهِ النَّظرَ تَعظيماً له. وإنهُ قد عَرَضَ عليكم خُطَّةَ رُشد فاقبَلوها. فقال رجُلٌ مِن بني كِنانةَ: دَعوني آتيه، فقالوا: ائتِه. فلمَّا أشرَفَ على النَّبيِّ صلى الله عليــه

وسلم وأصحابه قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: هٰذا فُلانٌ، وهوَ من قومٍ يُعَظِّمون البُدْنَ، فابْعَثوها له، فبُعِثَتْ لهُ، واستَقْبَلَهُ الناسُ يُلَبّونَ. فلما رأى ذٰلكَ قال: سُبحانَ الله، ما ينبغي لِهؤُلاءِ أن يُصَدُّوا عنِ البيتِ. فلما رَجعَ إلى أصحابه قال: رأيتُ البُدْنَ قد قُلِّدَتْ وأُشعِرتْ، فما أرَى أن يُصَدُّوا عنِ البيتِ. فقامَ رجُلٌ منهم يُقالُ لهُ مِكرَزُ بنُ حَفصٍ فقال: دَعوني آتِيه. فقالوا: ائتِه. فلما أشرَفَ عليهم قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: هٰذا مِكرَزٌ، وهوَ رجُلٌ فاجِر. فجعَلَ يُكلِّمُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم. فبينما هوَ يُكلِّمُهُ إذ جاءَ سُهَيلُ بنُ عمرٍو. قال مَعْمَرٌ: فأخبرَني أيُّوبُ عن عكرمةَ أنه لما جاءَ سُهَيلُ بنُ عمرٍو قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: قد سَهُلَ لكم من أمرِكم. قال مَعمرٌ قال الزُّهريُّ في حديثِه: فجاءَ سُهَيلُ بنُ عمرو فقال: هاتِ اكتُبْ بيننا وبينَكم كتاباً. فدَعا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الكاتِبَ، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيم» فقال سُهيلٌ: أما «الرحمٰنُ» فوَاللهِ ما أدري ما هي، ولٰكنِ اكتُبْ «باسمِك اللّهمَّ» كما كنتَ تكتبُ، فقال المسلمونَ: واللهِ لا نكتُبُها إلا «بسمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرحيم»، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: اكتُبْ «باسمِكَ اللّهمَّ». ثم قال: «هٰذا ما قاضىٰ عليهِ محمدٌ رسولُ الله» فقال سُهيلٌ واللهِ لو كنّا نَعلمُ أنكَ رسولُ اللهِ ما صَدَدْناكَ عنِ البيتِ ولا قاتَلْناك، ولكنِ اكتُبْ «محمدُ بنُ عبدِ الله»، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: واللهِ إني لَرسولُ الله وإن كذَّبتُموني، اكتُبْ «محمدُ بنُ عبدِ الله» قال الزُّهريُّ: وذٰلك لقوله: «لا يسألونني خُطَّةً يُعظِّمونَ فيها حُرُماتِ اللهِ إلاّ أعطيتُهم إيّاها» فقال له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: علىٰ أن تُخلُّوا بينَنا وبينَ البيتِ فنَطوفَ به. فقالَ سُهَيلٌ: واللهِ لا تتحدَّثُ العَرَبُ أنا أُخِذْنا ضُغْطة، ولكنْ ذٰلكَ منَ العامِ المقبلِ، فكتبَ، فقالَ سُهيلٌ: وعلىٰ أنه لا يأتيكَ منّا رجُلٌ — وإنْ كان على دينِكَ — إلا رَدَدْتَهُ إلينا. قال المسلمون: سُبحانَ الله، كيفَ يُرَدُّ إلى المشركينَ وقد جاءَ مُسلماً ؟ فبينما هم كذٰلك إذ دَخلَ أبو جَندَلِ بنُ سُهيلِ بنِ عمرٍو يَرسُفُ في قيودِه، وقد خَرَجَ مِن أسفَلِ مكةَ حتّى رَمىٰ بنفسه بينَ أظهُرِ المسلمين، فقال سُهَيلٌ: هذا يا محمدُ أوّلُ مَن أُقاضيكَ عليهِ أن تَرُدَّهُ إليَّ. فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: إنا لم نَقضِ الكتابَ بعدُ. قال: فو اللهِ إذاً لم أُصالِحْكَ على شيءٍ أبداً. قال النَّبيُّ

صلى الله عليه وسلم: فأجزهُ لي، قال: ما أنا بمجيزهِ لكَ، قال: بلى فافعلْ، قال: ما أنا بفاعل. قال مكْرَزٌ: بل قد أجَزْناهُ لك. قال أبو جَندل: أيْ مَعشَرَ المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركينَ وقد جئتُ مُسلماً ؟ ألا تَرَونَ ما قد لَقيت ؟ وكان قد عُذِّبَ عَذاباً شَديداً في الله. قال: فقال عمرُ بنُ الخَطاب: فأتيتُ نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ألستَ نبيَّ الله حقاً ؟ قال: بلىٰ. قلت: ألَسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطلِ ؟ قال: بلىٰ. قلت: فلم نُعطِي الدَّنيَّةَ في ديننا إذاً ؟ قال: إني رسولُ الله ولستُ أعصيه، وهوَ ناصري. قلت: أوَليسَ كنتَ تحدِّثنا أنّا سنأتي البيت فنَطوفُ به ؟ قال: بلىٰ، فأخبرتُكَ أنّا نأتيهِ العامَ ؟ قال: قلتُ: لا. قال فإنَّكَ آتيهِ ومُطَوِّفٌ بهِ. قال: فأتيت أبا بكرٍ فقلتُ: يا أبا بكرٍ، أليس هٰذا نبيَّ الله حقاً ؟ قال: بلىٰ. قلتُ: ألسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطل ؟ قال: بلىٰ. قلتُ: فلم نُعطِي الدَنيَّةَ في ديننا إذاً ؟ قال: أيّها الرجُلُ، إنهُ لَرسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وليسَ يَعصِي ربَّه، وهوَ ناصرُه، فاستَمْسِكْ بغَرْزِهِ فوَالله إنهُ على الحقّ. قلتُ: أليسَ كانَ يُحدِّثنا أنّا سنأتي البيتَ ونَطوف به ؟ قال: بلىٰ، أفأخبَرَكَ أنكَ تأتيهِ العامَ ؟ قلت: لا. قال: فإنكَ آتيهِ ومُطوِّفٌ به. قال الزُّهري قال عمر: فعملتُ لذلكَ أعمالاً. قال: فلما فَرَغَ من قضيةِ الكتاب قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قوموا فانحرُوا ثمَّ احلقوا. قال: فوَالله ما قامَ منهم رجُلٌ، حتى قال ذٰلكَ ثلاثَ مَرّات، فلمّا لم يَقُمْ منهم أحدٌ دَخلَ على أُمِّ سَلمةَ فذكَرَ لها ما لقيَ منَ الناسِ، فقالت أُمُّ سَلمةَ: يا نبيَّ الله أتُحبُّ ذٰلك ؟ اخرُجْ، ثمَّ لا تُكلِّمْ أحداً منهم كلمةً حتى تَنْحَرَ بُدْنَك، وتَدْعو حالقَكَ فيَحلقَكَ. فخرَجَ فلم يُكلِّمْ أحداً منهم حتى فعل ذٰلك: نحرَ بُدْنَهُ، ودَعا حالقَهُ فحلقَه. فلما رأوا ذٰلكَ قاموا فنَحروا، وجَعلَ بعضُهم يَحلِقُ بعضاً، حتى كادَ بعضُهم يَقتُلُ بعضاً غمّاً. ثمَّ جاءَهُ نِسْوةٌ مُؤمِناتٌ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ: {يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ـ حتّى بَلَغَ ـ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ} (الممتحنة: ١٠) فطلَّقَ عمرُ يَومَئذ امرأتَين كانتا لهُ في الشِّرك، فتزوَّجَ إحداهما مُعاويةُ بنُ أبي سُفيانَ والأخرىٰ صَفوانُ بنُ أُميةَ. ثمَّ رجَعَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينةِ، فجاءَهُ أبو بَصيرٍ رجُلٌ من قُرَيشٍ وهوَ مُسلم، فأرسَلوا في طَلَبهِ رجُلَينِ فقالوا: العَهدَ الذي جعلتَ لنا، فدفعَهُ إلى الرَّجُلَين، فخرجا بهِ حتّى بلغا ذا الحُلَيفة،

يثبت من هذه الواقعة أنه بالرغم من مناقشة وحوار عمر رضي الله عنه مع الرسول (ﷺ) إلا أن الرسول (ﷺ) لم يُغير في قراره لأنه كان قراراً نافذاً من الحق تبارك وتعالى.

حدثت واقعة أخرى عقب صلح الحديبية وهي أنه حين أمر الرسول (ﷺ) المسلمين بالتحلل من الإحرام، فلما كان هذا الصلح حائلاً بينهم وبين زيارة الكعبة، أصابهم حزن وكآبة، ولذا تساهلوا في تنفيذ أمر الرسول (ﷺ) أملا أن

فنزلوا يأكلونَ من تمرٍ لهم، فقال أبو بصيرٍ لأحدِ الرَّجلَين: واللهِ إني لأرَى سيفَكَ هٰذا يا فُلانُ جيِّداً، فاستلَّهُ الآخَرُ فقال: أجَلْ واللهِ إنهُ لجَيِّدٌ، لقد جَرَّبتُ به ثمَّ جَرَّبتُ. فقال أبو بَصيرٍ: أرِني أنظُرْ إليهِ، فأمكَنَهُ منه، فضَرَبه حتى بَرَد، وفرَّ الآخَرُ حتى أتىٰ المدينةَ، فدَخَلَ المسجدَ يَعْدو، فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حينَ رآهُ: لقد رأى هٰذا ذُعْراً، فلما انتَهىٰ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: قُتِلَ واللهِ صاحِبي وإني لمقتول. فجاءَ أبو بَصيرٍ فقال: يا نبيَّ اللهِ، قد واللهِ أوفىٰ اللهُ ذِمَّتَك قد ردَدْتَني إليهم، ثمَّ أنجاني اللهُ منهم. قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «وَيلُ امِّه مِسْعَرَ حَربٍ لو كان له أحد، فلما سمِعَ ذلكَ عَرفَ أنهُ سيَرُدُّهُ إليهِم؛ فخرَجَ حتى أتى سِيفَ البحرِ. قال: ويَنفَلِتُ منهم أبو جَندَلِ بنُ سُهيلٍ فلَحِقَ بأبي بَصير، فجعَلَ لا يَخرجُ من قُرَيشٍ رجُلٌ قد أسلَم إلا لَحِقَ بأبي بصيرٍ، حتى اجتمعَتْ منهم عِصابةٌ، فوَاللهِ ما يَسمعونَ بعِيرٍ خرَجَتْ لقُرَيشٍ إلى الشَّأمِ إلا اعترَضوا لها. فقتلوهم وأخذوا أموالَهم. فأرسلَتْ قريشٌ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم تُناشِدُهُ اللهَ والرَّحِمَ لما أرسلَ فمن أتاهُ فهوَ آمِنٌ فأرسلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إليهم، فأنزلَ الله تعالى: {وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ـ حتَّى بَلَغَ ـ الحمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ} (الفتح: ٢٤) وكانت حميَّتَهم أنهم لم يُقِرُّوا أنهُ نبيُّ اللهِ، ولم يُقِرُّوا ببسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيم، وحالوا بينهم وبينَ البيت».

قال أبو عبدِ اللهِ: معرَّةُ العُرِّ: الجرَبُ. تَزَيَّلوا: انمازوا. وحميتُ القومَ: مَنَعتُهم حمايةً. وأحمَيْتُ الحِمىٰ: جعلتُه حِمى لا يُدْخَل. وأحميتُ الرَّجُلَ إذا أغضبتَه إحْماءً.(المترجم)

يشفق النبي (ﷺ) عليهم، ويُغير من رأيه لما يتمنونه، ولكن حين رآهم النبي (ﷺ) غير راضين برأيه، ومصرين على عدم إطاعة الأمر الإلهي، فشق عليه هذا الأمر كثيراً، واغتم ودخل (الخيمة) على أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله عنها والتي سألته عن سبب الغضب الذي يبدو على وجهه، فذكر لها ما لقي من الناس، فأشارت عليه قائلة: يا رسول الله! لا تقل أي شيء لأي أحد، وتحلل أنت من إحرامك. ففعل النبي (ﷺ) ما أشارت به، ورأى الصحابة رضوان الله عليهم هذا وأدركوا أن النبي (ﷺ) لن يرجع عن قراره، لذا قاموا فتحللوا من الإحرام، وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما.

يتضح في واقعة الحديبية هذه كلا النموذجين ألا وهما نموذج الحكم الصادر عن طريق الوحي وهو متمثل في الأمر الإلهي في الموافقة على الصلح، ومن ثم لم تُقبل فيه أية مشورة، والنموذج الثاني هو المشورة فيما يتعلق بالتحلل من الإحرام والتي أدلت بها أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله عنها فهذا نموذجا للرأي والتدبير الإنساني الذي يرتبط بعلم النفس والتجربة، ومن ثم اقتنع به النبي (ﷺ) وأخذ به دون تردد[١].

---

(١) جدير بالذكر هنا أنه لا يُشتبه على أحد بناء على مثل هذه الوقائع أن النبي كان – حاشا لله – أقل من السيدة أم سلمة رضي الله عنها. في فهم وإدراك الحالة النفسية، ولكن الحقيقة هي أن علم ومعرفة التلاميذ مستمدة من الأساتذة، والتي يغفل عنها أحيانا الأساتذة بسبب انشغالهم بمسائل تُفوقها أهمية، ومن ثم يأتي التلاميذ ويقدمون العلم الذي كانوا قد استمدوه من فيض أساتذتهم بسبب انشغال الأساتذة بما هو أهم أو بمسألة أكثر أهمية من المسألة التي قام بحلها التلاميذ.

كانت تحدث بعض الوقائع التي يعترض فيها أناس على رسول الله (ﷺ) بسبب قلة فهمهم أو عدم بُعد نظرهم، ولكن النبي (ﷺ) كان يتحمل هذا ولم يعاقب المعترض على إساءته أبداً.

في ذات مرة حدث نزاع بين الزبير رضي الله عنه وصحابي من الأنصار حول ري الماء، فكان حقل الزبير يقع أولاً، ويليه حقل الأنصاري، وكان الأنصاري يريد أن يروي حقله أولاً، كما كان الزبير رضي الله عنه يرغب في ألا يمكنه من هذا. وفي النهاية وصلت هذه المسألة إلى النبي (ﷺ). وكان القانون الإسلامي يقضي بأن الحقل القريب من البئر أحق بالماء من الحقول الأخرى. ولم يكن للأرض البعيدة عن البئر الحق في أخذ الماء من البئر عبر الأرض القريبة دون إذن. قال النبي (ﷺ) للزبير رضي الله عنه: " اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلْ إِلَى جَارِكَ ". فكان هذا حكما أخلاقيا وعادلاً في الوقت ذاته. ولكن الأنصاري غضب غضبا شديداً من هذا الحكم طبقا للطبيعة البشرية وقال: : يَا رَسُولَ الله أن كَانَ ابنَ عَمَّتِكَ [1]. فتغير وجه النبي (ﷺ) بسماع هذا، وحكم حكما قانونيا بدلاً من الحكم الأخلاقي، فقال للزبير: "اسْقِ ثُمَّ احْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ [2]. أي يفيض الماء ويغمر الحد ويصل إلى الحقول الأخرى بنفسه.

---

[1] صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها. (المترجم)

[2] أبو داود، كتاب القضايا، ج ٢، صـ ٧٦. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن أبى داود: (٣٦٣٨) حدثنا أَبُو الْوَلِيدِ الطَّيَالِسِيُّ أخبرنا اللَّيْثُ عن الزُّهْرِيِّ عن عُرْوَةَ، : «أَنَّ عَبْدَ الله بنَ الزُّبَيْرَ حَدَّثَهُ أَنَّ رَجُلاً خَاصَمَ الزُّبَيْرَ في شِرَاجِ الْحَرَّةِ الَّتي يَسْقُونَ بِهَا، فقالَ الأَنْصَارِيُّ: سَرِّحِ الْماءَ يَمُرُّ، فأَبَى عَلَيْهِ الزُّبَيْرُ، فقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لِلزُّبَيْرِ: اسْقِ يَازُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلْ إِلَى جَارِكَ. قالَ: فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ فقالَ: يَا رَسُولَ الله أَن كَانَ ابنَ عَمَّتِكَ، فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ثُمَّ قال: اسْقِ ثُمَّ احْبِسِ

في ذات مرة كان النبي يُقسم الغنائم، فجاء رجل من قبيلة بني تميم يُدعى ذو الخويصرة وقال: يا رسول الله أعدل. فقال الرسول (ﷺ): " ويلك، ومن يَعدِلُ إذا لم أعدِل" فغضب عمر رضي الله عنه غضباً شديداً وقال يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال (ﷺ): "دعه،[1] فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية... ويخرجون على حين فُرقة من الناس"[2].

نرى أن هذين الاعتراضين قُدما بطريقة مسيئة وغير مؤدبة، ولا عجب في أن فيهما منافق منتقِد، ولكن يتضح منهما أنه حين كان أي أحد يعترض على

الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ، فقالَ الزُّبَيْرُ: فَوَالله إنِّي لأحْسَبُ هٰذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ في ذٰلِكَ {فَلاَ وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ} الآيةَ». (المترجم).

(١) البخاري، ج ٢، صـ ٥٠٩، باب علامات النبوة في الإسلام.

(٢) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في البخاري: (٦٧٨٢) حدّثنا عبدُ الله بن محمدٍ حدثنا هشامٌ أخبرنا معمرٌ عن الزُهريِّ عن أبي سَلمةَ عن أبي سعيدٍ قال: «بينا النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَقسم جاء عبدُ الله بن ذي الخُوَيصرة التميمي فقال: اعدِلْ يارسولَ الله، فقال: ويلك، ومن يَعدلُ إذا لم أعدِل؟ قال عمر بن الخطاب: دَعني أَضرب عنُقَه. قال: دَعه فإنَّ له أصحاباً يَحقر أحدكم صَلاتَه مع صلاته وصيامَه مع صيامه، يَمرُقون من الدِّين كما يمرق السهم منَ الرميَّة، يُنظر في قُذَذِه فلا يوجدَ فيه شيء ثم يُنظر إلى نَصله فلا يوجدَ فيه شيء، ثم ينظر إلى رِصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم يُنظر في نَضيِّه فلا يوجَد فيه شيء، قد سَبَقَ الفَرثَ والدمَ. آيتهم رجلٌ إحدى يدَيه ــ أو قال ثدييه ــ مثل ثدي المرأة، أو قال: مثلُ البَضْعة تَدَردَرُ. يخرجون على حين فُرقةٍ من الناس». قال أبو سعيد: أشهدُ سمعتُ من النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأشهدُ أن علياً قَتلَهم وأنا معه، جِيءَ بالرجل عَلَى النعتِ الذي نعتَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم. قال: فنزلَتْ فيه: {ومنهم من يَلمزُكَ في الصدقات}.(المترجم).

النبي (ﷺ) بأسلوب سيء بسبب سوء فهمه أو جهله، فكان النبي (ﷺ) يتقبله ويتحمله بفضل كرمه وعطفه. ولكم كان من تعليم كبير في خلق النبي (ﷺ) ومنهجه العملي هذا في أن يتبعه من بعده الخلفاء الراشدون وأحرار المسلمين في معرفة الحق، وقوله دون أي تدخل للجاه والسلطان الذاتي والفخر والغرور.

معروف أن العمال والحكام يقومون مقام الخليفة أو الملك[1]. ومن ثم فإن انتقاد أي أحد منهم فإنه انتقاد للخليفة أو الملك ذاته. وفي عهد النبوة توجد أمثلة كثيرة على هذا، فهناك أناس كثيرون اعترضوا على عمال النبي (ﷺ) واشتكوهم، ولكن النبي (ﷺ) عرّف كلا منهما بواجبه بطريقة أخلاقية بدلاً من أن يُسكت الناس بأي مادة قانونية، أو يُوقع جُرما قانونيا على المعترضين مناصرة للحاكم أو العامل، لذا قال (ﷺ) للحكام والعمال: "اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس دونها حجاب"[2]. وأمر المعترضين بأن يرضوا عمالهم بأعمالهم"[3].

---

[1] أي ينزلون منزلتهم عند الرعية. (المترجم)

[2] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في: (١٢٢٩٤) حدثنا عبد الله حدثني أبي، ثنا يحيى بن إسحاق قال: أخبرني أبو عبد الله الأسدي قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فإنه ليس دونها حجاب» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».(المترجم)

[3] صحيح مسلم، ج ٢، صـ ٣٦٦، كتاب الزكاة، باب إرضاء السعاة. وهذا نص الحديث: (٢٢٥١) حدثنا أَبُو كَامِلٍ فُضَيْلُ بْنُ حُسَيْنٍ الْجَحْدَرِيُّ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زِيَادٍ. حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي إِسْمَاعِيلَ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ بْنُ هِلاَلٍ الْعَبْسِيُّ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنَ الأَعْرَابِ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ. فَقَالُوا: إِنَّ نَاساً مِنَ الْمُصَدِّقِينَ يَأْتُونَنَا فَيَظْلِمُونَنَا. قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «أَرْضُوا مُصَدِّقِيكُمْ». قَالَ جَرِيرٌ: مَا صَدَرَ عَنِّي مُصَدِّقٌ، مُنْذُ سَمِعْتُ هٰذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، إِلاَّ وَهُوَ عَنِّي رَاضٍ.(المترجم)

وهناك وقائع أخرى تزيد عن هذا شدة وجفاء، حيث كان بعـض النـاس يطلبون النبي (ﷺ) بقسوة وجفاء، ولكن النبي (ﷺ) كان يعاملهم بلطـف وكـرم ويعطيهم بْعدل وإنصاف ويزيد في حقهم.

في ذات مرة جاء أعرابي وأمسك بتلابيب النبي (ﷺ) وجذبه. بقوة حتـى احمر عنقه، واستدار النبي (ﷺ) له، فقال له الأعرابي: حمّل هذين البعيرين لأن هذا المال ليس مالك ولا مال أبيك. قال النبي (ﷺ) ثلاث مرات: "لا استغفر الله، لا أستغفر الله، لا أستغفر الله". ثم قال (ﷺ): "لن أُحملها حتى أقتص منك قدر ما جذبتني بهذه القوة". ولكنه أنكر هذا، ثم عفا عنه النبي (ﷺ)، وحمّل أحد البعيرين شعيراً، وعلى الآخر تمراً"[1].

ذات يوم جاء بدوي له دينا عند رسول الله (ﷺ)، والبدو عموما ذو طبيعة حادة، لذا تكلم البدوي مع الرسول (ﷺ) بفظاظة، فعنفه الـصحابة رضـوان الله عليهم على ذلك وقالوا له: "أما تدري مع من تتكلم ؟" قال: "إنني أطلب حقـي". فأخبرهم النبي (ﷺ) بأنه كان عليهم أن يقفوا بجانب البدوي لأن الحق معه، ثـم أمر بإعطائه حقه وأكثر منه[2].

مرة كان هناك بدوي يبيع لحم بعير، فاشترى النبي (ﷺ) منه لحما بقـدر وسق من التمر معتقداً أن بالبيت تمر، فلما دخل (ﷺ) البيت لم يجد تمراً، فخرج وأخبر الجزار بأنه ﷺ قد اشتري اللحم عوض تمر، ولكن ما وجد ﷺ عنده تمراً؛ فصاح الرجل وقال: يا لها من سوء معاملة. فقال له الناس: أيسيء رسـول الله المعاملة ؟ فأمرهم النبي بأن يتركوه لأن له الحق في هذا القول. ثم التفت البدوي

---

(1) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب العلم.

(2) سنن ابن ماجه، لصاحب الحق سلطان.

الجزار وقال هذه الجملة ثانية له. ثم كرر الجزار ما قاله قبل ذلك، فمنعه الناس، ولكن النبي (ﷺ) أمرهم بأن يدعوه يقول فإن له حق هذا القول. وأخذ يكرر هذه الجملة مراراً، ثم أرسله إلى أنصاري ليأخذ تمراً عوضا عما ابتاعه لــه (ﷺ). وحين أخذ الرجل التمر وعاد فوجد النبي (ﷺ) مع صحابته، وكان قد تأثر قلبــه من حلم وعفو وحسن معاملة الرسول له، لذا قال بمجرد أن رأى النبي (ﷺ): يا محمد جزاك الله عني خيرا الجزاء فلقد أديت الثمن، وأحسنت الأداء(١).

على أي حال كان هذا هو سلوك ومعاملة النبي (ﷺ) مع المسلمين، ولكن كانت له هناك وقائع تفوق هذا بكثير مع اليهود الذين كانوا يعيشون تحت لــواء حكمه كذميين.

كان زيد بن سعنة لما كان يهوديا يعمل بالتجارة، وكان النبــي (ﷺ) قــد اقترض منه قرضا، وما أن اقترب ميعاد أداء الدين جاء زيد يطالــب (ﷺ) بمــا عليه من دين، وأمسك بتلابيب النبي وجذبه بقوة وقال بجفاء: أنتم يا بني عبــد المطلب قوم مطل ومكر. فاغتاظ عمر رضي الله عنه، والتفت إليه وقــال: "يــا عدو الله أتُسيء إلى النبي (ﷺ). تبسم النبي (ﷺ) وقال:«إنَّا كُنَّا أحْوَجَ إلى غَيْــرِ هٰذَا مِنْكَ يَا عُمَرُ، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأدَاءِ، وتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ " ثم قال (ﷺ) لعُمر: "اذْهَبْ بِهِ يا عُمَرُ، فاقْضِهِ حَقَّهُ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صاعاً مِنْ غَيْرِهِ مَكانَ مَــا رُعْتَهُ». فتأثر اليهودي بحلم وعفو النبي (ﷺ) واعتنق الإسلام(٢).

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج ٦، صـــ ٢٦٨.

(٢) وردت هذه الرواية في البيهقي كما رواها ابن حبان والطبراني وأبــو نعــيم. وقــال السيوطي أن سندها صحيح. (شرح الشفاء الشهاب الخفاجي). وهذا نصه كما ورد فــي ابن حبان: (٢٨٧) أخبرنا الحسنُ بنُ سفيان، و محمدُ بنُ الحسن بنِ قُتَيبــة ــ واللفــظ للحسن ــ قالا: حدثنا محمدُ بنُ المُتَوَكِّل وهو ابنُ أبي السَّرِيِّ، قال: حدثنا الوليــدُ بــنُ

مسلم، قال: حدثنا محمدُ بنُ حمزة بنِ يوسف بن عبد الله بن سَلَام، عن أبيه، عن جــده، قال: قال عبدُ الله بنُ سَلَام : إنَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى لمَّا أَرَادَ هُدَى زَيْدِ بْنِ سَعْنَةَ، قَالَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ: إنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ شَيْءٌ إلَّا وقَدْ عَرَفْتُهَا في وَجْهِ مُحمَّــدٍ، حــين نَظَرْتُ إلَيْهِ؛ إلا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَخْبُرْهُمَا مِنْهُ: يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ، ولَا يَزِيْدُه شِدَّةُ الجَهْلِ عَلَيْهِ إلَّا حلْماً، فَكُنْتُ أَتَلَطَّفُ لَهُ لِأَنْ أُخَالِطَهُ فَأَعْرِفَ حِلْمَهُ وَجَهْلَهُ، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ مِــنَ الحُجُرَاتِ، ومَعَهُ عَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَتِه كالبَدَوِيِّ، فقال: يا رَسُولَ الله، قَرْيَةُ بَنِي فُلَانٍ قَدْ أَسْلَمُوا، وَدَخَلُوا في الإسْلَامِ، وكُنْتُ أَخْبَرْتُهُمْ أَنَّهُمْ إنْ أَسْلَمُوا، أَتَاهُمُ الرِّزْقُ رَغَداً، وقَدْ أصابهم شِدَّةٌ وَقَحْطٌ مِنَ الغَيْثِ، وأَنَا أَخْشَى، يَــا رَسُــولَ اللَّــهِ، أنْ يَخْرُجُوا مِنَ الإسْلَامِ طَمَعاً كما دَخَلُوا فيهِ طَمَعاً، فَإنْ رَأَيْتَ أَنْ تُرْسِلَ إلَيْهِمْ مَنْ يُغِيثُهُمْ بِهِ فَعَلْتَ. قالَ: فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ إلى رَجُلٍ إلى جَانِبِه، أُرَاهُ عُمَرَ، فَقَالَ: مَا بَقِيَ مِنْهُ شَــيْءٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قالَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ: فَدَنَوْتُ إلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا مُحمَّدُ، هَلْ لَــكَ أنْ تَبِيعَنِــي تَمْراً مَعْلُوماً مِنْ حَائِطِ بَنِي فُلَانٍ إلى أَجلِ كَذَا وكَذَا؟ فَقَالَ: «لَا، يَا يَهُودِيُّ، ولكِنْ أَبِيعُــكَ تَمْراً مَعْلُوماً إلى أَجَلِ كَذَا وكَذَا، ولَا أُسَمِّي حَائِطَ بَنِي فُلَانٍ»، قُلْتُ: نَعَمْ، فَبَايَعَنِي، فَأَطْلَقْتُ هِمْيَانِي، فَأَعْطَيْتُهُ ثَمَانِينَ مِثْقَالًا مِنْ ذَهَبٍ في تَمْرٍ مَعْلُومٍ إلى أَجَــلِ كَــذَا وكَــذا، قَــالَ: فَأَعْطَاهَا الرَّجُلَ، وقال: «اعْجَلْ عَلَيْهِمْ وَأَغِثْهُمْ بِهَا» قالَ زَيْدُ بنُ سَعْنَةَ: فَلَمَّا كَــانَ قَبْــلَ مَحِلِّ الأجَلِ بِيَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ في جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأنْصَارِ وَمَعَهُ أَبُــو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، ونَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا صَلَّى عَلَى الجِنَازَةِ، دَنَا مِنْ جِدارٍ، فَجَلَسَ إلَيْهِ، فَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ قَمِيصِهِ، وَنَظَرْتُ إلَيْهِ بِوَجْهٍ غَلِيظٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلَا تَقْضِينِي يَا مُحمَّــدُ حَقِّي؟ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكُم بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ ــ بِمُطْلٍ، وَلَقَدْ كَانَ لي بِمُخَالَطَتِكُمْ عِلْمٌ، قَــالَ: وَنَظَرْتُ إلى عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ وَعَيْنَاهُ تَدُورَانِ في وَجْهِهِ كالفَلَكِ المُسْتَدِيرِ، ثُــمَّ رَمَــانِي بِبَصَرِهِ، وقالَ: أيْ عَدُوَّ اللَّهِ، أَتَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ما أَسْمَعُ، وَتَفْعَلُ بِهِ مَا أَرَى؟ فَوَ الَّــذِي بَعَثَهُ بالْحَقِّ لَوْلَا مَا أُحَاذِرُ فَوْتَهُ لَضَرَبْتُ بسَيْفِي هذَا عُنُقَكَ، وَرَسُولُ اللَّهِ يَنْظُرُ إلى عُمَرَ في سُكُونٍ وتُؤَدَةٍ، ثُمَّ قَالَ: «إنَّا كُنَّا أَحْوَجَ إلى غَيْرِ هذَا مِنْكَ يَا عُمَرُ، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأَدَاءِ، وتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ، اذْهَبْ بِهِ يا عُمَرُ، فاقْضِهِ حَقَّهُ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صاعاً مِنْ

ذات مرة لم يكن عند النبي (ﷺ) سوى ثوب واحد فقط وكان ثقيلا ووسخا، ويزيده العرق ثقلا. وصدفة جاءت ملابس من الشام عند يهودي، فعرضت السيدة عائشة رضي الله عنها عليه (ﷺ) أن يشتري ثيابا من هذا اليهودي ويكون ثمنه دينا عليه (ﷺ) فأرسل النبي رجلا إلى اليهودي. وهنا قال اليهودي: فهمت، إنه يريد أن يُضيع بضاعتي دون ثمن. وحين سمع النبي (ﷺ) هذه الجملة ما قال سوى: «كَذَبَ. قَدْ عَلِمَ أني مِنْ أَتْقَاهُمْ لله وآدَّاهُمْ لِلأَمَانَةِ» [1].

غَيْرِه مكانَ مَا رُعْتَهُ» قَالَ زَيْدٌ: فَذَهَبَ بِي عُمَرُ، فَقَضَانِي حَقِّي، وَزَادَنِي عِشْرِينَ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ، فَقُلْتُ: ما هٰذِه الزِّيَادَةُ؟ قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ أَنْ أَزِيدَكَ مَكانَ مَا رُعْتُكَ. فَقُلْتُ: أَتَعْرِفُنِي يَا عُمَرُ؟ قَالَ: لا. فَمَنْ أَنتَ؟ قُلْتُ: أَنَا زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ. قَالَ: الحَبْرُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، الحَبْرُ، قَالَ: فَمَا دَعاكَ أَنْ تَقُولَ لِرَسُولِ اللَّهِ ما قُلْتَ وتَفْعَلَ بِه مَا فَعَلْتَ. فقُلْتُ: يَا عُمَرُ، كلُّ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ قَدْ عَرَفْتُهَا في وَجْهِ رَسولِ اللَّهِ حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْه إِلَّا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَخْتَبِرْهُمَا مِنْهُ: يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ، وَلَا يَزِيدُهُ شِدَّةُ الجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْماً، فَقَد اخْتَبَرْتُهُمَا، فَأُشْهِدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي قد رَضِيتُ باللَّهِ رَبّاً، وبالإسلامِ دِيناً، وَبِمُحمَّدٍ نَبِيّاً، وَأُشْهِدُكَ أَنَّ شَطْرَ مَالِي، فَإِنِي أَكْثَرُهَا مَالًا، صَدَقَةٌ على أُمَّةِ مُحمَّدٍ، فَقَالَ عُمَرُ، أَوْ عَلَى بَعْضِهِم، فَإِنَّكَ لا تَسَعُهُم كُلَّهُمْ. قُلْتُ: أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ، فَرَجَعَ عُمَرُ وَزَيدٌ إلى رَسولِ الله، فَقَالَ زَيْدٌ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إلا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحمَّداً عَبْدُهُ وَرَسولُهُ، فآمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ، وَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ مَشَاهِدَ كَثِيرَةً، ثُمَّ تُوُفِّي في غَزْوَةِ تَبُوكَ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ.

رحم الله زيداً. قال: فسمعتُ الوليدَ يقول: حدثني بهٰذا كلِّه محمد بن حمزة، عن أبيه عن جدِّه، عن عبدِ الله بنِ سَلَام. (١:٢) (المترجم).

[1] جامع الترمذي، كتاب البيوع. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي: (١٢١٠) حدثنا أَبُو حَفص عمرُ بنُ عَلِي. أَخْبَرَنَا يَزِيدُ بنُ زُرَيْعٍ. أخبرنا عُمَارَةُ بنُ أبي حَفْصَةَ. أخبرنا عِكْرِمَةُ عنْ عَائِشَةَ، قالَتْ: كانَ عَلَى رسولِ الله ثَوْبَيْنِ قِطْرِيَّيْنِ غَلِيظَيْنِ. فَكَانَ إِذَا قَعَدَ فَعَرِقَ، ثَقُلاَ عَلَيْهِ. فَقَدِمَ بَزٌّ مِنَ الشَّامِ لِفُلاَنٍ الْيَهُودِيِّ. فَقُلْتُ: لَوْ بَعَثْتَ إِلَيْهِ فَاشْتَرَيْتَ

إن الهدف من ذكر هذه الوقائع والأحداث هو الإشارة إلى أنه بالرغم من أن محمداً (ﷺ) كان نبيا ورسولا، وله صفة الحاكم والأمير، إلا أن الناس كانوا يعترضون عليه بشدة وقسوة باعتباره أميرهم أو حاكمهم وكان (ﷺ) يستمع إليهم بحلم ويعفو عنهم ويفصل في الأمور بالعدل، ويُوضح تفاصيل الواقعة أو الأمر ويُقنع المعترضين. وإذا قارنت هنا بين حاكم المسلمين وغيره من سلاطين العالم والأمراء بغرورهم وتكبرهم لوجدتهم يُوقعون العقاب القاسي على رعاياهم إذا ارتكبوا قليل القليل من إساءة الأدب، ليس هذا فحسب بل إن المادة الأولى من قانونهم تنص على أنهم براء من أي جرم أو مؤاخذة، وعلى أنهم الأعلى، وفوق كل القوانين. ولكنك تجد في قانون الإسلام أن الأمير والمأمور والحاكم والمحكوم والراعي والرعية كلهم سواء أمام القانون.

وهنا أمر لابد من ذكره أيضا وهو أن النبي (ﷺ) كان معصوما من الخطأ، ومن ثم كانت كل أقواله وأفعاله لا تتعدى أبداً حدود الحلال، وأن إساءة الأدب في حقه (ﷺ) يمكن أن تحرم الإنسان من الإيمان وتقوده إلى جهنم. وفي الوقت ذاته أجيزت جرأة السؤال والجواب والاستفسار منه (ﷺ) مباشرة فيما يتعلق

مِنْهُ ثَوْبَيْنِ إِلَى الْمَيْسَرَةِ. فأَرْسَلَ إِلَيْهِ فقَالَ: قَدْ عَلِمْتُ مَا يُرِيدُ. إِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يذْهَبَ بِمَالِي، أَوْ بِدَرَاهِمِي. فقَالَ رسولُ الله «كَذَبَ. قَدْ عَلِمَ أَنِّي مِنْ أَتْقَاهُمْ لله وآدَّاهُمْ لِلأَمَانَةِ».

قال: وفي الْبَابِ عنِ ابنِ عبَّاسٍ وأنَسٍ وأسْمَاءَ بنت يَزِيدَ.

قال أبو عيسى حديثُ عَائِشَةَ حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب. وَقَدْ رَوَاهُ شُعْبَةُ أيْضاً عَنْ عُمَارَةَ بنِ أبي حَفْصَةَ. قال وسَمِعتُ مُحَمَّدَ بنَ فِرَاسٍ الْبَصْرِيَّ يَقُولُ: سمعتُ أَبَا دَاوُدَ الطَّيَالِسِي يَقُولُ: سُئِلَ شُعْبَةُ يَوْماً عنْ هَذَا الْحَدِيثِ فقَالَ: لَسْتُ أُحَدِّثُكُمْ حَتَّى تَقُومُوا إِلَى حَرَمِيٍّ بنِ عُمَارَةَ، بن أبي حفصة فتُقَبِّلُوا رَأْسَهُ. قَالَ: وَحَرَمِيٌّ في الْقَوْمِ. قال أبو عيسى: أي إعجابا بهذا الحديث.(المترجم).

بالمعاملات الشخصية وأمور الدولة كي يكون هذا نبراسا ودرسا لمن يأتي بعده من حكام المسلمين، ومن ثم كان النبي (ﷺ) يتحمل ويصبر على إساءة الغير له، بل ويُشفق ويعفو عنه حتى لا يغلق أمراء وحكام المسلمين فيما بعد أبواب الاستفسار وإبداء الرأي أمام الأمة.

كانت إيران واحدة من بين الممالك والإمارات المتمدنة في عهد النبوة، ولكن لم يكن لأحد من عامة الناس والشعب أبداً يحلم أو يتوهم بأنه يجرؤ على مثل هذا الاعتراض والاستفسار والجدل والحوار مع ذات الملك، وكانت كل الممالك آنذاك في حقيقة الأمر ما هي إلا ممالك للأمراء، ولم تكن لها أية علاقة أو رباط مع عامة الناس، الذين لم يكن لهم الحق في إبداء أي استفسار أو سؤال مقارنة بالأمراء، كما أنه لم يكن لهم مثل هذا التواضع والحلم والتمسك بمثل هذا العدل وحسن المعاملة بين الحكام والأمراء، بل لم يكن لهم الحق في توهم هذا. ولم يصل هؤلاء الحكام والأمراء إلى مثل هذا الصدق والإخلاص وصفاء القلب وحسن الأخلاق أبداً، وكانوا بمثابة الإله لبلادهم، ويعدهم أهل البلاد جميعا، ومن ثم كان الجميع في خدمتهم، وكأن الوطن أصبح يقتصر على دائرتهم فقط، لا يعيش خارجها أي إنسان. والإسلام هو أول دين يساوي في القانون بين الأمير والمأمور أو بين الحاكم والمحكوم، الأمر الذي لم تعرفه الدنيا قبل الإسلام. تدبر هذا الأمر أيضا وهو أن هذا السؤال والاستفسار والحوار لم يكن مع أمير أو حاكم كعامة الأمراء والحكام بل كان مع بنى معصوم ورسول كريم يتسم بالخلق العظيم. صلوات الله وسلامه عليه.

أما فيما يتعلق بأخذ الرأي والمشورة من المسلمين عن أي أمر يخص السلطنة والإمارة والحكم فالحقيقة هي أن عقيدة المسلمين عن رسول الله (ﷺ) هي أنه (ﷺ) بغض النظر عن الوحي كان الأفضل من سائر الناس في العقل

والبصيرة والعلم والفهم والحكمة، ومن المعروف أنه الشخص الذي يمتاز عن الآخرين بعقله وبصيرته وفهمه وعلمه وحكمته ليس في حاجة إلى أخذ المشورة والرأي في أي أمر من الأمور ممن يقلون عنه في هذه الصفات، ولكن النبي (ﷺ) كان يستشير أصحابه رضوان الله عليهم لسببين:

الأول: إسعاد نفوس الصحابة بمشورتهم.

الثاني: يرجع إلى أن كل أفعاله (ﷺ) تصبح ضمن شريعة وقانون الإسلام، لذا كان (ﷺ) يستشير أصحابه حتى يتبعه عامة الخلفاء والأمراء من بعده. وقد أُمر (ﷺ) بهذا في قول الله تعالى:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (آل عمران ١٥٩)

نفذ الرسول (ﷺ) هذا الأمر الإلهي تنفيذاً كاملاً وأمر المسلمين بإتباعه فاتبعوه إتباعا، ومن ثم أثنى عليهم الله تعالى، ووضح صفتهم وهي أنهم:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨)

رغم أن كل أجزاء الدولة والحكومة لم تكتمل في عهد النبوة، ولم تكن هناك حاجة إلى هذا القدر إلا أنه بتتبع واستقراء الأحاديث النبوية يثبت أن النبي (ﷺ) استشار أصحابه في أمور مختلفة ذات أهمية تخص الحكومة والدولة، وأخذ برأيهم. وكان الهدف من هذا هو أن يعرف عامة المسلمين أنه يجب أخذ الرأي والمشورة في أمور الإدارة، حتى يَسْهُل الوصول إلى نتيجة مفيدة ومناسبة تماما، وإلا لم يكن النبي (ﷺ) في ظاهر الأمر في حاجة إلى مثل هذه المساعدة.

حين هاجر المسلمون إلى المدينة، وازداد عددهم بها، وبدأت الصلاة تُؤدى في جماعة فواجهتهم أول عقبة وهي أنه كيف يمكن جمع عامة المسلمين في مسجد واحد ؟ ولم ينزل وحي على الرسول (ﷺ) في هذا، لذا استشار النبي (ﷺ) صحابته الكرام في هذا الأمر فأشار عليه (ﷺ) البعض باستخدام البوق

والناقوس كما هو الحال عند اليهود والنصارى، وأشار إليه (ﷺ) البعض الآخر برفع علم في المسجد وقت الصلاة (حتى يراه الناس)، ولكن النبي (ﷺ) لم يعمل بأي رأي منهما. وفي نهاية الأمر أشار عمر (ﷺ) عنه بأن يُرسل رجل وينادي بالصلاة، ففضل النبي (ﷺ) رأيه، وأمر بلال (ﷺ)، فنادى بالصلاة جامعة، ثم بعدها بيوم أُريت للنبي (ﷺ) ألفاظ الآذان (كما هي عليه الآن) في رؤياه.[1] كما

---

[1] ورد في مصنف عبد الرازق، وطبقات ابن سعد، وكتاب المراسيل لأبي داود، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني، وروض الأنف للسهيلي، والزرقاني على المواهب، والنووي (شرح مسلم، باب بدء الآذان) والنووي: **فشرعه النبي (ﷺ) بعد ذلك إما بوحي أو باجتهاده (ﷺ) على مذهب الجمهور في جواز الاجتهاد له (ﷺ) وليس هو عملا بمجرد المنام هذا ما لا يُشك فيه بالاختلاف.** وهذا نص الحديث كاملا كما ورد فى باب بدء الأذان، كتاب الصلاة، صحيح مسلم: (٧٨٨) حدثنا إِسْحٰقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ: حَدَّثَنَا مُحمَّدُ بْنُ بَكْرٍ. ح وَحَدَّثَنَا مُحمَّدُ بْنُ رافِعٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ. كمن قَالاَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ. ح وَحَدَّثَنِي هَرُونُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ وَاللَّفْظُ لَهُ قَالَ: حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مُحمَّدٍ. قَالَ: قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي نَافِعٌ مَوْلَى ابْنِ عُمَرَ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ، أَنَّهُ قَالَ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ، فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلَوَاتِ، وَلَيْسَ يُنَادِي بِهَا أَحَدٌ، فَتَكَلَّمُوا يَوْماً فِي ذَلِكَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اتَّخِذُوا نَاقُوساً مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَرْناً مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ. فَقَالَ عُمَرُ: أَوَلاَ تَبْعَثُونَ رَجُلاً يُنَادِي بِالصَّلاَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «يَا بِلاَلُ قُمْ. فَنَادِ بِالصَّلاَةِ». **(المترجم).** وورد فى سنن الترمذي، كتاب الصلاة، باب بدء الأذان: (١٩٠) حدثنا أَبُو بَكْرٍ (بْنُ النَّضْرِ) بْنِ أَبِي النَّضْرِ حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنَا نَافِعٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: «كَانَ الْمسْلمُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلَوَاتِ، وَلَيْسَ يُنَادِي بِها أَحَدٌ، فَتَكَلَّمُوا يَوْماً فِي ذَلِكَ، فقَالَ بَعْضُهُمْ: اتخذُوا ناقوساً مِثْلَ ناقوسِ النَّصَارَى، وقَالَ بَعْضُهُمْ: اتّخِذُوا قَرْناً مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ، قال: فَقَالَ عُمَرُ (بْنُ الْخَطَّابِ): أَوَلاَ تَبْعَثُونَ رَجُلاً يُنَادِي بِالصَّلاَةِ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسولُ الله: يا بِلاَلُ، قُمْ فَنَادِ بالصَّلاةِ».

رأى بعض الصحابة مثل هذه الرؤيا أيضا وجاءوا إلى النبي وقصوها عليه، لذا أمر النبي (ﷺ) بلالا (رضي الله عنه) بأن ينادي للصلاة بهذه الألفاظ.[1]

حين خرج جيش المسلمين في غزوة بدر من المدينة ووصلوا على مقربة من ميدان الحرب فاستشار النبي (ﷺ) الصحابة عن مواجهة العدو من عدمه. فأبدى مهرة الحرب من الصحابة كل عن رأيه واحد تلو الآخر حتى نهض قائد[2]، وقال: يا رسول الله، لن نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب

قَالَ أَبُو عِيسَى: هٰذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ. **(المترجم).**

[1] أبو داود والترمذي، باب بدء الآذان. وهذا نص الحديث: (١٨٩) حدَّثَنا سعيدُ بنُ يَحْيَى بْن سعيدِ الأُمويّ حدَّثَنا أَبِي حدَّثنا محمدُ بنُ إسْحَاقَ عَنْ محمدِ بْن إبْراهِيمَ (بْن الحَارِثِ) التَّيمِيِّ عَنْ محمدِ بْن عبْدِ الله بْن زَيدٍ عنْ أَبيه، قَالَ «لَمَّا أَصْبَحْنَا أَتَيْنَا رسول الله، فَأَخْبَرْتُهُ بالرّؤْيا، فَقالَ: إنَّ هٰذِهِ لَرُؤْيَا حَقٌّ، فَقُمْ مَعَ بلالٍ، فَإِنَّهُ أَنْدَى وَأَمَدُّ صَوتاً مِنْكَ، فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا قِيلَ لَكَ، وَلْيُنَادِ بِذَلِكَ، قَالَ: فلمَّا سَمِعَ عُمَرُ بنُ الْخَطابِ نِدَاءَ بلالٍ بالصَّلاةِ خَرَجَ إِلَى رَسولِ الله، وَهُوَ يَجرُّ إِزَارَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، وَالذي بَعَثَكَ بالْحَقِّ، لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ الْذي (قَالَ)، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله: فلِلَّهِ الْحَمْدُ، فَذَلِكَ أَثْبَتُ».

(قَالَ): وَفي الْبَابِ عَنِ ابنِ عُمَرَ. قَالَ أبو عيسَى: حَدِيثُ عبدِ الله بنِ زَيْدٍ (حَدِيثٌ) حسَنٌ صحيحٌ.

وَقَدْ رَوَى هٰذَا الْحَدِيثَ، إِبْراهِيمُ بنُ سَعْدٍ عَنْ محمدِ بن إِسْحَاقَ أَتَمَّ مِنْ هٰذَا الْحَدِيثِ وَأَطولَ، وَذَكَرَ فِيهِ قِصَّةَ الأذَانِ مَثْنَى مَثْنَى وَالاقَامَةَ مَرَّةً (مَرَّةً).

وَعَبْدُ الله بْنُ زَيْدٍ هُوَ ابنُ عَبْدِ ربِّه، (وَيُقَالُ ابْنُ عَبْدِ ربٍّ).

وَلاَ نَعْرِفُ لَهُ عن النبيِّ شَيْئاً يَصِحُّ إلاَّ هٰذَا الْحَدِيثَ الْوَاحِدَ فِي الآذَانِ».

وَعَبْدُ الله بْنُ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ الْمَازِنيُّ لَهُ أَحَادِيث عن النبي، وَهُوَ عَمُّ عَبَّادِ بنِ تَميم. **(المترجم).**

[2] سعد بن عبادة (سيد الخزرج) **(المترجم).**

أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. فوالله لو تأمرنا بخوض البحر لخضناه. حين تقدم إلى ميدان المعركة بعد ذلك، فوصل إلى مكان وأراد أن ينزل (الجيش) في هذا المكان، فقال له صحابي خبير بأمور الحرب: يا رسول الله، هل تريد إنزال الجيش في هذا المكان تنفيذاً لأمر إلهي أم هذا هو رأيك؟ قال الرسول (ﷺ): "بل هو الرأي" (أي رأيي). فقال له: يا رسول الله يجب أن ننزل في مكان ببدر تكون فيه المياه تحت سيطرتنا. ففضل النبي (ﷺ) هذا الرأي، وعمل به، وذهب إلى هذا المكان ونزل به.[1]

حين عُرض على النبي (ﷺ) أسرى بدر فاستشار النبي (ﷺ) صحابته جميعا عما يفعل فيهم، فأبدى الصحابة آراء مختلفة في السلوك الذي يُتبع في هؤلاء الأسرى، وأخذ النبي (ﷺ) برأي أبي بكر رضي الله عنه وهو أخذ الفدية منهم وإطلاق سراحهم.[2]

وفي غزوة أحد استشار النبي (ﷺ) أصحابه في هل يخرج الجيش ويقابل الأعداء خارج المدينة أم يبقى داخل المدينة ويدافع عنها؟ فأشار عبد الله بن أبي بن سلول المنافق ببقاء الجيش في المدينة ويقابل العدو في حواريها وزقاقها ولكن أشار الصحابة بالخروج من المدينة ومواجهة العدو خارجها. وهو الرأي الذي أخذ به النبي (ﷺ).

---

[1] وهذا نص الرواية كما وردت في سيرة ابن هشام، ج ٢ صـ ١٠ " قال الحباب بن المنذر للرسول ﷺ: أرأيت هذا المنزل أ منزلاً أنزلكه الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال النبي ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال الحباب: يا رسول الله انهض بالناس حتى نأتي على بئر ونخرب ماعداه من الآبار الأخرى." **(المترجم)**.

[2] الترمذي، صـ٥٠٣، كتاب التفسير، سورة الأنفال.

حين جاء وفد قبيلة هوازن في غزوة حنين إلى النبي (ﷺ) وطلبوا رد الغنائم والأسرى التي حصل عليها المسلمون منهم، فأخبرهم النبي (ﷺ) بأنه لا يمكن لهم أن يردوا الأسرى والغنائم، ولكن عليهم أن يختاروا رد أحدهما، ففضلوا أن يردوا أسراهم، وقبل النبي (ﷺ) طلبهم. ورغم أنه لم يكن لأي أحد أن يعص أمر رسول الله؛ إلا أنه (ﷺ) جمع سائر الصحابة وخطب فيهم، ثم قال: «أما بعدُ فإِنَّ إخوانكم قد جاءونا تائبين، وإني قد رأيتُ أن أرُدَّ إليهم سَبيَهم، فمَن أحبَّ منكم أن يُطيِّبَ ذلك فلْيَفعلْ. ومَن أحب منكم أن يكونَ على حَظِّهِ حتى نُعطيَهُ إيّاهُ من أوَّلِ ما يُفِيءُ اللَّهُ علينا فلْيَفعلْ.»؛ فقال الناسُ: قد طيَّبْنا ذلك يا رسولَ الله. ولكن النبي (ﷺ) اعتبر أن إبداء رأيهم بهذه السرعة ليس كافيا، وقال ﷺ: إنّا لا ندري مَن أذِنَ منكم في ذلك ممَّن لم يَأذن، فارجِعوا حتى يَرفَعَ إلينا عُرَفاؤكم أمركم. فرجعَ الناس، فكلَّمهم عُرَفاؤهم، ثمَّ رجعوا إلى رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فأخبَرُوهُ أنهم قد طَيَّبوا وأذِنوا.[1]

---

[1] أبو داود، كتاب الجهاد، وصحيح البخاري، كتاب المغازي، باب ويوم حنين: (٤٢١٦) حدَّثنا سعيدُ بنُ عُفَير حدَّثني الليثُ بن سعدٍ حدثني عُقَيل عنِ ابن شهابٍ ح. وحدَّثني إسحاقُ حدَّثنا يعقوبُ بن إبراهيمَ حدَّثنا ابنُ أخي ابن شهابٍ قال محمدُ بن شهابٍ: وزعمَ عروةُ بن الزُّبير أن مروانَ و المسوَرَ بن مخرمةَ أخبراهُ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قام حينَ جاءهُ وفد هوازنَ مسلمينَ فسألوه أن يَرُدَّ إليهم أموالهم وسَبْيَهم، فقال لهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: معي مَن تَرَونَ، وأحَبُّ الحديثِ إليَّ أصدَقُهُ، فاختاروا إحدى الطائفتينِ: إمّا السَّبيَ، وإما المالَ. وقد كنتَ استأنيتُ بكم ـ وكان أنظَرَهم رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بضعَ عشرةَ ليلةً حين قَفَلَ منَ الطائف ـ فلما تبينَ لهم أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم غيرُ رادٍّ إليهم إلاّ إحدى الطائفتَين قالوا: فإنّا نختارُ سَبيَنا، فقامَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهْلُهُ، ثم قال: أما بعدُ فإنَّ إخوانكم قد جاءونا تائبين، وإني قد رأيتُ أن أرُدَّ إليهم سَبيَهم، فمَن أحبَّ منكم أن يُطيِّبَ ذلك فلْيَفعلْ. ومَن أحب منكم أن يكونَ على حَظِّهِ حتى نُعطيَهُ إيّاهُ

حين تُستقصى كتب الأحاديث النبوية، فتتضح أمثلة أخرى كثيرة، يثبت منها أن النبي (ﷺ) كان يستشير أصحابه في الشئون الإدارية للدولة، وكان يأخذ بمشورتهم، ويعمل بها حين كانت توافقه.

وهذه فائدة أخرى أضافَها الإسلام على قيام السلطنة وتشكيل دستورها وهي أنه جعل السلطنة دينا وعبادة فقد كان الحكم (قبل ذلك) يمتلئ بالظلم والجور والتعدي والمؤامرات والمكائد والمكر والخداع والوحشية، وكان يُعتقد بأن كل الذنوب والآثام ثواب وصحيحة في طريق السياسية أما التعليم الإسلامي فقد طهَّرها (السلطنة والسياسة) وجعلها ظل العرش. فقد روي عن كثير من الصحابة في أحاديث أن:

«السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباد الله».[1]

من أوّلِ ما يُفِيءُ اللَّهُ علينا فلْيَفعلْ. فقال الناسُ: قد طيَّبْنا ذلك يا رسولَ الله. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: إنّا لا ندري مَن أذِنَ منكم في ذلك ممَّن لم يَأذن، فارجِعوا حتى يَرفَعَ إلينا عُرَفاؤكم أمرَكم. فرجعَ الناس، فكلَّمهم عُرَفاؤهم، ثمَّ رجعوا إلى رسولِ اللَّـهِ صلى الله عليه وسلم فأخبَرُوهُ أنهم قد طَيَّبوا وأذِنوا. هذا الذي بلغني عن سَبيِ هوازِنَ». (المترجم).

[1] روى هذا الحديث كأثر بروايات مختلفة، فروى عن أبي هريرة في ابن النجار، وعن ابن عمر رضي الله عنهما في البيهقي والحاكم، وعن أبي بكر في ابن أبي شيبة، ولم يرفع إلى النبي (ﷺ)، ويبدو أنه من أقوال هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم. للمزيد أرجع إلى "المقاصد الحسنة" للسخاوي، و"كشف الخفاء ومزيل الالتباس" لعطاء الحلبي، مادة سلطان. ويجب أن نذكر هنا أن لفظ السلطان في اللغة العربية قديما لم يكن يعني الملك بل كان يعني الطاقة والقوة، والتي تعني في الإنجليزي (Power)، كما يرادف الحكومة. ومن ثم فإن هذا الحديث لا يعني أن الملك أو السلطان ظل الله في الأرض، بل يعني أيضا ظل الله على عمال الحكومة باعتبارهم ممثلين عن الحكومة، أما إطلاق

ويقول أبو بكر الصديق: **السلطان العادل للتواضع ظل الله ورمحه في الأرض.**[1]

وقال النبي (ﷺ)«سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظِلُّهُ: الإمَامُ العادِلُ.[2]

إن من يقوم بأعمال السلطنة والدولة بكل الخير والأخلاق الكريمة سينال ثواب حسن عمله هذا، مثلما يناله على عباداته الأخرى، وكأن الحكومة والرياسة عبادة أيضا.

ونتج عن هذه التعليمات أن أصبحت السلطنة عبادة، وقضت السياسية الإسلامية على كل أنواع الزندقة والخيانة والخداع والمكر والمكيدة والتعدي والظلم. عقد الأمير معاوية (ﷺ) إبَّان فترة حكمه معاهدة صلح مع الروم لفترة معينة، ولكنه في هذه الفترة جمع قواته على الحدود بنية الهجوم على الروم

السلطان فيكون كما ورد في الحديث الشريف: **السلطان ولي من لا ولي له.** فالمقصود بالسلطان هنا السلطنة، لذا يُطلق على أي ممثل لها مثل القاضي والحاكم والوالي سلطان. وبدأ يُستخدم هذا اللفظ دلالة على السلطان غالبا في القرن الرابع الهجري منذ عهد السلطان محمود.

(1) المرجع السابق.

(2) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في البخاري، الكتاب الآذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد: (٦٥١) حدثنا محمدٌ بن بَشّارٍ قال: حدَّثنا يحيىٰ عن عُبيدِ اللهِ قال: حدَّثني خُبَيبُ بنُ عبدِالرحمٰنِ عن حفصِ بنِ عاصمٍ عن أبي هريرة عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: الإمَامُ العادلُ، وشابٌّ نَشأَ في عِبادةِ ربِّه، ورجلٌ قلبُه مُعلَّقٌ في المساجد، ورَجُلانِ تَحابّا في اللهِ اجتَمَعا عليه وتَفرَّقا عليه، ورجلٌ طَلَبَتهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصبٍ وجمال فقال: إني أخافُ اللهَ، ورجلٌ تَصدَّقَ أخفىٰ حتى لا تَعلمَ شِمالُه ما تُنفِقُ يمينُه، ورَجُلٌ ذكرَ اللهَ خالياً ففاضَتْ عيناه». (المترجم).

بمجرد انتهاء المدة. واعترض على تدبيره هذا صحابي جليل كان شريكا في هذا الجيش وقال له: إن نبينا (ﷺ) قد اعتبر هذا نقضاً للعهد، والذي يجب على المسلمين الابتعاد عنه تماما. وبمجرد أن سمع معاوية (ﷺ) هذا أمر بانسحاب قواته. (١)

كانت كل الدول والممالك تفرض ضرائب ورسوم مرور وخراج، ولو أن الحكام يتساهلون في هذا الأمر ولو قليلا ولا يهتمون به خير الاهتمام لخلت خزانة السلطنة فجأة، وحين يُقدم المجرم للعدالة فلا يبدو له شعاع الرحمة في نظرات الحكام الغاضبة، ويعتقد أنه فرض عليه أن يستفيد من كل نوع من أنواع الخداع والمكر والحيلة والكذب حتى يُثبت براءته، ولا يوجد أي فرق في هذا بين الحكومة الشخصية (الملكية) أو الجمهورية بل ستتضح هذه النتائج متساوية في كلا النوعين من الحكم.

واليوم ارتقت أوربا رقيا ظاهريا كبيراً في الحضارة والمدنية، وانتشر التعليم بين الناس، وأصبح كل فرد واقفا على رموز وأمور السياسية، وسُلِّم بحق الجمهور في السلطنة والحكم، ولكن في الوقت ذاته لو تتساهل السلطنة (الدولة) تساهلا قليلاً في الأمور، فلا يُوجد أي فرد لديه استعداد لأداء ضرائب الدولة برضا، ويكون هذا هو حال المجرمين، فأحيانا يختفون بعد ارتكاب جرمهم، وأحيانا ينفقون مئات الآلاف من الأموال من أجل النجاة من عقوبة الجريمة. ورغم هذا فإن حال المجرمين في أوروبا أفضل بكثير من حال غيرهم في البلاد الأخرى، ويعاقب المجرم من أجل الإصلاح الأخلاقي فقط، ولكن بالرغم من هذا فلا يعترف أي أوروبي بجريمته بصدق، بل يغلب عليه في الحديث عنها كذبا

---

(١) صحيح البخاري، باب فضل من ترك الفواحش.

عنصر الجرأة والشجاعة بدلا من الخجل والندم، ويعدون هذا من خيرات ونتائج الجمهورية والحرية. ولكن حين يقوم نظام أي سلطنة أو حكم على المبادئ والضوابط الأخلاقية، فيختلف حاله عن هذا اختلافا كليا، إذ يعتقد كل فرد أن كل أحكام السلطنة موجبة للثواب والعقاب شأنها شأن الفروض والتعليمات الدينية، لذا فهو ينفذها دون جبر أو إكراه. ويمكن أن تظهر هذه النتيجة نتيجة للأخلاق والروحانيات فقط، وكان نظام الحكم والسلطنة الإسلامية يقوم على هذا المبدأ والضابط الأخلاقي ذاته، كما كانت تتضح نتيجته مثل هذه النتيجة نفسها. كانت الزكاة والصدقة شيئا جديداً تماما على العرب، وكان أدائها صعب عليهم بسبب الفقر والإفلاس، فقد كانت الصدقة والزكاة من بين أمور الإسلام الصعبة التي اشتكى منها محمد بن مسلمة في قتل كعب بن الأشرف.[1] ورغم أنه كان هناك

---

[1] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في البخاري، كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف. (٣٩٤٩) حدَّثنا عليُّ بن عبدِ اللّه حدَّثنا سفيانُ قَالَ عمرٌو سمعتُ جابرَ بن عبدِ اللّه رضيَ اللّه عنهما يقول: «قال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: مَن لكعبِ بن الأشرف؟ فإنه قد آذى اللّهَ ورسولَه. فقام محمدُ بن مَسلمةَ فقال: يا رسولَ اللّه، أتحبُّ أن أقتُلَه؟ قال: نعم. قال: فأْذنْ لي أن أقولَ شيئاً. قال: قل. فأتاهُ محمدُ بن مَسلمةَ فقال: إنَّ هذا الرجلَ قد سألَنا صَدَقةً، وإنه قد عَنّانا، وإني قد أتيتُكَ أستَسلِفُك. قال: وأيضاً واللّهِ لتملُّنَّه. قال: إنا قد اتبَعْناهُ، فلا نحبُّ أن نَدَعَهُ حتىٰ ننظرَ إلى أيِّ شيءٍ يصيرُ شأنه، وقد أردْنا أن تُسلِفَنا وَسقاً أو وَسقَين ــ وحدَّثنا عمرٌو غيرَ مرَّة فلم يذكر «وسقاً أو وَسقين» أو فقلت له: فيه «وسقاً أو وسقين»؟ فقال: أرى فيه «وسقاً أو وسقين» ــ «فقال: نعم؛ ارهَنوني. قالوا: أيَّ شيءٍ تريد؟ قال: ارهنوني نساءكم. قالوا: كيف نَرهنُكَ نساءَنا وأنتَ أجملُ العرب؟ قال: فارهنوني أبناءَكم. قالوا: كيف نرهنُكَ أبناءَنا فيُسَبُّ أحدُهم فيقال: رُهنَ بوسق أو وسقَين، هذا عارٌ علينا، ولكنّا نرهَنك اللأمةَ. قال سفيانُ: يعني السلاحَ. فواعَدَه أن يأتيَه. فجاءهُ ليلاً ومعه أبو نائلةَ ــ وهو أخو كعب منَ الرضاعة ــ فدعاهم

عمال معنيون لجمع الزكاة والصدقات في عهد النبي (ﷺ)؛ إلا أنه لم يكن لها إدارة أو مكتبا معينا. ولو أنه في هذه الحالة أقيمت سلطنة دنيوية في بلاد العرب على أساس جمهوري لواجهت صعاب غير عادية في جمع الزكاة والصدقة. ونتج عن الأثر الأخلاقي لسلطنة ونظام الحكم الإسلامي أن كل فرد وكل قبيلة كانت تأتي بنفسها إلى النبي (ﷺ) وتقدم صدقتها أو زكاتها، ثم تعود بعد أن تحصل على دعاء النبي (ﷺ) بالخير والبركة. رُوي عن عبد الله بن أبي أوفى في صحيح البخاري:

كان رسول الله (ﷺ) إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: "اللهم صل على آل فلان" فأتاه أبي بصدقته فقال: "اللهم صل على آل أبي أوفى" (البخاري، كتاب الزكاة، صـ ٢٠٣).

إلى الحصن فنزل إليهم فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة وقال غير عمرو: قالت أسمعُ صوتاً كأنهُ يَقطُرُ منه الدَّم. قال إنما هو أخي محمدُ بن مَسلمةَ ورضيعي أبو نائلة، إنَّ الكريمَ لو دُعِيَ إلى طعنةٍ بليلٍ لأجاب. قال: ويُدخِلُ محمدُ بن مَسلمةَ معهُ رجلَين — قيل لسفيانَ: سماهم عمرٌو؟ قال: سَمى بعضهم. قال عمرٌو: جاء معه برجلَين، وقال غيرُ عمرو: أبو عَبسِ بن جَبر والحارثُ بن أوسٍ وعبّادَ بن بشر — قال عمرٌو جاء معه برجلَين فقال: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشُمه، فإذا رأيتموني استمكَنْتُ من رأسه فدونكم فاضربوه. وقال مرَّةً: ثم أُشِمُكم. فنزلَ إليهم متوشِّحاً وهو ينفَحُ منه ريحُ الطيب فقال: ما رأيتُ كاليوم رِيحاً — أي أطْيبَ — وقال غيرُ عمرو: قال عندي أعطرُ نساءِ العرب وأكملُ العرب. قال عمرٌو فقال أتأذنُ لي أن أشَمَّ رأسَك؟ قال: نعم. فشمَّهُ، ثم أشَمَّ أصحابَه ثم قال: أتأذنُ لي؟ قال: نعم. فلما استمكَنَ منهُ قال: دونَكم. فقتَلوه. ثمَّ أتَوُا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبروه». (المترجم).

كان عدي بن حاتم سيد قبيلة طي، وكان يحصل على المرباع من قومه[1] - والذي كان يُعتقد في العرب قبل الإسلام بأنه حق لسادة قريش - ولكن حين دخل الإسلام فكان أول من جاء إلى النبي (ﷺ) وقدم صدقة قبيلتــه. ورد فـي صحيح مسلم أنه ذات مرة جاء عدي بن حاتم إلى سيدنا عمر (ﷺ) فقال عمــر مشيراً إليه:

إن أول صدقة بيضت وجه رسول الله (ﷺ) ووجوه الصحابة صدقة طي جئت بها (صحيح مسلم، ج ٢، كتاب الفضائل).

وحين جاءت قبيلة بنو تميم بصدقتها إلى النبي (ﷺ) فقال:

«هَـٰذِهِ صَدَقَاتُ قَوْمِنَا».[2]

أما عن حالة الأفراد فقد كانت أكثر عجبا من هذا، فيروى سيدنا عبد الله بن مسعود (ﷺ) أنه حين أمر النبي بالصدقة، فذهبنا إلى الأسواق نحمل الأثقــال ونتصدق بما نأخذه من أجرة على هذا.[3]

---

[1] المرباع: هو ربع ما تنتجه القبيلة، وكان يُعطى سيد القبيلة طواعية إذ كان يُعتقد فــي العرب قبل الإسلام أن ربع إنتاج القبيلة حق لسيد القبيلة. (المترجم).

[2] صحيح مسلم، ج٢، كتاب الفضائل. وهذا نص الحديث: (٦٤٠٣) حدثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيد. حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ مُغِيرَةَ عَنِ الْحَارِثِ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ قَالَ: قَالَ أَبُــو هُرَيْــرَةَ، : لاَ أَزَالُ أُحِبُّ بَنِي تَمِيمٍ مِنْ ثَلاَثٍ. سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللّهِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: «هُمْ أَشَــدُّ أُمَّتِي عَلَىٰ الدَّجَّالِ» قَالَ: وَجَاءَتْ صَدَقَاتُهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ: «هَـٰذِهِ صَدَقَاتُ قَوْمِنَــا» قَــالَ: وَكَانَتْ سَبِيَّةٌ مِنْهُمْ عِنْدَ عَائِشَةَ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «أَعْتِقِيهَا فَإِنَّهَا مِنْ وَلَــدِ إِسْـمَاعِيلَ». (المترجم).

[3] صحيح البخاري، ج ١، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة، وكتاب الإجــارة، باب من أجر نفسه. وهذا نص الحديث كما رواه أبو مــسعود ﷺ: (٢٢٣٩) حــدثني سعيدُ بنُ يحيى بنِ سعيدٍ القُرَشيّ حدثنا أبي حدَّثنا الأعمشُ عن شقيقٍ عن أبي مــسعود

أما عن الجرائم فهي لم تنتهي تماما، ولكنها وصلت إلى درجة وكأنها تحاكي عدم وجودها، والأكثر من هذا هو أن من كان يرتكبها كان يضاء قلبه بنور الإيمان بمجرد الوعي من نشوة الجريمة، ويبقى مضطربا منزعجا حتى يغتسل من هذا الذنب، فإن بعض الصحابة رضوان الله عليهم الذين جاءوا إلى النبي (ﷺ) يعترفون بصدق جرائمهم ولا يوجد لهذا مثال في تاريخ أديان العالم. إن العقوبات الصارمة التي حددها الإسلام مثل قطع اليد في حد السرقة، والجلد أو الرجم عقوبة للزنا فيها حكمة الإلهية، وهذه الحكمة الإلهية هي التي تبعث في الناس رغبة الاعتراف بالذنب، فكان المجرم يأتي بنفسه ويعترف بذنوبه، ويطلب إقامة الحد عليه.

كان ماعز بن مالك صحابيا، واقترف جريمة الزنا مع أمة. وحين أفاق من نشوته جاء إلى النبي (ﷺ) وأعلن عن هذا الذنب بنفسه، فقالَ: يَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم إنِّي زَنَيْتُ فأقِمْ عَلَيَّ كِتَابَ الله، فأَعْرَضَ عَنْهُ، فَعَادَ فقالَ يَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم إنِّي زَنَيْتُ فأَقِمْ عَلَيَّ كِتَابَ الله، حَتَّى قالهَا أَرْبَعَ مَرار قَالَ صلى الله عليه وسلم: إنَّكَ قَدْ قُلْتَهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فَبِمَنْ؟ قال: بِفُلاَنَةَ. قال: هَلْ ضَاجَعْتَهَا؟ قال: نَعَمْ. قال: هَلْ بَاشَرْتَهَا؟ قال: نَعَمْ. قال: هَلْ جَامَعْتَهَا؟ قال: نَعَمْ. قال: فأَمَرَ بِهِ أَنْ يُرْجَمَ، فأُخْرِجَ بِهِ إلَى الْحَرَّةِ، فلمَّا رُجِمَ فَوَجَدَ مَسَّ الحِجَارَةِ جَزِعَ فَخَرَجَ يَشْتَدُّ فَلَقِيَهُ عَبْدُ الله بنُ أُنَيْسٍ وَقَدْ عَجَزَ أَصْحَابُهُ، فنَزَعَ لَهُ بِوَظِيفِ بَعِيرٍ فَرَمَاهُ بِهِ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ أَتَى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ فقال: هَلاَّ تَرَكْتُمُوهُ لَعَلَّهُ أَنْ يَتُوبَ فَيَتُوبَ الله عَلَيْهِ». [1]

الأنصاريِّ رضيَ اللهُ عنه قال «كانَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إذا أمرَ بالصدقة انطلقَ أحدُنا إلى السوق فيُحاملُ، فيُصيبُ المُدَّ، وإنَّ لبعضِهم لمائةَ ألفٍ. قال: ما نراهُ يَعْنِي إلاَّ نفسَهُ» (المترجم).

(١) سنن أبي داود، ج ٢، ص ١٤٥، وصحيح البخاري، كتاب الحدود. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (٤٤١٤) حدثنا مُحمَّدُ بنُ سُلَيْمانَ الأنْبَارِيُّ أخبرنا وَكِيعٌ

وبسبب هذه الواقعة أضيفت مادة جديدة في قانون العقوبات وهي لو أن أي مذنب يلقى عقابه بناء على اعترافه هو بنفسه بذنبه، ويريد الفرار أثناء إقامة الحد فيعتبر بأن فراره رجوع عن الاعتراف والإقرار بالذنب، ويُعفى عما بقى من عقوبته، ويفوض أمره إلى الله تعالى.

يذكر أنه كان هناك شاب اقترف هذا الذنب وهو في حالة مرض شديد، ولم يراه أحد، ولكنه أقر بذنبه هذا بنفسه لممرضيه، وقال لهم: اذهبوا إلى رسول الله واسألوه الفتوى عني، فعُرضت الفتوى على النبي (ﷺ)، واقترح النبي (ﷺ) عقوبة بسيطة بسبب مرض هذا الشاب الشديد.[1]

عن هِشَامِ بنِ سَعْدٍ قال حدَّثني يَزِيدُ بنُ نُعَيْمِ بنِ هَزَّالٍ عن أبيهِ، قال: «كَانَ مَاعِزُ بنُ مَالِكٍ يَتِيماً في حِجْرِ أَبِي فأَصَابَ جَارِيَةً مِنَ الْحَيِّ فقالَ لَهُ أَبِي: ائْتِ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فأَخْبِرْهُ بِمَا صَنَعْتَ لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ لَكَ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ بِذَلِكَ رَجَاء أَنْ يَكُونَ لَهُ مَخْرَجاً. قال: فأَتَاهُ فقالَ يَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم إنِّي زَنَيْتُ فأقِمْ عَلَيَّ كِتَابَ الله، فأَعْرَضَ عَنْهُ، فَعَادَ فقالَ يَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم إنِّي زَنَيْتُ فأَقِمْ عَلَيَّ كِتَابَ الله، حَتَّى قالَهَا أَرْبَعَ مَرار قالَ صلى الله عليه وسلم: إنَّكَ قَدْ قُلْتَهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فَبِمَنْ؟ قال: بِفُلاَنَةَ. قال: هَلْ ضَاجَعْتَهَا؟ قال: نَعَمْ. قال: هَلْ بَاشَرْتَهَا؟ قال: نَعَمْ. قال: هَلْ جَامَعْتَهَا؟ قال: نَعَمْ. قال: فأَمَرَ بِهِ أَنْ يُرْجَمَ، فأُخْرِجَ بِهِ إِلَى الْحَرَّةِ، فَلَمَّا رُجِمَ فَوَجَدَ مَسَّ الحِجَارَةِ جَزِعَ فَخَرَجَ يَشْتَدُّ فَلَقِيَهُ عَبْدُ الله بنُ أُنَيْسٍ وَقَدْ عَجَزَ أَصْحَابُهُ، فنَزَعَ لَهُ بِوَظِيفِ بَعِيرٍ فَرَمَاهُ بِهِ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ فقال: هَلاَّ تَرَكْتُمُوهُ لَعَلَّهُ أَنْ يَتُوبَ فَيَتُوبَ الله عَلَيْهِ». (المترجم).

[1] سنن أبي داود، باب في إقامة الحد على المريض. وهذا نص الحديث كاملا: (٤٤٦٦) حدثنا أَحْمَدُ بنُ سَعِيدٍ الهَمْدَانيُّ أخبرنا ابنُ وَهْبٍ أخبرني يُونُسُ عن ابنِ شِهَابٍ أخبرني أَبُو أُمَامَةَ بنُ سَهْلِ بن حُنَيْفٍ، : «أَنَّهُ أَخْبَرَهُ بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم مِنَ الأَنْصَارِ أَنَّهُ اشْتَكَى رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتى أُضْنِيَ فَعَادَ جِلْدَةً لا عَلَى عَظْمٍ فَدَخَلَتْ

وهذه واقعة الصحابي كعب بن عمرو الذي جاء إلى النبي (ﷺ) وقال: يا رسول الله؛ لقد استمتعت بامرأة أجنبية من الخارج ولم أضاجعها وهاأنذا المذنب، أقم عليَّ حد الله.[1]

عَلَيْهِ جَارِيَةٌ لِبَعْضِهِمْ فَهَشَّ لَها فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ رِجَالُ قَوْمِهِ يَعُودُونَهُ أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ وَقَالَ اسْتَفْتُوا لِي رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فإنِّي قَدْ وَقَعْتُ عَلَى جَارِيَةٍ دَخَلَتْ عَلَيَّ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مِنَ الضُّرِّ مِثْلَ الَّذِي هُوَ بِهِ لَوْ حَمَلْنَاهُ إِلَيْكَ لَتَفَسَّخَتْ عِظَامُهُ، ما هُوَ إلاَّ جِلْدٌ عَلَى عَظْمٍ، فَأَمَرَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أَنْ يَأْخُذُوا لَهُ مَائَةَ شِمْرَاخٍ فَيَضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَةً وَاحِدَةً». (المترجم).

(1) المرجع السابق، يصيب الرجل دون الجماع،وهذا نص الحديث كاملا: (٤٤٦٢) حدثنا مُسَدَّدُ بنُ مُسَرْهَدٍ أخبرنا أَبُو الأَحْوَصِ أخبرنا سِمَاكٌ عن إبراهِيمَ عن عَلْقَمَةَ وَالأَسْوَدِ قالاَ قالَ عَبْدُ الله، : «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فقالَ: إنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ فأَصَبْتُ مِنْهَا ما دُونَ أنْ أَمَسَّهَا فأَنَا هَذَا فأَقِمْ عَلَيَّ ما شِئْتَ، فقالَ عُمَرُ: قَدْ سَتَرَ الله عَلَيْكَ لَوْ سَتَرْتَ عَلَى نَفْسِكَ، فلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم شَيْئاً، فانْطَلَقَ الرَّجُلُ فتبعَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم رَجُلاً فَدَعَاهُ فتَلاَ عَلَيْهِ: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ} إِلَى آخرِ الآيَةِ، فقالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: يَا رَسُولَ الله أَلَهُ خَاصَّةً أَمْ لِلنَّاسِ؟ فقالَ: للنَّاسِ كَافَّةً».(المترجم) وصحيح البخاري، كتاب الحدود، وهذا نص الحديث كاملا: (٦٦٧٥) حدَّثنا عبدُ القدوسِ بنُ محمد حدَّثني عمرو بن عاصم الكلابي حدَّثنا همام بن يحيى حدَّثنا إسحاقُ بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنت عندَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فجاءه رجلٌ فقال: يا رسولَ الله إني أصَبت حدّاً فأقمهُ عليَّ، قال: ولم يسأله عنه، قال: وحضرَتِ الصلاة فصلى معَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فلما قَضى النبي صلى الله عليه وسلم الصلاةَ قام إليه الرجل فقال: يا رسولَ الله إني أصَبت حدّاً فأقِمْ فيَّ كتابَ الله. قال: أليس قد صلَّيتَ معنا؟ قال: نعم. قال: فإن الله قد غفرَ لك ذنبَك، أو قال: حَدَّك». (المترجم).

بعد غزوة حنين بينما أخذ ينتشر حكم الإسلام في هذه الأماكن قتل حبشي يدعى محلم رجلا من قبيلة أشجع، جاء مناصرو ورئيسا كلاهما إلى النبي (ﷺ)، وأرادوا الفصل في الأمر، وأراد النبي (ﷺ) حسب عادته الشريفة أداء الدية، ولكن أحد الفريقين أصر على القصاص، وأنكر الفريق الثاني، وبلغ النقاش بينهما حتى علت أصواتهما، فوقف رجل وقال: يا رسول الله؛ هذه هي بداية حكم الإسلام[1]، ولا يجب مثل هذا التساهل حتى يخف الناس منذ البداية. ولكن النبي أكد على أخذ الدية، وهنا تقدم القاتل وقدم نفسه بنفسه وقال: يا رسول الله؛ لقد وقع هذا الذنب مني، فادع الله تعالى أن يغفر لي.[2]

---

[1] في هذه المناطق المفتوحة. (المترجم).

[2] سنن أبي داود، كتاب الديات. وهذا نص الحديث كاملا: (٤٤٩٧) حدثنا مُوسَى بنُ إِسْمَاعِيلَ أخبرنا حَمَّادٌ قَالَ أخبرنا مُحمَّدٌ ـ يَعْني ابنَ إِسْحَاقَ ـ فحدَّثَني مُحمَّدُ بنُ جَعْفَرِ بنِ الزُّبَيْرِ قالَ سَمِعْتُ زِيَادَ بنَ ضُمَيْرَةَ الضُّمَرِيَّ ح. وأخبرنا وَهْبُ بنُ بَيَانَ وَ أحْمَدُ بنُ سَعِيدٍ الْهَمْدَانِيُّ قالاَ أخبرنا ابنُ وَهْبٍ أخبرني عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ أبي الزِّنَادِ عن عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بن الْحَارِثِ عنْ مُحمَّدِ بنِ جَعْفَرٍ أَنَّهُ سَمِعَ زِيَادَ بنَ سَعْدِ بنِ ضُمَيْرَةَ السُّلَمِيَّ وَهٰذَا حَديثُ وَهْبٍ وَهُوَ أَتَمُّ يُحَدِّثُ عُرْوَةَ بنَ الزُّبَيْرِ عن أبيهِ قال مُوسَى وَ جَدِّهِ، وكَانَا شَهِدَا مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم حُنَيْناً، ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ وَهْبٍ: «أنَّ مُحَلِّمَ بنَ جَثَّامَةَ اللَّيْثِيَّ قَتَلَ رَجُلاً مِنْ أَشْجَعَ في الإِسْلاَمِ وَذَلِكَ أَوَّلُ غِيَرٍ قَضَى بِهِ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، فَتَكَلَّمَ عُيَيْنَةُ في قَتْلِ الأَشْجَعِيِّ لأَنَّهُ مِنْ غَطَفَانَ، وتَكَلَّمَ الأَقْرَعُ بنُ حَابِسٍ دُونَ مُحَلِّمٍ لأَنَّهُ مِنْ خِنْدَفَ، فارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وَكَثُرَتِ الْخُصُومَةُ وَاللَّغَطُ، فقالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: يَا عُيَيْنَةُ ألاَ تَقْبَلُ الْغِيَرَ، فقالَ عُيَيْنَةُ: لاَ وَالله حَتَّى أُدْخِلَ عَلَى نِسَائِهِ مِنَ الحرْبِ وَالحَزَنِ ما أدْخَلَ عَلَى نِسَائِي، قال: ثُمَّ ارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وَكَثُرَتِ الخُصُومَةُ وَاللغَطُ، فقالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: يَا عُيَيْنَةُ ألاَ تَقْبَلُ الْغِيَرَ؟ فقالَ عُيَيْنَةُ مِثْلَ ذَلِكَ أيْضاً، إِلَى أَنْ قَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي لَيْثٍ يُقَالُ لَهُ مُكَيْتِلٌ عَلَيْهِ شِكَّةٌ وَفي يَدِهِ دِرقَةٌ فقال:

هذه الوقائع تُقيم حداً فاصلا واضحا بين السلطنة (الحكم) الدنيوية والسلطنة (الحكم) الأخلاقية، ففي السلطنة الدنيوية ينكر المجرم جريمته حتى ينجو من العقاب، ولكن ماعزاً (ﷺ) والصحابة الآخرين اعترفوا بذنوبهم حتى يُقام عليهم العقاب الدنيوي، وينجو من عقاب وعذاب الآخرة، وتُغفر ذنوبهم بدعاء واستغفار النبي (ﷺ). ينفذ الجلاد العقوبة في السلطنة الدنيوية لأنه مأمور ومكلف بهذه الخدمة، ولكن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم رجموا ماعزاً (ﷺ) بالحجارة حتى ينالوا توفيق تنفيذ الحكم الإلهي دون محاباة. إن محاولة فرار المجرم جرم آخر في السلطنة الدنيوية، ولكنه في نظام سلطنة الحكم الإسلامي وسيلة للتوبة.

وفي هذا المقام يتضح فرق بيِّن بين دستور عمل السلطنة الأخلاقية والأخرى الدنيوية، حيث يرتكب المجرم أية جريمة من أجل إصابة الضرر بالسلطنة نفسها. تستطيع السلطنة الدنيوية رحيمة القلب العفو عن الخراج، والجرائم الكبيرة، وتتعامل مع الرعايا برفق ولين، ولكن لا يمكن لها أن تتهاون

يَا رَسُولَ الله إنِّي لَمْ أجِدْ لِمَا فَعَلَ هٰذَا في غُرَّةِ الإسْلاَمِ مَثَلاً إلاَّ غَنَماً وَرَدَتْ فَرُمِيَ أوَّلُها فَنَفَرَ آخِرُهَا، اسْنُنِ الْيَوْمَ وَغَيِّرْ غداً، فقالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: خَمْسُونَ في فَوْرِنَا هٰذَا، وَخَمْسُونَ إذَا رَجَعْنَا إلَى المَدِينَةِ، وَذَلِكَ في بَعْضِ أسْفَارِهِ وَمُحَلِّمٌ رَجُلٌ طوِيلٌ آدَمُ وَهُوَ في طَرَفِ النَّاسِ، فَلَمْ يَزَالُوا حَتَّى تخَلَّصَ فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وَعَيْنَاهُ تَدْمَعَانِ، فقالَ: يَا رَسُولَ الله إنِّي قَدْ فعَلْتُ الَّذي بَلَغَكَ، وَإنِّي أتُوبُ إلَى الله، فاسْتَغْفِرِ الله لِي يَا رَسُولَ الله، فقالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: أقَتَلْتَهُ بِسِلاَحِكَ في غُرَّةِ الإسْلاَمِ، اللَّهُمَّ لا تَغْفِرْ لِمُحَلِّمٍ بِصَوْتٍ عَالٍ. زَادَ أبُو سَلَمَةَ: فَقَامَ وَإنَّـهُ لَيَتَلَقَّى دُمُوعَهُ بِطَرَفِ رِدَائِه». قالَ ابنُ إسْحَاقَ: فَزَعَمَ قَوْمُهُ أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم اسْتَغْفَرَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ. قالَ أبُو دَاوُدَ: قالَ النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ: الْغِيَرُ الدِّيَةُ.(المترجم).

في أي جرم بسيط يضر بالسلطنة ذاتها. قام بعض المسلمين في عهد النبوة بأعمال كان يمكن لها أن تُوقع الضرر بالأمور الحربية والسياسية ولكن لما كانت نيتهم صافية وصادقة، وقلبهم طاهر لذا أغمض النبي (ﷺ) عينه عن جرمهم هذا لأنهم كانوا قد خدموا الإسلام بأعمال جليلة من قبل والتي قد أعربت عن صدق إيمانهم الكامل. (على سبيل المثال) أرسل الصحابي حاطب بن بلتعة[1] رسالة إلى كفار قريش أطلعهم فيها على أسرار للمسلمين. وأمسك المسلمون بهذه الرسالة. فقال سيدنا عمر (ﷺ) للنبي (ﷺ): إنه قد خان الله، ورسوله والمسلمين، إذن لي أن أقطع عنقه. ولكن النبي (ﷺ) سأل حاطبًا: لِمَ فعلت هذا ؟ قال حاطب: أقسم بالله أنه لم يحدث أي خلل في إيماني، وما كتبت هذه الرسالة إلا لأن المهاجرين الذين تركوا أولادهم وأهلهم في مكة مازالت أسرهم وعائلاتهم موجودة هناك، لذا فهم يحافظون على أولاد وآل هؤلاء المهاجرين، وأما أنا فلا يوجد لي من يحافظ على أولادي هناك، لذا أردت أن أقدم إحسانا للكفار حتى يحافظوا على أطفالي عوضا له. قال النبي (ﷺ): صدق، احملوا كلماته على محمل الحسن ولا تسيئوا الظن به، ولكن عمر (ﷺ) قال ثانية: لقد خان الله ورسوله والمسلمين، إذن لي أن أقطع عنقه. قال النبي (ﷺ): ألم يكن من أهل بدر الذين قال الله تعالى فيهم:

« اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة »

وهنا اغرورقت عين سيدنا عمر (ﷺ) بالدموع، وقال: الله ورسوله أعلم.[2]

---

[1] ورد الاسم هكذا في كتاب الرحيق المختوم، ط ١، صـ ٣٦٥: حاطب بن أبي بلتعة. (المترجم).

[2] صحيح البخاري، ج ٢، كتاب المغازي، صـ ٥٦٠. وهذا نص الحديث كاملا: (٤١٧٥) حدَّثنا قُتيبةُ بن سعيد حدَّثنا سفيانُ عن عمرو بن دينار قال: أخبرَني الحسنُ

إن دستور العمل الذي اتبعه النبي (ﷺ) في قضية حاطب بن أبي بلتعة مبني على فضل مشاركة حاطب (ﷺ) في غزوة بدر، فضلا عن أنه كان مبني أيضا على مثل هذا المبدأ الذي يُقيم حدًّا فاصلا بين السلطنة الدنيوية والسلطنة الأخلاقية. إن سوء الظن سمة ضرورية للسياسة، ومن ثم فإن الملك أو السلطان الذي يُخفي أسرار الدولة عن الناس حتى أحبابه وأقاربه يُعتقد بأنه الأكثر تدبيراً وبعيد النظر، ولكن المبدأ خاص بالحكومات الدنيوية فقط، وبسببه لا يوجد الاتحاد والإخلاص بين الحاكم والمحكوم في هذه الحكومات. أما الحكومات

بن محمد أنهُ سمعَ عُبيدَ الله بن أبي رافع يقول: «سمعتُ علياً رضيَ الله عنه يقول: بَعثَني رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أنا والزُّبيرَ والمقدادَ فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخٍ، فإنَّ بها ظَعينةً معها كتابٌ فخذوا منها، قال: فانطلَقنا تَعادَى بنا خيلُنا حتى أتينا الروضةَ، فإذا نحنُ بالظَّعينةِ، قلنا لها: أخرجي الكتابَ، قالت: مامعي كتابٌ. فقلنا: لَتُخرجنَّ الكتابَ أو لنُلقينَّ الثيابَ. قال: فأخرجَتْهُ من عِقاصِها، فأتَينا بهِ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فإذا فيه: من حاطبِ بن أبي بَلتَعةَ ــ إلى ناس بمكةَ منَ المشركين ــ يُخبرُهم ببعضِ أمرِ رسولِ اللَّهُ صلى الله عليه وسلم: فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: يا حاطبُ ما هذا؟ قال: يارسولَ الله، لاتعجَلْ عليّ، إني كنتُ امرءاً مُلصَقاً في قريش ــ يقول: كنتُ حَليفاً ــ ولم أكن من أنفُسِها، وكان مَن معكَ منَ المهاجرين مَن لهم بها قَراباتٌ يَحمونَ أهلِيهم وأموالَهم، فأحبَبتُ إذا فاتني ذلكَ منَ النسب فيهم أن أتخذَ عندهم يداً يَحمُونَ قَرابتي، ولم أفعَلْهُ ارتداداً عن ديني ولا رِضاً بالكفر بعدَ الإسلام فقال رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أما إنه قد صَدَقَكم. فقال عمرُ: يا رسولَ الله، دَعْني أضربْ عُنقَ هذا المنافقِ. فقال إنهُ قد شهدَ بدراً، وما يُدرِيكَ لعلّ اللَّهَ اطَّلعَ على من شهدَ بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم. فأنزلَ اللّهُ السورةَ: {يا أيُّها الذين آمنوا لا تتَّخذوا عدُوِّي وعدوَّكم أولياءَ تُلْقون إليهم بالمودَّة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ــ إلى قوله ــ فقد ضلَّ سواء السبيل} (الممتحنة: ١). (المترجم).

الأخلاقية والدينية ترتكز على الإخلاص لله، والإخلاص فيما بين الناس والثقة بينهم، وبناء على هذا الإخلاص والثقة تغافل النبي (ﷺ) عن جرم حاطب بن أبي بلتعة وعبر النبي (ﷺ) عن هذا المبدأ بقوله (ﷺ) الوجيز:

حسن الظن من حسن العبادة (سنن أبي داود، كتاب الآداب، ص ١٩٨).[١]

ووضحه القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات: ١٢).

وأوصى به النبي (ﷺ) كمبدأ سياسي، إذ يقول (ﷺ):

«إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم». [٢]

وأمر عمال السلطنة بتنفيذ هذا المبدأ:

عن معاوية قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم. [٣]

---

[١] وهذا نص الحديث كاملا: (٤٩٨٩) حدثنا مُوسَى بنُ إسْمَاعِيلَ أخبرنا حَمَّادٌ ح وَأَخبرنا نَصْرُ بنُ عَلِيٍّ عنْ مَهْنَإٍ أَبِي شِبْلٍ. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: وَلَمْ أَفْهَمْهُ مِنْهُ جَيِّداً عنْ حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ عنْ محَمَّدِ بنِ وَاسِعٍ عنْ شُتَيْرٍ قالَ نَصْرٌ شُتَيْرُ بنُ نَهَّارٍ عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ نَصْرٌ عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قالَ: « حُسْنُ الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ الْعِبَادَةِ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: مَهْنَأُ ثِقَةٌ بَصْرِيٌّ. (المترجم).

[٢] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن أبي داود: (٤٨٨٥) حدثنا سَعِيدُ بنُ عَمْرٍو الْحِمْصِيُّ أخبرنا إسْمَاعِيلُ ابنُ عَيَّاشٍ أخبرنا ضَمْضَمُ بنُ زُرْعَةَ عن شُرَيْحِ بنِ عُبَيْدٍ عن جُبَيْرِ بنِ نُفَيْرٍ و كَثِيرُ بنُ مُرَّةَ وَ عَمْرُو بنُ الأسْوَدِ وَ المِقْدَامُ بنِ مَعْدِيكَرِبَ وَ أَبِي أُمَامَةَ عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قال: « إنَّ الأَمِيرَ إذَا ابْتَغَى الرِّيبَةَ في النَّاسِ أَفْسَدَهُمْ». (المترجم).

[٣] وهذا نص الحديث كاملا: (٤٨٨٤) حدثنا عِيسَى بنُ مُحَمَّدٍ الرَّمْلِيُّ وَ ابنُ عَوْفٍ ــ وَهذَا لَفْظُهُ ــ قالاَ أخبرنا الْفِرْيَابِيُّ عن سُفْيَانَ عن ثَوْرٍ عن رَاشِدِ بنِ سَعْدٍ عن مُعَاوِيَةَ،

ومن ثم اتبع الصحابة الكرام هذا المبدأ في سائر معاملاتهم بمرض مدمن خمر على سيدنا عبد الله بن مسعود (ﷺ)، وقيل عنه بأن الخمر يفيض من لحيته، ولأن عبد الله بن مسعود لم يكن قد رآه بنفسه يشرب الخمر، لذا قال: لقد أمرنا بعدم إتباع عورات الناس، ونأخذ على أي جرم يقع علانية.[1]

كان دخين كاتبا للصحابي عقبة بن عامر واشتكي له: إن جيراننا يشربون الخمر، ومنعتهم من هذا وما امتنعوا عنه. والآن استعدي لهم الشرطة. قال سيدنا عقبة: "اعف" (عنهم). قال دخين ثانية: إن هؤلاء الناس يرفضون ترك شراب الخمر، لذا استدعى لهم الشرطة. قال عقبة (ﷺ): "اعف" (عنهم) لأني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول:

من رأى عورة فسترها كان كمن أحيى موءودة.[2]

قال سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ: « إِنَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أو كِدتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ، فقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: كَلِمَةٌ سَمِعَهَا مُعَاوِيَةُ مِنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم نَفَعَهُ الله بِهَا». (المترجم).

(١) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن أبي داود: (٤٨٨٦) حدثنا أَبُو بَكْرِ بنُ أَبِي شَيْبَةَ أخبرنا أَبُو مُعَاوِيَةَ عن الأعمَشِ عن زَيْدِ بنِ وَهْبٍ، قال: « أُتِيَ ابنُ مَسْعُود فَقِيلَ هٰذَا فُلاَنٌ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ خَمْراً، فقَال عَبْدُ الله: إِنَّا قَدْ نُهِينَا عن التَّجَسُّسِ ولَكِنْ إِنْ يَظْهَرْ لَنَا شَيْءٌ نَأْخُذْ بِهِ». (المترجم).

(٢) وردت هذه الأحاديث كلها في سنن أبي داود، كتاب الأدب، صـ ٦٩ باب في النهي عن التجسس. وهذا نص حديث كما ورد في سنن أبي داود: (٤٨٨٧) حدثنا مُسْلِمُ بنُ إِبْرَاهِيمَ أخبرنا عَبْدُ الله بنُ المُبَارَكِ عن إِبْرَاهِيمَ بنِ نَشِيطٍ عن كَعْبِ بنِ عَلْقَمَةَ عن أَبِي الْهَيْثَمِ عن عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: « مَنْ رَأى عَوْرَةً فَسَتَرَهَا كَانَ كَمنْ أَحْيَى مَوْءُودَةً». (المترجم). وهذا نص حديث آخر في سنن أبي داود: (٤٨٨٨) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ يَحْيَى حدثنا ابنُ أَبِي مَرْيَمَ أنبأنا اللَّيْثُ قال حدَّثني إِبْرَاهِيمُ بنُ

لا يمكن لأي شخص أن يقول شيئا في فضل هذا المبدأ من الناحية الأخلاقية، ولكن لا يجب علينا أن نكتفي بهذا الحد فقط، بل يجب علينا النظر في أثر هذا المبدأ في السلطنة والحكم من الناحية السياسية. كتب ابن خلدون مقالة مستقلة عن هذا الأمر بعنوان "شحذ السيف مضر للسلطنة ومهلك لها" وما كتبه في هذا المقال ما هو إلا شرح وتفسير لهذا المبدأ السياسي الذي أشير إليه في قول النبي (ﷺ) لذا أرى نقل خلاصة هذا المقال هنا كافيا لتوضيح الحيثية السياسية لهذا المبدأ. يكتب ابن خلدون.

"يجب معرفة أن علاقة مصلحة الرعية لا ترتبط بذات السلطان ولا بجسمه ولا بحسنه ولا بسعة علمه ولا بحسن حظه ولا بذكائه وإنما ترتبط بفائدتهم ومصلحتهم بشخص السلطان فقط، لذا فالملك والسلطنة شيء إضافي، وهو نوع من أنواع العلاقة بين شخصين فحقيقة السلطان هي فقط أنه سيد الرعية والراعي لها والمسئول عنها، ومن ثم فالسلطان هو من له رعايا. والرعية هي من لها سلطان، والصفة المستنبطة من هذه العلاقة تسمى الملوكية، وحين تكتمل هذه الصفة ومتطلباتها يتحقق الهدف من السلطان تماما، ولو أنه ممتاز فيكون هذا هو مصلحه الرعية ذاتها، ولو يكون سيئا وظالما فيكون هذا

نَشِيطٍ عن كَعْبِ بنِ عَلْقَمَةَ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا الْهَيْثَمِ، يَذْكُرُ أَنَّهُ سَمِعَ دُخَيْنًا كَاتِبَ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ قال: «كانَ لَنَا جِيرَانٌ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ فَنَهَيْتُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَقُلْتُ لِعُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ: إنَّ جِيرَانَنَا هٰؤُلاءِ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَإِنِّي نَهِيتُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا وَأَنَا دَاعٍ لَهُم الشُّرَطَ، فقالَ دَعْهُمْ، ثُمَّ رَجَعْتُ إلى عُقْبَةَ مَرَّةً أُخْرَى فقُلْتُ: إنَّ جِيرَانَنَا قَدْ أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوْا عن شُرْبِ الْخَمْرِ وَأَنَا دَاعٍ لَهُم الشُّرَطَ. قال: وَيْحَكَ، دَعْهُمْ فإنِّي سَمِعْتُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، فَذَكَرَ مَعْنَى حَدِيثِ مُسْلِمٍ». قَالَ أبُو دَاوُدَ: قال هَاشِمُ بنُ الْقَاسِمِ عن لَيْثٍ في هٰذَا الْحَدِيثِ قال: لا تَفْعَلْ وَلٰكِنْ عِظْهُمْ وَتَهَدَّدْهُمْ. (المترجم).

هو الضرر بذاته للرعية، كما يكون السبب في هلاكها، إن مزايا السلطان ترتكز على اللين، لأنه إن يكن السلطان ظالما أو متشدداً أو يتتبع عورات الناس وجرائمهم فيتملك الخوف والذل من الرعية، ويلجأ الناس إلى الكذب والمكر والخداع للنجاة منه، وينتج عن هذا أن هذه الصفات (الرذائل) تصبح أخلاقا لهم، ثم يموت ضميرهم ودستورهم الأخلاقي، ويتخلون عنه في الحروب، ويكونون في أكثر الأوقات على استعداد تام لقتله، وبسببه تتدهور السلطنة ذاتها ولو تبقى حكومة مثل هؤلاء السلاطين الظالمين، تزول عاطفة الحب تماما كما بيّنا سابقا. ولكن السلطان حين يتبع اللين مع الرعايا ويعفو عن أخطائهم، فيقبلون عليه ويُفدونه بأرواحهم أمام أعدائه، ثم تقوى السلطنة في كل جانب وهذا هو أصل حقيقة مميزات السلطنة. ولكن هناك أشياء أخرى ضمن لوازمها وتوابعها منها على سبيل المثال الإحسان للرعية والاهتمام بمعاشها، فهذا نوع من أنواع اللين أيضا، كما أنه أكبر مبدأ وسبب للحصول على حب الرعية. يجب معرفة أن هؤلاء الناس واعون فطنون، تقل فيهم صفة اللين، فاللين يوجد بكثرة عند من يتصفون بالبساطة والسذاجة. أما الواعون والفطنون من الناس يتسمون ببعد النظر ومن ثم يضعون عواقب الأمور أمامهم منذ البداية، لذا يُكلفون الناس بما لا يُطاق، فينتج عنه هلاك الناس. لذا أمر الرسول (ﷺ) باختيار أسلوب وطريقة ضعاف الناس وحدد شرطا للحكام وهو ألا يكون حاد الذكاء داهية لذا حين عزل سيدنا عمر (رضي الله عنه) زياد بن سفيان فقال: ألا أستطيع أن أقوم بأداء مهام هذا المنصب؟. أو هل أنا خنت في أي شيء فأجابه عمر (رضي الله عنه): " لا هذا ولا ذاك، لقد عزلتك فقط لأني لا أريد تحميل الرعية عبء ذكائك".

إن دستور الحكم والسلطنة الذي قدمه ابن خلدون في هذه المخاطر رغم أنه يمكن العمل به في الحكومات الدنيوية إلا أن له جانب آخر وهو أنه بسبب

أسلوب اللين هذا تنتشر الأنانية بين الرعية، ويسود عدم الاكتراث بالجريمة، ولا يتبادر إلى الذهن تنفيذ أحكام السلطنة أو الدولة، وتبدو هذه الأمور في الحكومات بسبب لين الحكام الضعفاء أما الإسلام فقد وضع أساس دولته على الدين، ففيها طاعة ولي الأمر سببا مباشراً لنيل طاعة الله، وعدم طاعة ولي الأمر تقود الإنسان إلى عذاب الآخرة[1]، لذا يجب الاستفادة من أحكام الشريعة في هذا الجانب أي اللين بقدر الإمكان، والذي يبعث الأمن والاطمئنان في نفوس الناس أو يكون مبدأ الشهادة في التحقق من الجريمة هو الأعلى، وألا تكون هناك مخالفة للصدق في العدل، وأن يتساوى الغنى والفقير، والشريف والدنيء في نظر القانون، وألاّ يُعاقب المجرمون طالما لا تثبت ولا تُحقق الشهادة كاملة، وأن يُسقط الحد عن المجرم إذا كانت هناك شكوك وشبهات في إثبات الجريمة، وأن تُنسخ كل العقوبات القاسية التي كان قد وضعها الظالمون والجبابرة من الملوك.

لذا قال رسول الله (ﷺ):

« إن الله يُعذب الذين يُعذبون في الدنيا»[2]

---

[1] قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء ٥٩) (المترجم).

[2] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق: (٦٦٠٩) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، قَالَ: مَرَّ بِالشَّامِ عَلَىٰ أُنَاسٍ، وَقَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ، وَصُبَّ عَلَىٰ رُؤُوسِهِمُ الزَّيْتُ. فَقَالَ مَا هَـٰذَا؟ قِيلَ: يُعَذَّبُونَ فِي الْخَرَاجِ. فَقَالَ: أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ فِي الدُّنْيَا». (المترجم).

حين اتخذت الخلافة (الإسلامية) صورة الدولة والسلطنة في آخر عهد صحابة رسول الله (ﷺ)، وأخذ الظلم والجور في الانتشار؛ فأراد هؤلاء الصحابة – الذين شرفوا بصحبة النبي (ﷺ) – منع ظلم العمال عن طريق هذا الحديث الشريف. ذات مرة مر هشام بن حكيم بن حزام على الشام فرأى بعض الأنباط واقفين تحت لهيب الشمس؛ فسأل عن السبب فأجابه الناس: أنهم عُوقبوا بهذا العقاب بسبب الجزية. قال: أشهد أني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: « أن الله يُعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا».[1]

وتستطيع السلطنة الدنيوية أن تتبع أسلوب اللين والحب مع قومها أما سلوكها مع الأجانب فلا يخلوا من الظلم أبدا مهما كانت درجة تقدمها. وهنا هشام بن حكيم بن حزام ساق هذا الحديث الشريف حين رأى ظلما واقعا على أناس غير مسلمين. ويثبت من هذا أن نظام الحكم الإسلامي لم يقم على هذا المبدأ [2] (الظلم)، بل يقوم على الحب واللين، ومن ثم كانت سحاب الرحمة هذه تُظل كل الأقوام والأفراد، وكان منهج عمل النبي (ﷺ) في أمور الحكومة سهلاً وليناً لدرجة أن الناس يأتون إليه ويعترفون بجرائمهم حتى يُخفف الرسول (ﷺ) عليهم أو يُوجد لهم حلا سهلا. وكان غير المسلمين أيضا يعترفون بأسلوب عمل

---

(1) صحيح مسلم، ج ٢، صـ ٣٩٧، كتاب الأدب. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم، كتاب الأدب، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق: (٦٦١٠) حدثنا أبو كُرَيْبٍ. حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ،، قَالَ: مَرَّ هِشَامُ بْنُ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ عَلَى أُنَاسٍ مِنَ الأَنْبَاطِ بِالشَّامِ. قَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ. فَقَالَ: مَا شَأْنُهُمْ؟ قَالُوا: حُبِسُوا فِي الْجِزْيَةِ. فَقَالَ هِشَامٌ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِي يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا».(المترجم)

(2) الظلم والتفرقة بين المسلم والذمي. (المترجم).

النبي (ﷺ) هذا، فقد زني رجلان يهوديان بامرأتين (يهوديتين)؛ فاتفق سائر اليهود قائلين: يجب علينا اصطحابهم والذهاب إلى محمد (ﷺ)، لأنه نبي قد بُعث للتخفيف والتيسير[1] أي يتبع اللين في العقاب.

---

[1] سنن أبي داود، ج ٢، صـ ١٤٩، كتاب الحدود. وهذا نص الحديث كاملا: (٤٤٤٤) حدثنا مُحمَّدُ بنُ يَحْيَى أخبرنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أنبأنا مَعْمَرٌ عن الزُّهْرِيِّ قالَ أخبرنا رَجُلٌ مِنْ مُزَيْنَةَ ح وَأخبرنا أَحْمَدُ بنُ صَالِحٍ أخبرنا عَنْبَسَةُ أخبرنا يُونُسُ قالَ قال مُحمَّدُ بنُ مُسْلِمٍ، : سَمِعْتُ رَجُلاً مِنْ مُزَيْنَةَ مِمَّنْ يَتَّبِعُ الْعِلْمَ وَيَعِيهِ ثُمَّ اتَّفَقَا وَنَحْنُ عِنْدَ سَعِيدِ بنِ المُسَيَّبِ فَحَدَّثَنَا عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَهٰذَا حَدِيثُ مَعْمَرٍ وَهُوَ أَتَمُّ قالَ: «زَنَى رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ وَامْرَأَةٌ، فقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ اذْهَبُوا بِنَا إِلَى هٰذَا النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فإِنَّهُ نَبِيٌّ بُعِثَ بِالتَّخْفِيفِ فإنْ أَفْتَانا بِفُتْيَا دُونَ الرَّجْمِ قَبِلْنَاهَا وَاحْتَجَجْنَا بِها عِنْدَ الله، قُلْنَا فُتْيَا نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَائِكَ قالَ فأَتَوا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ فِي أَصْحَابِهِ فقالُوا يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا تَرَى في رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ زَنَيَا فَلَمْ يُكَلِّمْهُمْ كَلِمَةً حتى أَتَى بَيْتَ مِدْرَاسِهِمْ فَقَامَ عَلَى الْبَابِ فقَالَ أَنْشُدُكُمْ بالله الَّذِيْ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى. مَا تَجِدُونَ في التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ؟ قالُوا يُحَمَّمُ وَيُجَبَّهُ وَيُجْلَدُ، وَالتَّجْبِيَةُ أَنْ يُحْمَلَ الزَّانِيَانِ عَلَى حِمَارٍ وَيُقَابَلُ أَقْفِيَتَهُمَا وَيُطَافُ بِهِمَا. قالَ وَسَكَتَ شَابٌّ مِنْهُمْ، فَلَمَّا رَآهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم سَكَتَ أَلَظَّ بِهِ النِّشْدَةَ فقالَ: اللَّهُمَّ إِذْ نَشَدْتَنَا فإِنَّا نَجِدُ في التَّوْرَاةِ الرَّجْمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَمَا أَوَّلُ ما ارْتَخَصْتُمْ أَمْرَ الله؟ قالَ زَنَى ذُو قَرَابَةٍ مِنْ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِنَا فَأَخَّرَ عَنْهُ الرَّجْمَ ثُمَّ زنَى رَجُلٌ في أُسْرَةٍ مِنَ النَّاسِ فأَرَادَ رَجْمَهُ فَحَالَ قَوْمُهُ دُونَهُ وَقالُوا لا يُرْجَمُ صَاحِبُنَا حَتَّى تَجِيءَ بِصَاحِبِكَ فَتَرْجُمَهُ، فأَصْلَحُوا عَلَى هٰذِهِ الْعُقُوبَةِ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فإِنِّي أَحْكُم بِمَا في التَّوْرَاةِ فأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا». قالَ الزُّهْرِيُّ فَبَلَغَنَا أَنَّ هٰذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِمْ {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُم بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا} كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِنْهُمْ. (المترجم).

جاء رجل إلى النبي (ﷺ)، وقال: يَا رَسُولَ الله إِنِّي أصَبْتُ حَدًّا فأقِمْــهُ علَــيَّ. قالَ: «تَوَضَّأْتَ حِينَ أقْبَلْتَ؟» قالَ: نَعَمْ، قَالَ: «هَلْ صَلَّيْتَ مَعَنَا حِينَ صَلَّيْنَا؟» قــالَ: نَعَــمْ. قالَ: «اذْهَبْ فإنَّ الله قَدْ عَفَا عَنْكَ». [1]

كان النبي (ﷺ) يهتم اهتماماً كبيراً بقضاء حــوائج النـــاس ومتطلبـــاتهم، فكانت أي أَمة تصحبه ﷺ وتذهب به ﷺ كي يقضي لها حاجتها. جــاءت امــرأة مختلة الحواس وقالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. فَقَالَ: «يَا أُمَّ فُلَانٍ أنْظُــرِي أيَّ السِّكَكِ شئتِ، حَتَّىٰ أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَــكِ»، لذا ذهب معها النبـــي (ﷺ) وقـــضى لهـــا حاجتها. [2] كان عدي بن حاتم نصرانيا وسيد قبيلة طي، كما كان قد قضى فترة في بلاط الروم، حين جاء إلى النبي (ﷺ) فشك في هل هذا ملك أم نبي؟ ولكـــن

---

[1] سنن أبي داود، ج ٢، صـــ ١٤٢، كتاب الحدود. إن الذنب الذي وقع من هذا الرجل لم يكن يستحق إقامة الحد عليه، لذا بُشر بأن الله تعالى قد عفى عنه بحكـــم إن الحـــسنات يذهبن السيئات.وهذا نص الحديث كاملا: (٤٣٧٧) حدثنا مَحْمُودُ بنُ خَالد أخبرنا عُمَرُ بنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ عنِ الأوْزَاعِيِّ قالَ حدَّثني أَبُو عَمَّارٍ قالَ حدَّثني أَبُو أُمَامَةَ، : «أنَّ رَجُلاً أتَى رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي أصَبْتُ حَدًّا فأَقِمْــهُ علَــيَّ. قالَ: تَوَضَّأْتَ حِينَ أقْبَلْتَ؟ قالَ: نَعَمْ، قَالَ: هَلْ صَلَّيْتَ مَعَنَا حِينَ صَلَّيْنَا؟ قالَ: نَعَمْ. قالَ: اذْهَبْ فإنَّ الله قَدْ عَفَا عَنْكَ». (المترجم).

[2] صحيح مسلم،ج ٢، صـــ ٢٩٤. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم، باب قربه (ﷺ) من الناس وتبركهم به وتواضعه لهم: (٥٩٩٧) وحدّثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِـــي شَـــيْبَةَ. حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَـــارُونَ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. فَقَالَ: «يَا أُمَّ فُلَانٍ أَنْظُرِي أَيَّ الـــسِّكَكِ شِئْتِ، حَتَّىٰ أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ» فَخَلاَ مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّـــرُقِ. حَتَّـــىٰ فَرَغَـــتْ مِـــنْ حَاجَتِهَا.(المترجم).

حين شاهد هذه الواقعة أمام عينيه[1]، نهض وقال: إن محمداً لـيس ملكـا، لأن حسن الخلق هذا يصدر من النبي فقط. وهنا أعتنق عـدي (ﷺ) الإسـلام فـي الحال.

مر في وقائع مختلفة أن البدو والأعراب كانوا يأتون إلـى النبـي (ﷺ) يحاورونه دون تكلف، بل وبجرأة متناهية، وكان النبي (ﷺ) يتبع معهم الرفـق واللين. في ذات مرة أمسك بدوي بجلباب النبي (ﷺ) وجذبه، فالتفت إليه النبـي

---

(١) واقعة قضاء الرسول (ﷺ) بنفسه حاجة المرأة. وهذا نـص الحـديث كـاملا: (٣٥١٧) حدّثني محمدُ بن الحكَم أخبرَنا النَّضرُ أخبرَنا إسرائيلُ أخبرَنا سعدٌ الطائيُّ أخبرَنا مُحِلُّ بن خَليفةَ عن عَدِيِّ بن حاتمٍ قال: «بينا أنا عندَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم إذا أتاهُ رجُلٌ فشكا إليهِ الفاقَةَ، ثمّ أتاهُ آخَرُ فشكا إليه قَطعَ السبيل، فقال: يا عَدِيُّ، هل رأيتَ الحيرةَ ؟ قلت: لم أرَها، وقد أُنبِئتُ عنها. قال: فإن طالتْ بكَ حَياةٌ لتَرَيَنَّ الظَّعينةَ تَرتحِلُ مِـنَ الحيرةِ حتى تَطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحداً إلا اللهَ ـ قلتُ فيما بيني وبينَ نفْـسي فـأين دُعّارُ طَيِّء الذينَ قد سَعَّروا البلادَ ؟ ـ ولئنْ طالَتْ بكَ حياةٌ لتُفتَحنَّ كُنـوزُ كِـسرَى. قلتُ: كِسرَى بن هُرمُزَ ؟ قال: كِسرَى بنِ هُرمُزَ. ولئنْ طالت بكَ حياةٌ لَتَـرَيَنَّ الرجـلَ يُخرجُ مِلءَ كفِّهِ من ذهبٍ أو فضةٍ يَطلُبُ مَن يَقبلهُ منهُ فلا يَجِدُ أحداً يَقبلهُ منه. ولَيلقيَنَّ اللهَ أحدُكم يومَ يَلقاهُ وليسَ بينَهُ وبينهُ ترجمانٌ يُترجمُ لهُ، فيقولَنَّ: ألم أبعَثْ إليكَ رسـولاً فيُبلِّغك ؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أُعطِكَ مالاً وأُفْضِلْ عليك ؟ فيقول: بلى. فيَنظرُ عـن يَمينه فلا يَرى إلا جهنَّم، وينظرُ عن يَسارِهِ فلا يَرى إلا جهنَّم. قال عَدِيٌّ: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: اتَّقُوا النارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ، فمن لم يَجِدْ شِقَّ تمـرةٍ فبكلمـةٍ طيِّبةٍ. قال عديٌّ: فرأيتُ الظعينة ترتحلُ منَ الحِيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخـافُ إلا اللهَ، وكنتُ فيمن افتتحَ كنوزَ كسرَى بنِ هُرمُزَ، ولئنْ طالت بكم حياةٌ لَتَرَوُنَّ ما قال النبيُّ أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: يُخرجُ مِلءَ كفه».

حدّثني عبدُ اللهِ حدَّثنا أبو عاصمٍ أخبرنا سَعدانُ بن بشرٍ حدَّثنا أبو مجاهدٍ حدَّثنا مُحِلُّ بن خَليفةَ سمعتُ عَدياً: «كنتُ عندَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم». (المترجم).

(ﷺ) وضحك ثم أنعم عليه.[1] كان بعض المسلمين يقترفون ذنوبا توجب عليهم كفارة مالية، ولكن كان من بينهم أناس لا يستطيعون أداء أي كفارة مالية بسبب فقرهم وضيق عيشهم، لذا كان النبي (ﷺ) يأمر بأداء الكفارة عنهم من بيت المال. ذات مرة خشي أحد الصحابة أن يقع منه أي سوء في صيام رمضان، لذا رأى أنه من الأفضل له أن يظاهر زوجته في شهر رمضان[2]، وقد كان، ولكنه ما استطاع أن يسيطر على نفسه في ليلة، فباشر زوجته.[3] طلع الصباح وانزعج انزعاجا وقال لأناسه: خذوني إلى رسول الله (ﷺ). رفض الجميع السير معه إلى النبي (ﷺ)، فذهب هو بنفسه وحيداً إلى النبي (ﷺ) واعترف بذنبه. فقال له النبي (ﷺ) مرتين: «أَنْتَ بِذَاكَ» وأجاب في المرتين: نعم ها أنا ذا فامض في حكم الله عز وجل فإني صابر له. قال (ﷺ):«أَعْتِقْ رَقَبَةً».[4] فضرب الرجل بيده على رقبته وقال: لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها. قال النبي (ﷺ):«فصم شهرين» قال: يا رسول الله وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام. قال النبي (ﷺ):«فَتَصَدَّقْ». قال: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشاء ما لنا عشاء. سمع النبي قوله هذا وقال: «اذْهَبْ إِلَى صاحِبِ صَدَقَةِ بَنِي زُرَيْقٍ فَقُلْ لَهُ فَلْيَدْفَعْها إليك، فَأَطْعِمْ عَنْكَ مِنْها وَسْقاً مِنْ تَمْرٍ سِتِّينَ مِسكِيناً ثُمَّ اسْتَعِنْ بِسَائِرِهِ عَلَيْكَ وَعَلَى عِيالِكَ» وحين رجع

---

[1] صحيح البخاري، ج ٢، صـ ٩٠٠.

[2] الظهار يعني تشبيه الزوجة بالمحرمات شرعا، كأن يقول زوج لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي اليوم، لذا تجب عليه الكفارة في هذه الصورة.

[3] لم يكن حكم الإذن بمباشرة الزوجة في ليل رمضان قد نزل حتى ذلك الوقت.

[4] أي حرر عبداً. (المترجم).

هذا الرجل قال لأناسه: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ووجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم السعة والبركة.[1].

لقد خلق الإخلاص وحسن العقيدة من قِبَل المسلمين، والشفقة والكرم واللين من قِبَل النبي (ﷺ) حبا كبيراً للنبي (ﷺ) في نفوس الرعية، الأمر الذي لا يمكن أن يتراءى وميضه في التيجان المرصعة والملابس الفاخرة لسلاطين

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد: (١٦١٠٩) حدثنا عبد الله حدثني أبي، حدثنا يزيد بن هارون، قال أخبرنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سليمان بن يسار، عن سلمة بن صخر الأنصاري، قال: كنت أمرأً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري فلما دخلت رمضان تظهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان، فرقاً من أن أصيب في ليلتي شيئاً فأتتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار وأنا لا أقدر على أن أنزع فبينما هي تخدمني إذ تكشف لي منها شيء فوثبت عليها فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خبري وقلت لهم: انطلقوا معي إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره بأمري فقالوا: لا والله لا نفعل نتخوّف أن ينزل فينا قرآن أو يقول فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك قال: فخرجت فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبري فقال لي: «أَنْتَ بِذَاكَ». فقلت: أنا بذاك. فقال: «أنت بذاكَ» فقلت: أنا بذاك قال: «أَنْتَ بذاكَ». قلت: نعم ها أنا ذا فامض في حكم الله عز وجل فإني صابر له قال: «أَعْتِقْ رَقَبَةً» قال: فضربت صفحة رقبتي بيدي وقلت: لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها قال: «فصم شهرين». قال: قلت: يا رسول الله وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام قال: «فَتَصَدَّقْ» قال: فقلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشاء ما لنا عشاء قال: «اذْهَبْ إِلَى صاحِبِ صَدَقَةِ بنِي زُرَيْقٍ فَقُلْ لَهُ فَلْيَدْفَعْها إليك، فَأَطْعِمْ عَنْكَ مِنْها وَسْقاً مِنْ تَمْرٍ سِتِّينَ مِسْكِيناً ثُمَّ اسْتَعِنْ بِسَائِرِهِ عَلَيْكَ وَعَلَى عِيالِكَ». قال: فرجعت إلى قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ووجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم السعة والبركة قد أمر لي بصدقتكم فادفعوها لي قال: فدفعوها إليّ. (المترجم).

الممالك الدنيوية. إن القصص التي كانت تحكى عن إباء بدو العـــرب وعنـــادهم ومطلق عنانهم والتي بسببها كان يُعتقد في أنه لم يقم أبداً أي نظام حكم أو دولة في بلاد العرب، ولن يمكن له القيام. ولكن حين تأسس نظـــام دولـــة الإســـلام، ونُفذت الأحكام الإسلامية، حتى أن هؤلاء البدو المطلق عنانهم والأبية نفوســـهم والمعاندون؛ قبلوا هذه الأحكام بكل سهولة وشغف وعقيدة وحب. ويمكن قيـــاس هذا من خلال تلك الأحداث التي وقعت في عهد النبوة. في ذات مرة جاء بدوي من نجد إلى المدينة المنورة، وجاء إلى النبي (ﷺ) وهو في حالة سفرة أي مُغبر الوجه أشعث الشعر، وسأل عن أحكام الشريعة الإسلامية، فقـــال النبـــي (ﷺ): «خَمسُ صَلَوات في الْيَوْمِ والليلةِ. فقال: هَل عَلَيَّ غيْرُها؟ قال: لا، إلاّ أنْ تَطَوَّعَ. قال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: وَصِيامُ رَمَضانَ. قالَ: هلْ عَلَيَّ غيرُهُ؟ قال: لا، إلاّ أن تَطَوَّعَ. قال وَذَكرَ له رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم الزَّكاةَ، قال هلْ عَلَيَّ غيرُهـــا؟ قـــال: لا، إلاّ أن تَطَوَّعَ. قال فأدْبرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يقولُ: وَاللّهِ لا أزيدُ عَلَى هذا ولا أنقُصُ. قال رســـولُ اللّـــهِ صلى الله عليه وسلم: أفْلَحَ إنْ صَدَقَ». [1] (صحيح البخاري، كتاب الإيمان)

---

[1] صحيح البخاري، ج١، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام. وهـــذا نـــص الحـــديث كاملا: (٤٦) حدَّثنا إسماعيلُ قال: حدَّثني مالِكُ بنُ أنَسٍ عنْ عَمِّهِ أبي سُهَيلِ بنِ مالـــكٍ عنْ أبيه أنَّهُ سَمِعَ طَلْحَةَ بنَ عُبَيدِ اللّهِ يقولُ: «جاءَ رَجُلٌ إلى رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم منْ أهلِ نَجْدٍ ثائرَ الرأْسِ يُسمعُ دَوِيُّ صَوتِه ولا يُفْقَهُ ما يقولُ، حتى دَنا، فإذا هُـــوَ يَسْأَلُ عنِ الإسلامِ، فقال رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: خَمسُ صَـــلَواتٍ فـــي الْيَـــوْمِ والليلةِ. فقال: هَل عَلَيَّ غيْرُها؟ قال: لا، إلاّ أنْ تَطَوَّعَ. قال رسولُ اللّهِ صلى الله عليـــه وسلم: وَصِيامُ رَمَضانَ. قالَ: هلْ عَلَيَّ غيرُهُ؟ قال: لا، إلاّ أن تَطَوَّعَ. قال وَذَكـــرَ لـــه رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم الزَّكاةَ، قال هلْ عَلَيَّ غيرُها؟ قال: لا، إلاّ أن تَطَـــوَّعَ. قال فأدْبرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يقولُ: وَاللّهِ لا أزيدُ عَلَى هذا ولا أنقُصُ. قال رسولُ اللّهِ صـــلى الله عليه وسلم: أفْلَحَ إنْ صَدَقَ» (المترجم).

في ذات مرة بينما كان الصحابة جلوسا عند رسول الله جاء بدوي وقال: يَا مُحَمَّدُ! أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ الله أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «الله» قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الأرض؟ قَالَ: «الله» قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هٰذِهِ الْجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «الله». قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الأَرْضَ وَنَصَبَ هٰذِهِ الْجِبَالَ، آلله أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا، قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ. آلله أَمَرَكَ بِهٰذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا. قَالَ «صَدَقَ» قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ. آللَّهُ أَمَرَكَ بِهٰذَا؟ قَالَ «نَعَمْ» قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، الله أَمَرَكَ بِهٰذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً. قَالَ: «صَدَقَ». قَال، ثُمَّ وَلَّى. قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! لاَ أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُنَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ: «لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ». (صحيح البخاري)(١).

---

(١) وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام(٦٨) حدثني عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدُ بْنِ بُكَيْرٍ النَّاقِدِ: حَدَّثَنَا هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ أَبُو النَّضْرِ. حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللّهِ عَنْ شَيْءٍ. فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، الْعَاقِلُ، فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ. فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ الله أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «الله» قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الأَرْضِ؟ قَالَ: «الله» قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هٰذِهِ الْجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «الله». قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الأَرْضَ وَنَصَبَ هٰذِهِ الْجِبَالَ، آلله أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا، قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ. آلله أَمَرَكَ بِهٰذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا. قَالَ «صَدَقَ» قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ. آللَّهُ أَمَرَكَ بِهٰذَا؟ قَالَ «نَعَمْ» قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، الله أَمَرَكَ بِهٰذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً. قَالَ:

بينما كان الصحابة رضوان الله عليهم جلوسا مع النبي (ﷺ) وكان النبي (ﷺ) متكئا، جاء رجل على جمل، ودخل المسجد راكبا على جمله، ثم نزل من فوقه، وربط الجمل في المسجد، ثم جاء إلى الحضور وبدأ يسأل: أيكم محمد؟ قال الصحابة، هو ذلك الرجل الأشقر المتكئ. قال: ابنَ عبدِ المطَّلبِ؟. فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «قدْ أَجَبْتُكَ». فقال الرجلُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: إنِّي سائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عليكَ في المَسْألة، فلا تَجِدْ عليَّ في نَفْسكَ. فقال: «سَلْ عَمَّا بدا لك»، فقال: أسألُك بربِّك وربِّ من قَبْلَكَ، آللّهُ أرسلَكَ إلى الناسِ كلِّهمْ؟ فقال: «اللهُمَّ نَعم». قال: أَنْشُدُكَ باللّهِ، آللّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصلِّيَ الصلَواتِ الخمْسَ في اليومِ والليلة؟ قال: «اللهُمَّ نَعم». قال: أَنْشُدُكَ باللّهِ، آللّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصومَ هذا الشهرَ مِنَ السَّنَة؟ قال: «اللهُمَّ نَعم». قال: أَنْشُدُكَ باللّهِ، آللّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هذهِ الصَّدَقةَ منْ أغْنيائنا فتَقْسِمَها على فُقَرائنا؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «اللهُمَّ نَعم». فقال الرَّجُلُ: آمَنْتُ بما جِئْتَ بهِ، وأنا رسولُ مَنْ وَرائي مِن قَومي، وأنا ضِمامُ بنُ ثَعْلبةَ"(صحيح البخاري، كتاب الإيمان).[1].

«صَدَقَ». قَال، ثُمَّ وَلَّى. قَالَ: وَالَّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! لاَ أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُنَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ: «لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ».(المترجم).

[1] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (٦٣) حدَّثنا عبدُ اللّهِ بنُ يُوسُفَ قال: حدَّثنا الليثُ عنْ سعيدٍ ــ هو المَقْبُرِيُّ ــ عنْ شَرِيكِ بنِ عبدِ اللّهِ بنِ أبي نَمِرٍ أنَّه سَمِعَ أَنَسَ بنَ مالكٍ يقول: «بَيْنَما نحنُ جُلوسٌ معَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في المسجد، دَخَلَ رَجُلٌ على جَمَلٍ فأناخَهُ في المسجدِ ثمَّ عَقَلَهُ ثم قال لهم: أَيُّكُمْ محمد؟ ــ والنبيُّ صلى الله عليه وسلم مُتَكِّىءٌ بَيْنَ ظَهْرَانيهمْ ــ فقلنا: هذا الرجُلُ الأبيضُ المُتَّكِىءُ، فقال له الرجُل: ابنَ عبدِ المطَّلبِ؟. فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: قدْ أَجَبْتُكَ. فقال الرجلُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: إني سائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عليكَ في المَسْألة، فلا تَجِدْ عليَّ في نَفْسكَ. فقال: سَلْ عَمَّا بدا لك، فقال: أسألُك بربِّك وربِّ من قَبْلَكَ، آللّهُ أرسلَكَ إلى الناسِ كلِّهمْ؟ فقال: اللهُمَّ نَعم. قال: أَنْشُدُكَ باللّه، آللّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصلِّيَ الصلَواتِ الخمْسَ في اليومِ والليلة؟ قال: اللهُمَّ نَعم. قال: أَنْشُدُكَ باللّهِ، آللّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصومَ هذا الشهرَ مِنَ

أنظر قليلا إلى مشهد هذه البساطة وعدم التكلف وثروة اليقين، واستمع إلى واقعة أخرى للحب والفداء.

على أي حال وقعت هذه الأحداث بين هؤلاء البدو ورسول الله (ﷺ)، أما الصحابة الكرام، الذين نالوا شرف الفداء والتضحية لذلك النبي (ﷺ). حين كانوا يمرون على هؤلاء البدو؛ فكانوا يُثبتون لهم هذا الحب. ذات مرة فقد البراء بن عازب (رضي الله عنه) جمله، فخرج يبحث عنه حتى وصل إلى البدو، وحين علم البدو بأنه صحابي لرسول الله (ﷺ) فأقبلوا عليه لكونه من صحابة النبي (ﷺ). (سنن أبي داود، كتاب الحدود، ٢، صـ ١٤٩).

ميدان المعركة هو أكبر اختبار لوفاء الرعية وإخلاصها وحبها، فالرسول (ﷺ) قضى معظم حياته في ميدان المعركة، وقد حفظه وحماه أصحابه الكرام بحب بالغ، وبكل إخلاص أفدوه بأرواحهم، الأمر الذي لا يوجد له مثيل في تاريخ الروم وإيران. ففي صلح الحديبية حين جاء ممثل كفار قريش، وأخذ يتحاور مع الرسول (ﷺ)؛ فوقف الصحابي المغيرة بن شعبة (رضي الله عنه) خلف النبي (ﷺ)، وحين كان عروة يُحدث النبي (ﷺ)، فكان يمسك بلحية النبي (ﷺ) حسب عادة العرب، ولكن حين كانت تتقدم يده إلى لحية النبي (ﷺ)، كان المغيرة يبعدها بقبضة السيف ويقول: أخر يدك عن لحية رسول الله (ﷺ). تأثر عروة بصدق حب الصحابة للرسول الله، وحين ألتفت إلى بقية الصحابة فرآهم يأخذون

السَّنَةِ؟ قال: اللهُمَّ نَعم. قال: أَنْشُدُكَ باللّهِ، آللّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هذه الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنيائنا فتَقْسِمَها على فُقَرائنا؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: اللهُمَّ نَعم. فقال الرَّجُلُ: آمَنْتُ بما جِئتَ بهِ، وأنا رسولُ مَنْ وَرائي مِن قَومي، وأنا ضِمامُ بنُ ثَعْلبةَ، أخو بني سَعْدِ بنِ بَكر». رواه مُوسى وعليُّ بن عبدِ الحميدِ، عن سُلَيمانَ عن ثابتٍ عن أنسٍ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بهذا. (المترجم).

بصاقه (ﷺ) ويدلكون بها الوجه واليد تبركا. وإذا أمر الرسول بأي أمر؛ فيتسابق الجميع على تنفيذه، وإذا توضأ (ﷺ) كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له. شاهد عروة هذا المنظر وذهب إلى قومه وقال لهم: "لقد وفدت على ملوك كثيرين، ورأيك بلاط قيصر وكسرى والنجاشي، ولكني ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمداً، فإذا بصق، يأخذها محبوه بأيديهم ويدلكون بها الوجه واليد، وإذا أمرهم بأي شيء ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم محمد ساد الصمت وخفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له".(١)

---

(١) صحيح البخاري، ج ١، ص ٣٧، كتاب الشروط. وهذا نص الحديث كاملا: (٢٦٧٣) حدَّثني عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ حدَّثنا عبدُ الرزّاقِ أخبرَنا مَعْمرٌ قال: أخبرَني الزُّهريُّ قال: أخبرَني عُروةُ بنُ الزُّبَيرِ عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمةَ و مَروانَ ـ يُصدِّقُ كلُّ واحد منهما حديثَ صاحبِه ـ قالا: «خرَجَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم زمنَ الحُدَيبيةِ حتّى إذا كانوا ببعضِ الطريقِ قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: إنَّ خالدَ بنَ الوَليدِ بالغميم في خيلٍ لقُرَيشٍ طَليعةً، فخُذوا ذاتَ اليمين. فوَاللهِ ما شَعَرَ بهم خالدٌ حتّى إذا هم بقَتَرَةِ الجيشِ، فانطلَقَ يَرْكُضُ نَذيراً لقُريشٍ، وسارَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، حتّى إذا كان بالثَّنيَّةِ التي يُهبَطُ عليهم منها بَرَكَت به راحلتُه، فقال الناسُ: حَلْ حَلْ. فألحَّتْ. فقالوا خلأَت القَصواء. فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: ما خَلأَتِ القَصواء وما ذاك لها بخُلُق. ولكن حَبَسَها حابسُ الفيل. ثم قال: والذي نفسي بيدِه، لا يَسألونني خُطَّةً يُعظِّمون فيها حُرُماتِ اللهِ إلا أعطَيتُهم إياها. ثم زجَرَها فوثَبَتْ. قال فعَدَلَ عنهم حتّى نزَلَ بأقصى الحُدَيبيةِ على ثَمَدٍ قليلِ الماء يَتبرَّضُه الناسُ تَبرُّضاً، فلم يُلَبِّثْهُ الناسُ حتّى نزَحوهُ، وشُكِيَ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم العطشُ، فانتزَعَ سَهماً من كِنانتهِ، ثمَّ أمرَهم أن يَجعلوهُ فيهِ، فوَاللهِ ما زالَ يَجيش لهم بالرِّيِّ حتّى صدَروا عنه. فبينما هم كذلكَ، إذ جاءَ بُدَيلُ بنُ

وَرقاءَ الخُزاعيُّ في نفَر مِن قومه مِن خُزاعةَ ــ وكانوا عَيبةَ نُصحِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِن أهلِ تِهامةَ ــ فقال: إني تَركتُ كعبَ بنَ لُؤيٍّ وعامرَ بنَ لُؤيٍّ نزلوا أعدادَ مياهِ الحُدَيبيةِ، ومعَهمُ العُوذُ المَطافِيلُ، وهم مُقاتِلوكَ وصادُّوكَ عن البيتِ. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: إنّا لم نَجِيء لقتالِ أحدٍ، ولكنّا جئنا مُعْتمرينَ، وإنَّ قُرَيشاً قد نَهِكَتْهُم الحربُ وأضرَّتْ بهم، فإن شاؤوا مادَدْتُهم مُدَّةً ويُخلُّوا بَيني وبينَ الناسِ، فإن أظهَرْ فإن شاؤوا أن يَدخُلوا فيما دَخَل فيه الناسُ فعلوا، وإلاّ فقد جَمُّوا. وإنْ هم أبَوا فوَالذي نفسي بيدِهِ لأُقاتِلَنَّهم على أمري هٰذا حتّى تَنفَرِدَ سالِفَتي، ولَيُنْفِذَنَّ اللهُ أمرَه. فقال بُدَيلٌ: سأُبَلِّغُهم ما تقولُ. قال فانطَلَقَ حتّى أتىٰ قُرَيشاً قال: إنّا جئناكم مِن هٰذا الرَّجُلِ، وسمعناه يقولُ قَولاً، فإنْ شئتم أنْ نَعرِضَهُ عليكم فعلْنا. فقال سُفَهاؤهم: لا حاجةَ لنا أن تُخْبِرونا عنهُ بشيء. وقال ذَوُو الرأيِ منهم: هاتِ ما سمِعتَهُ يقول. قال سمعتُهُ يقولُ كذا وكذا. فحدَّثَهُم بما قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم. فقامَ عُروةُ بنُ مَسعودٍ فقال: أيْ قومِ، ألستُم بالوالد ؟ قالوا: بلىٰ. قال: أولَستُ بالولَدِ ؟ قالوا: بلىٰ. قال: فهل تَتَّهِمونَني ؟ قالوا: لا. قال: ألستُم تَعلمونَ أنّي استَنفَرْتُ أهلَ عُكاظَ، فلمّا بَلَّحوا عليَّ جِئتُكم بأهلي وولَدي ومَن أطاعَني ؟ قالوا: بلىٰ. قال: فإنَّ هٰذا قد عَرَضَ عليكم خُطَّةَ رُشدٍ اقبلوها ودَعوني آتِيه. قالوا: ائتِه.فأتاهُ، فجعلَ يُكلِّمُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم نَحواً مِن قَوله لِبُدَيل. فقال عُروةُ عندَ ذٰلكَ: أيْ محمدُ، أرأيتَ إنِ استَأْصلْتَ أمرَ قَومِكَ، هل سمعتَ بأحَدٍ منَ العَرَبِ اجْتاحَ أهلَهُ قبلَكَ ؟ وإنْ تَكُنِ الأخرىٰ، فإني واللهِ لا أرَى وُجوهاً، وإني لأرَى أشواباً مِنَ الناسِ خَليقاً أنْ يَفِرُّوا ويَدَعوك، فقال لهُ أبو بكرٍ: امْصصْ بِبَظْرِ اللاتِ، أنحنُ نَفِرُّ عنه ونَدَعُهُ ؟ فقال: مَن ذا ؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نَفْسي بيدِه، لَوْلا يَدٌ كانتْ لكَ عندي لم أجْزِكَ بها لأجَبْتُك. قال: وجعلَ يُكلِّمُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فكلّما تَكلَّم كلمةً أخَذَ بلِحْيَتِه، والمغيرةُ بنُ شُعبةَ قائمٌ على رأسِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ومعَهُ السَّيفُ وعليهِ المِغْفَر، فكلما أهْوَىٰ عُروةُ بيدِه إلىٰ لِحيةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ضَرَبَ يَدَهُ بنَعْلِ السيفِ وقال له: أخِّرْ يدَكَ عن لِحيةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم. فرفَعَ عُروةُ رأسَهُ فقال: مَن هٰذا ؟ قال: المغيرةُ بنُ شُعبة.

فقال: أيْ غُدَر، ألستُ أسعىٰ في غَدْرتِكَ ؟ وكان المغيرةُ صَحِبَ قوماً في الجاهليةِ فقتلهم وأخذَ أموالَهم ثمَّ جاء فأسلم.

فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: أمّا الإسلام فأقبلُ وأما المال فلستُ منهُ في شيء. ثمَّ إنَّ عُروةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أصحابَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بعَيْنَيه. قال فوَالله ما تَنَخَّمَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم نُخامةً إلاَّ وقَعَتْ في كفِّ رجُلٍ منهم فدَلَكَ بها وَجهَهُ وجِلْدَه، وإذا أمرَهُم ابتَدَرُوا أمرَه، وإذا تَوَضَّأَ كادُوا يَقْتَتِلونَ على وَضُوئه، وإذا تَكلموا خَفَضوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّونَ إليهِ النَّظرَ تَعظيماً لهُ. فرجعَ عُروةُ إلى أصحابه فقال: أيْ قَومِ، والله لقَد وفَدْتُ على المُلوكِ، ووَفدتُ على قَيصَرَ وكِسرَى والنَّجاشيِّ، واللهِ إنْ رأيتُ مَلِكاً قطُّ يُعظِّمهُ أصحابهُ ما يعظم أصحابُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم محمداً، واللهِ إنْ يَتَنَخَّمُ نُخامةً إلاَّ وقَعَت في كفِّ رجُلٍ منهم فدَلَكَ بها وَجهَه وجِلدَه، وإذا أمرَهم ابتَدروا أمرَه، وإذا تَوَضَّأَ كادوا يَقتَتِلونَ على وَضوئِه، وإذا تكلموا خَفَضوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّونَ إليهِ النَّظرَ تَعظيماً له. وإنهُ قد عَرَضَ عليكم خُطَّةَ رُشْدٍ فاقبَلوها. فقال رجُلٌ من بني كِنانةَ: دَعوني آتيه، فقالوا: ائتِه. فلمَّا أشرَفَ على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابِه قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: هٰذا فُلانٌ، وهوَ مِن قومٍ يُعَظِّمون البُدْنَ، فابْعَثوها له، فبُعِثَتْ لهُ، واستقْبَلَهُ الناسُ يُلَبّونَ. فلما رأى ذٰلكَ قال: سُبحانَ الله، ما ينبغي لِهؤُلاءِ أن يُصَدُّوا عنِ البيتِ. فلما رَجعَ إلى أصحابه قال: رأيتُ البُدْنَ قد قُلِّدَتْ وأُشعِرتْ، فما أرَى أن يُصَدُّوا عنِ البيت. فقامَ رجُلٌ منهم يُقالُ لهُ مِكرَزُ بنُ حَفصٍ فقال: دَعوني آتِيه. فقالوا: ائتِه. فلما أشرَفَ عليهم قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: هٰذا مِكرَزٌ، وهوَ رجُلٌ فاجِر. فجعَلَ يُكلِّمُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم. فبينما هوَ يُكلِّمُهُ إذ جاءَ سُهَيلُ بنُ عمرٍو. قال مَعْمَرٌ: فأخبرَني أيُّوبُ عن عكرمةَ أنه لما جاءَ سُهَيلُ بنُ عمرٍو قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: قد سَهُلَ لكم من أمرِكم. قال مَعمرٌ قال الزُّهريُّ في حديثه: فجاءَ سُهَيلُ بنُ عمرو فقال: هاتِ اكتُبْ بيننا وبينَكم كتاباً. فدَعا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الكاتِبَ، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيم» فقال سُهيلٌ: أما «الرحمٰنُ» فوَاللهِ ما أدري ما هي، ولَكنِ اكتُبْ «باسمِك اللّهمَّ»

كما كنتَ تكتبُ، فقال المسلمونَ: واللهِ لا نكتبُها إلا «بسمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الـرحيم»، فقـال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: اكتُبْ «باسمِكَ اللّهمَّ». ثم قال: «هٰذا ما قاضىٰ عليهِ محمـدٌ رسولُ الله» فقال سُهيلٌ واللهِ لو كنّا نَعلمُ أنكَ رسولُ اللهِ ما صَدَدْناكَ عـنِ البيـتِ ولا قاتَلْناكَ، ولكنِ اكتُبْ «محمدُ بنُ عبدِ اللهِ»، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسـلم: واللهِ إنّـي لَرسولُ اللهِ وإنْ كذَّبتُموني، اكتُبْ «محمدُ بنُ عبدِ الله» قال الزُّهريُّ: وذٰلك لقولـهِ: «لا يسألونني خُطّةً يُعظِّمونَ فيها حُرُماتِ اللهِ إلاَّ أعطَيتُهم إيّاها» فقال له النَّبـيُّ صـلى الله عليه وسلم: علىٰ أن تُخلُّوا بينَنا وبينَ البيتِ فنَطوفَ به. فقال سُـهَيلٌ: واللهِ لا تتحـدَّثُ العَرَبُ أنا أُخِذْنا ضُغْطةً، ولكنْ ذٰلكَ منَ العامِ المقبلِ، فكتبَ، فقالَ سُهيلٌ: وعلىٰ أنـه لا يأتيكَ منّا رجُلٌ ــ وإنْ كان على دينِكَ ــ إلا رَدَدْتَهُ إلينا. قال المسلمون: سُـبحانَ اللهِ، كيفَ يُرَدُّ إلى المشركينَ وقد جاءَ مُسلماً ؟ فبينما هم كذٰلك إذ دَخلَ أبو جَنْدَلِ بنُ سُـهيلِ بنِ عمرٍو يَرسُفُ في قيودِه، وقد خَرَجَ مِن أسفَلِ مكةَ حتّى رَمىٰ بنفَسِهِ بَـينَ أظهُـرِ المسلمين، فقالَ سُهَيلٌ: هذا يا محمدُ أوّلُ مَن أُقاضيكَ عليه أن تَرُدَّهُ إليَّ. فقـال النَّبـيُّ صلى الله عليه وسلم: إنا لم نَقضِ الكتابَ بعدُ. قال: فواللهِ إذاً لم أصالحْكَ علـى شـيءٍ أبداً. قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: فأجِزْهُ لي، قال: ما أنا بمجيزِهِ لـكَ، قـال: بلـى فافعَلْ، قال: ما أنا بفاعل. قال مِكْرَزٌ: بل قد أجَزْناهُ لك. قال أبـو جَنـدل: أيْ مَعـشَرَ المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركينَ وقد جِئتُ مُسلماً ؟ ألا تَرَونَ ما قد لَقيت ؟ وكان قد عُذِّبَ عَذاباً شَديداً في الله. قال: فقال عمرُ بنُ الخَطابِ: فأتيتُ نبيَّ اللهِ صلى الله عليه وسـلم فقلتَ: ألستَ نبيَّ اللهِ حقّاً ؟ قال: بلىٰ. قلت: ألَسنا علىٰ الحقِّ وعدوُّنا على الباطلِ ؟ قال: بلىٰ. قلت: فلم نُعطِي الدَّنيَّةَ في دينِنا إذاً ؟ قال: إنّي رسولُ اللهِ ولستُ أعـصيهِ، وهـوَ ناصِري. قلت: أوَليسَ كنتَ تحدِّثُنا أنّا سنأتي البيت فنَطُوفُ به ؟ قال: بلىٰ، فأخبرتُكَ أنّا نأتيهِ العامَ ؟ قال: قلتُ: لا. قال فإنَّكَ آتيهِ ومُطَوِّفٌ به. قال: فأتيت أبا بكرٍ فقلتُ: يا أبا بكرٍ، أليس هٰذا نبيَّ اللهِ حَقّاً ؟ قال: بلىٰ. قلتُ: ألسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطـل ؟ قال: بلىٰ. قلتُ: فلم نُعطِي الدَنيّةَ في دينِنا إذاً ؟ قال: أيّها الرجُلُ، إنهُ لَرسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وليسَ يَعصِي ربَّه، وهوَ ناصِرُه، فاستَمْسِكْ بغَرْزِهِ فوَاللهِ إنهُ على الحقِّ.

قلتُ: أليسَ كانَ يُحدِّثُنا أنّا سنأتي البيتَ ونَطوفُ به ؟ قال: بلىٰ، أفأخبَرَكَ أنكَ تأتيه العامَ ؟ قلت: لا. قال: فإنكَ آتيه ومُطوِّفٌ به. قال الزُّهري قال عمر: فعملتُ لذلكَ أعمالاً.

قال: فلما فرَغَ من قضيةِ الكتاب قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قوموا فانحرُوا ثمَّ احْلقوا. قال: فوَالله ما قامَ منهم رجُلٌ، حتى قال ذٰلكَ ثلاثَ مرّاتٍ، فلمّا لم يَقُمْ منهم أحدٌ دَخلَ على أُمِّ سَلمةَ فذكَرَ لها ما لقيَ منَ الناسِ، فقالت أُمُّ سَلمةَ: يا نبيَّ الله أتُحبُّ ذٰلك ؟ اخرُجْ، ثمَّ لا تُكلِّمْ أحداً منهم كلمةً حتى تَنْحَرَ بُدْنَك، وتَدْعو حالقَكَ فيَحلقَكَ. فخرَجَ فلم يُكلِّمْ أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحرَ بُدْنَهُ، ودَعا حالقَهُ فحلقَه. فلما رأوا ذٰلكَ قاموا فنَحروا، وجَعلَ بعضُهم يَحلِقُ بعضاً، حتى كادَ بعضُهم يَقتُلُ بعضاً غمّاً. ثمَّ جاءَهُ نسْوةٌ مُؤمِناتٌ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ: {يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا جَـآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـاتُ مُهَـاجِرَاتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ـ حتَّى بَلَغَ ـ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ} (الممتحنة: ١٠) فطلَّقَ عمرُ يَومَئذٍ امرأتَين كانتا لهُ في الشِّرك، فتزَوَّجَ إحداهما مُعاويةُ بنُ أبي سُفيانَ والأخرىٰ صَفوانُ بنُ أُميةَ. ثمَّ رجَعَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينةِ، فجاءهُ أبو بَصيرٍ رجُلٌ من قُريشٍ وهوَ مُسلم، فأرسَلوا في طَلَبهِ رجُلَينِ فقالوا: العَهدَ الذي جعلتَ لنا، فدفعَهُ إلى الرَّجُلَين، فخرجا بهِ حتّى بلغا ذا الحُلَيفة، فنزلوا يأكلونَ من تمرٍ لهم، فقال أبو بَصيرٍ لأحدِ الرَّجلَين: واللهِ إني لأرَى سيفَكَ هٰذا يا فُلانُ جيِّداً، فاستلَّهُ الآخَرُ فقال: أجَلْ واللهِ إنهُ لجَيِّدٌ، لقد جَرَّبتُ بهِ ثمَّ جَرَّبتُ. فقال أبو بَصيرٍ: أرني أنظُرْ إليهِ، فأمكَنَهُ منه، فضَرَبه حتّى بَرَد، وفرَّ الآخَرُ حتى أتىٰ المدينةَ، فدَخَلَ المسجدَ يَعْدو، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حينَ رآهُ: لقد رأى هٰذا ذُعْراً، فلما انتهىٰ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: قُتِلَ واللهِ صاحبي وإني لمقتول. فجاءَ أبو بَصيرٍ فقال: يا نبيَّ الله، قد واللهِ أوفىٰ اللهُ ذمَّتَك قد ردَدْتَني إليهم، ثمَّ أنجاني اللهُ منهم. قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «وَيلُ امِّه مِسْعَرَ حَرب لو كان له أحد، فلما سمعَ ذلكَ عَرفَ أنهُ سيَرُدُّهُ إليهم؛ فخرَجَ حتّى أتى سِيفَ البحرِ. قال: ويَنفلتُ منهم أبو جَندَلِ بنُ سُهيلٍ فلَحقَ بأبي بَصير، فجعَلَ لا يَخرجُ من قُرَيشٍ رجُلٌ قد أسلَم إلا لَحِقَ بأبي بصيرٍ، حتى اجتمعَتْ منهم عِصابةٌ، فوَالله ما يَسمعونَ بعِيرٍ خرَجَتْ لقُرَيشٍ إلى الشَّأمِ إلا اعتَرضوا لها. فقتلوهم وأخذوا أموالَهم.

حين تشاور النبي (ﷺ) مع الأنصار فيما يتعلق بغزوة بدر، فإن ما تلفظ به سيدنا سعد بن عبادة (ﷺ) لهو أكبر دليل على الإخلاص والحب والوفاء، إذ قال:

إِيَّانَا تُرِيدُ؟ يَا رَسُولَ اللّهِ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَىٰ بَرْكِ الْغِمَادِ [١] لَفَعَلْنَا (صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة بدر).[٢]

فأرسلَتْ قريشٌ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم تُناشِدُهُ اللهَ والرَّحِمَ لما أرسلَ فمن أتاهُ فهوَ آمِنٌ فأرسلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إليهم، فأنزلَ الله تعالى: {وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ـ حتَّى بلَغَ ـ الحميَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ} (الفتح: ٢٤) وكانت حميَّتهم أنهم لم يُقرُّوا أنهُ نبيُّ اللهِ، ولم يُقرُّوا ببسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيم، وحالوا بينهم وبينَ البيتِ».

قال أبو عبد اللهِ: معرَّةُ العُرِّ: الجرَبُ. تَزَيَّلوا: انمازوا. وحميتُ القومَ: منَعتُهم حمايةً. وأحمَيْتُ الحِمىٰ: جعلتُه حِمى لا يُدْخَل. وأحميتُ الرَّجُلَ إذا أغضبتَه إحْماءً. (المترجم).

(١) اسم مكان تجاه اليمن.

(٢) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة بدر: (٤٥٧٦) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ: حَدَّثَنَا عَفَّانُ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللّهِ شَاوَرَ، حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ. قَالَ: فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ؟ يَا رَسُولَ اللّهِ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَىٰ بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا. قَالَ: فَنَدَبَ رَسُولُ اللّهِ النَّاسَ، فَانْطَلَقُوا حَتَّىٰ نَزَلُوا بَدْراً، وَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ رَوَايَا قُرَيْشٍ، وَفِيهِمْ غُلاَمٌ أَسْوَدُ لِبَنِي الْحَجَّاجِ، فَأَخَذُوهُ. فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللّهِ يَسْأَلُونَهُ، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَصْحَابِهِ؟ فَيَقُولُ: مَا لِي عِلْمٌ بِأَبِي سُفْيَانَ. وَلَكِنْ هَـٰذَا أَبُو جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ، ضَرَبُوهُ. فَقَالَ: نَعَمْ، أَنَا أُخْبِرُكُمْ، هَـٰذَا

وفي غزوة أحد حين أشرف النبي (ﷺ) ليرى جمع الكفار، فمنعه سيدنا أبو طلحة بألفاظ كلها حب وصدق، إذ قال:

بأبي أنتَ وأمي، لا تُشرفْ يُصِبْكَ سهمٌ من سِهام القوم، نَحرِي دُونَ نحرِك (صحيح البخاري، كتاب المغازي، غزوة أحد).[1]

خلاصة القول هو أن هذه وقائع حدثت بين النبي (ﷺ) وصحابته الكرام والذين حين ذهبوا إلى الشعوب الأخرى، وجدوا منهم هذا الحب، إذ أن البساطة والعدل كانا واضحين عند عمال النبي (ﷺ) لدى الشعوب الأخرى، لذا كان الناس يلتفون حولهم. بعد فتح خيبر عيّن النبي (ﷺ) سيدنا عبد الله بن رواحة

أَبُو سُفْيَانَ. فَإِذَا تَرَكُوهُ فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: مَا لِي بِأَبِي سُفْيَانَ عِلْمٌ. وَلَكِنْ هَذَا أَبُو جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ فِي النَّاسِ، فَإِذَا قَالَ هَـٰذَا أَيْضاً ضَرَبُوهُ، وَرَسُولُ اللّه قَائِمٌ يُصَلِّي، فَلَمَّا رَأَىٰ ذٰلِكَ انْصَرَفَ. قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَضْرِبُوهُ إِذَا صَدَقَكُمْ، وَتَتْرُكُوهُ إِذَا كَذَبَكُمْ». قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللّه: «هَـٰذَا مَصْرَعُ فُلاَنٍ» قَالَ: وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الأَرْضِ، هَـٰهُنَا وَهَـٰهُنَا. قَالَ: فَمَا مَاطَ أَحَدُهُمْ، عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللّه. (المترجم).

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد: (٣٩٧٥) حدَّثنا أبو مَعْمرٍ حدَّثنا عبدُ الوارثِ حدَّثنا عبدُ العزيز عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه قال: «لما كان يوم أحُدٍ انهزمَ الناسُ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأبو طلحةَ بينَ يدَي النبيِّ صلى الله عليه وسلم مُجوَّبٌ عليهِ بحجَفةٍ له، وكان أبو طلحةَ رجلا رامياً شديدَ النزعِ، كسر يومَئذ قوسَين أو ثلاثاً، وكان الرجلُ يَمرُّ معه بجعْبةٍ من النَّبل فيقول: انثُرها لأبي طلحةَ. قال: ويُشرِفُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَنظرُ إلى القوم، فيقولُ أبو طلحة: بأبي أنتَ وأمي، لا تُشرفْ يُصِبْكَ سهمٌ من سِهام القوم، نَحري دُونَ نحرِك. ولقد رأيتُ عائشةَ بنتَ أبي بكرٍ وأُمَّ سُليم وإنهما لمشمَّرَتان أرَى خَدَمَ سُوقهما تُنقزانِ القِرَبَ على متونهما تُفرغانهِ في أفواهِ القوم، ثمَّ ترجعان فتَملآنِها، ثم تجيئانِ فتُفرِغانهِ في أفواه القوم. ولقد وقعَ السيفُ من يدَي أبي طلحةَ إما مرَّتين وإما ثلاثاً». (المترجم).

رضي الله عنه لتقسيم محصولهم. وحين ذهب إليها، وأراد (تخمينا) أخذ مقداراً خاصا من كل نخلة، وعليه قال اليهود: أَكْثَرْتَ عَلَيْنَا يَا ابْنَ رَوَاحَةَ، قالَ: فَأَنَا إلى حَزْرِ النَّخْلِ وَأُعْطِيكُمْ نِصْفَ الَّذِي قُلْتُ. تأثر اليهود بهذا العدل تأثراً كبيراً وقالوا جميعا معا:

«هذَا الْحَقُّ وَبِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ قَدْ رَضِينَا أَنْ نَأْخُذَهُ بِالَّذِي قُلْتَ» [1]

ورد في فتوح البلدان للبلاذرى أن اليهود أرادوا رشوته، ولكنه (ﷺ) قال: أيا أعداء الله أتريدون أن تطعموني حراما! والله لقد جئت من قِبل رجل لهو أحد الخلق، ولأنتم مبغوضون عندي أكثر من القردة والخنازير، ولكن عداوتكم لا تحيدني عن طريق العدل. وهنا قال اليهود جميعا: هذا الحق به تقوم السماء والأرض.[2]

---

[1] سنن أبي داود، ج ٢، صـ ٥٧، كتاب البيوع. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن أبي داود: (٣٤١١) حدثنا أَيُّوبُ بنُ مُحَمَّدٍ الرَّقِّيُّ أخبرنا عُمَرُ بنُ أَيُّوبَ أخبرنا جَعْفَرُ بنُ بُرْقَانَ عن مَيْمُونِ بنِ مِهْرَانَ عن مِقْسَمٍ عن ابنِ عَبَّاسٍ، قال: « افْتَتَحَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم خَيْبَرَ وَاشْتَرَطَ أَنَّ لَهُ الأَرْضَ وَكُلَّ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ. قالَ أَهْلُ خَيْبَرَ: نَحْنُ أَعْلَمُ بِالأَرْضِ مِنْكُمْ فَأَعْطِنَاهَا عَلَى أَنَّ لَكُم نِصْفَ الثَّمَرَةِ وَلَنَا نِصْفٌ، فَزَعَمَ أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ حِينَ يُصْرَمُ النَّخْلُ بَعَثَ إِلَيْهِمْ عَبْدَ الله بنَ رَوَاحَةَ فَحَزَرَ عَلَيْهِمْ النَّخْلَ وَهُوَ الَّذِي يُسَمِّيهِ أَهْلُ المَدِينَةِ الْخَرْصَ، فَقالَ في ذِهْ كَذَا وَكَذَا قالُوا: أَكْثَرْتَ عَلَيْنَا يَا ابْنَ رَوَاحَةَ، قالَ: فَأَنَا إلى حَزْرِ النَّخْلِ وَأُعْطِيكُمْ نِصْفَ الَّذِي قُلْتُ، قَالُوا: هٰذَا الْحَقُّ وَبِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ قَدْ رَضِينَا أَنْ نَأْخُذَهُ بِالَّذِي قُلْتَ». (المترجم).

[2] فتوح البلدان، للبلاذرى، طبعة أوروبا، صـ ٣١.

العلاقة بين الدين والدولة

يوجد في هذا الوقت نوعان من الدولة في العالم، النوع الأول فيه الدولة منفصلة تماما عن الدين، وقيل أعطوا ما لقيصر لقيصر، وأعطوا مـــا لله لله [١]، في هذا المبدأ أُفترض أن قيصر والإله شخصيتان متضادان، وحكـم إحـــداهما منفصل تماما عن الآخر. وعليه أُسست دول أوروبا الحالية، وعليه أيضا جُعـــل حدين منفصلين للدين والدنيا، وفتح عنه أن خلت هذه الدول من حب الله، ومـــن التدين، ومن الصدق وإخلاص النية.

أما النوع الثاني من الدولة ففيه لم يُفصل الدين عن الدولة، ولكـــن روح الدين الرقيقة واللينة رُبطت بحبال القوانين والضوابط السلطانية بدرجة جعلـــت رقة ولين الدين تغيب، وحل محلها جفاء القوانين. وأفـــضل مثـــال علـــى هـــذا اليهودية والبرهمنية.[٢]

والحقيقة هي أن الدين الإلهي واحد، كان واحد منذ الأزل، وسيبقى واحداً إلى الأبد، ألا وهو الإسلام. يقول الحق تبارك وتعالى **﴿إِنَّ الـــدِّينَ عِنـــدَ اللَّـــهِ الإِسْلامُ﴾** (آل عمران: ١٩).

قد شُرحت وفُسرت جامعية هذا الدين بوجهات مختلفة، كما يمكن تفسيرها بوجهات أخرى. ومن بين وجهات النظر هذه أن الإسلام مجموعة معتدلة للدين والدولة، فهو دين ودولة وفي الوقت ذاته دولة ودين، وهذه الدولة دولة إلهيـــة. وتفصيل هذا الإجمال هو أنه ليس هناك أي وجود لقيصر في هذه الدولة الإلهية،

---

(١) الإنجيل.

(٢) الهندوسية (المترجم).

سُلم فيها بحاكم واحد فقط هو الأعلى والآمر فهو حاكم على الإطلاق وملك قادر مطلق وهو الله سبحانه وتعالى.

له وحده (سبحانه) الملك، وله وحده (سبحانه) الأمر، عنه فقط يَصدر الأمر، ويُعترف بأمر وحكم الحكام والآمرين المجازيين حين يكون مطابقا للحكم والأمر الإلهي، أو يكون مبنى عليه، وألا يكون مخالفاً له على الأقل. ومحمد (ﷺ) آخر داع لهذا الدين، وآخر نبي ورسول، وهو نفسه (ﷺ) أول حاكم وأمير لهذه الدولة (الإلهية) وطاعة أوامره طاعة لله تعالى. يقول الله تعالى:

﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠).

وُجد هذا الاتحاد بين الدين والدنيا بعد وفاة الرسول (ﷺ) أيضا عند خلفائه (ﷺ) واحد بعد الآخر، فكما كانوا أمراء وحكام للمسلمين وحكاما لدولتهم، كانوا أيضا أئمة لهذا الدين وهداة ومجتهدين، وكان تنفيذ أوامرهم تنفيذاً لأوامر النبي (ﷺ) ذاته. وأوامر حكام المسلمين الآن أيضا واجبة التنفيذ على كل مسلم طالما لا تخالف أوامر الله ورسوله يقول النبي (ﷺ):

من أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصي أميري فقد عصاني[١].

إن اتحاد الدين والدولة هذا هو عين اهتمام الإسلام، وإن عمل الدولة المطابق لأمر الله تعالى وبغرض رضا الله تعالى هو الدين نفسه والعبادة نفسها، وخدمة الأمراء لرعاياهم وطاعة الرعية لأمرائهم وحكامهم طاعة لله، بشرط أن

---

[١] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (٦٩٧٩) حدَّثنا عبدانُ أخبرَنا عبدُ الله عن يونسَ عنِ الزهريِّ أخبرني أبو سلمةَ بن عبد الرحمن أنه سمعَ أبا هريرةَ رضيَ اللهُ عنه يقول: أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَن أطاعني فقد أطاعَ اللهَ ومن عصاني فقد عصى اللهَ، ومن أَطاعَ أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني». (المترجم).

تكون نيتهما وغرضهما تنفيذاً لأوامر الله تعالى خلاصة القول هو أنه لا يوجد تفريق بين الدين والدولة في نظر الإسلام طبقا لنوعية العمل بل لغرضه وغايته، وعليه فإن العمل الذي يتعلق بالسياسة والدولة، ويكون لله ومن أجل نيل رضاه سبحانه وتعالى، ومطابقا لأوامره سبحانه وتعالى يكون من الدين. فإمامة الإمام، وخلافة الخليفة، ورعية الراعي، وولاية الوالي، وإمارة الأمير، وحكومة الحاكم، ومسئولية الرعية، وعدل القاضي، وعمل العامل، وقتال الجند، وجهاد المجاهدين، وأداء الخراج، ووجوب طاعة الأمراء، وأي عمل آخر يتعلق بأي إدارة من إدارات الدولة يكون مطابقا لأوامر الله سبحانه وتعالى يكون من الدين والطاعة وموجب للقرب من الله تعالى. لو يترك السلاطين أمور سلطنتهم، والأمراء أمور إمارتهم، وترك كل مسئول مسئوليته ويجلس في زاوية، ويقضي ليله ونهاره في عبادة الله، فهذه ليست عبادة خالصة (بالمعنى الصحيح). ولكن العبادة الأفضل هي أن يرعى (كل إنسان) مسئوليته، ويؤدي الفروض والمهام المنوطة به بإخلاص. إن قصة داود عليه السلام التي وردت في سورة ص، والتي فيها ذكر لبعض المستغيثين الذين وثبوا من على الجدار ودخلوا على داود عليه السلام وهو يتعبد في صومعته، وعرضوا قضية عليه جعل منها الرواة قصة خرافية في حين أن تنبيه داود عليه السلام يدخل في باب أن أفضل عبادة للخليفة أو الحاكم بعد القيام بمسئوليته وفروضه ومهامه هي خدمة الرعية، وتحقيق العدل في شئونها، والإشراف على أعمالها ومتابعته، وهذا هو معنى الإحساس بالفرض والمسئولية التي نبه الله تعالى داود عليه السلام إليها. يقول الله تعالى:

﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾(سورة ص:٢٤ : ٢٦).

يتضح بين الترابط والتناسق بين الآيات السابقة أن سيدنا داود عليه السلام ترك مهام السلطنة والفصل في القضايا وأغلق باب دار عبادته، وانشغل بعبادة الله تعالى، فنبهه الله سبحانه وتعالى إلى هذا وأخبره بأن فرض الخليفة ومسئوليته هي أن ينشغل بأداء مهام الخلافة ومسئولياتها طبقا للأحكام الإلهية.

ورد في حديث في جامع الترمذي والمستدرك للحاكم وكأنه تفسير هذه الآية أن النبي (ﷺ) قال:

«ما من إمام يغلق بابه من ذوي الحاجة والخلة والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته» (جامع الترمذي، أبواب الأحكام، ٢٢٧)[1].

---

(١) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن الترمذي: (١٣٣٠) حدثنا أَحْمَدُ بنُ مَنِيعٍ، حدَّثَنا إِسْمَاعِيلُ بنُ إِبْرَاهِيمَ، قال حَدَّثَنِي عَلِيُّ بنُ الْحَكَمِ، حدثني أَبُو الْحَسَنِ قَالَ: قَالَ عَمْرُو بْنِ مُرَّةَ لِمُعَاوِيَةَ:: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله يَقُولُ: «مَا مِنْ إِمَامٍ يُغْلِقُ بَابَهُ دُونَ ذَوِي الْحَاجَةِ والخَلَّةِ وَالمَسْكَنَةِ، إلاَّ أَغْلَقَ الله أَبْوَابَ السَّمَاءِ دُونَ خَلَّتِهِ وَحَاجَتِهِ وَمَسْكَنَتِهِ. فَجَعَلَ مُعَاوِيَةُ رَجُلاً عَلَى حَوَائِجِ النَّاسِ».

قال وفي الْبَابِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ.

قال أبو عيسى حَدِيثُ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ وقَدْ رُوِيَ هٰذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ هٰذَا الْوَجْهِ. وَعَمْرُو بْنُ مُرَّةَ الْجُهَنِيُّ، يُكْنَى أَبَا مَرْيَمَ. (المترجم).

«من ولى من أمر المسلمين شيئا فاحتجب دون خلتهم وحاجتهم وفقرهم وفاقتهم احتجب الله عز وجل يوم القيامة دون خلته وفاقته وفقره» (المستدرك للحاكم، كتاب الأحكام، ٧٤٢ صـ ٩٣، حيدر آباد).[١].

حرص الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم على إتباع هذه الأحكام لدرجة أنهم لم يقيموا جداراً من طوب لبني أو جيرى يَحُول بينهم وبين الرعية في طلب حقها كما لم يتخذوا أي حجاب لهم سوى خادم يستأذن للرعية (بالدخول).[٢] بني سيدنا سعد بن أبي وقاص (ﷺ) منزلا كبيراً ليسكن فيه حين كان واليا على الكوفة في عهد سيدنا عمر (ﷺ)، وجعل له بوابة كبيرة. حين علم سيدنا عمر (ﷺ) بهذا فأرسل له بصفة خاصة سيدنا محمد بن مسلمة (ﷺ) من المدينة وأمره بأن يحرق هذه البوابة ويعود، ففعل ما أُمر به. فقد سافر إلى الكوفة وقطع مئات الأميال وبمجرد أن وصل أشعل النيران في هذه البوابة وأراد سيدنا سعد بن أبي وقاص (ﷺ) أن يمكث عنده، ولكنه لم يقبل، ورجع إلى المدينة من فوره. (مسند ابن حنبل، ج ١، صـ ٥٤، مصر).

---

(١) وقد ورد هذا الحديث في سنن أبي داود: (٢٩٥٠) حدثنا سُلَيْمَانُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدِّمَشْقِيُّ أخبرنا يَحْيَى بنُ حَمْزَةَ قالَ حدَّثني ابنُ أبي مَرْيَمَ أنَّ الْقَاسِمَ بنَ مُخَيْمَرَةَ أخْبَرَهُ أنَّ أبَا مَرْيَمَ الأزْدِيَّ، أخبَرَهُ قالَ: « دَخَلْتُ عَلَى مُعَاوِيَةَ فقالَ مَا أنْعَمَنَا بِكَ أبَا فُلاَنُ وَهِيَ كَلِمَةٌ تَقُولُهَا الْعَرَبُ فَقُلْتُ: حَدِيثاً سَمِعْتُهُ أُخْبِرُكَ بِهِ سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: مَنْ وَلاَّهُ الله عَزَّوَجَلَّ شَيْئاً مِنْ أمْرِ المُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ احْتَجَبَ الله عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ قالَ فَجَعَلَ رَجُلاً عَلَى حَوَائِجِ النَّاسِ». (المترجم).

(٢) لما كان الاستئذان قبل الدخول في أي بيت واجبا في الإسلام؟ لذا كان الرسول (ﷺ) ومن بعده الخلفاء الراشدون يعينون خدّاما على أبواب البيوت، أما فيما يتعلق بالأماكن العامة والمساجد والمحاكم فلا إذن فيها، ومن ثم لا حاجة لمثل هؤلاء الخدم.

بني الأمير معاوية (ﷺ) في عهد خلافته بوابة كبيرة لقصره خشية من هجوم المغيرين، وحين أطلعه صحابي على هذا الأمر النبوي، فعين رجلا على هذه البوابة بهدف أن يستمع إلى حاجة من يأتيه ويطلع الخليفة (معاوية) بها. (سنن الترمذي، أبواب الأحكام).

ورد في القرآن الكريم في أكثر من آية التأكيد على التزام الحكام بالعدل وأداء مسئوليتهم والفروض والمهام الواجبة عليهم. والآيات التالية تُوضح فروض ومسئولية الحكام. يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء: ٥٨ - ٥٩).

لهذه الآيات الكريمة حيثية ومكانة أساسية في باب دستور وقانون الدولة الإسلامية، وهو ما سنتحدث عنه تفصيلا في موضعه يطلق الجزء الأول من الآية الكريمة على الحكام أيضا من حيث معناها حسبما خرج به المفسرون بإن إعطاء كل ذي حق حقه هو أعلى درجات الأمانة وأول فرض على الحكومة. ويقول الله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٩).

وهناك آيات أخرى تُوضح وجوب العدل كله في أداء الحقوق، ووجوب إقامة الوزن للآخرين بذات الميزان الذي نزن به لأنفسنا. يقول الله تعالى:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين: ١ - ٣).

إن النقص أو الزيادة في الوزن ضد العدل، والمخالف للعدل سيحرم من رحمة الله تعالى، والعادل هو المستحق لحب الله تعالى يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ﴾ (المائدة: ٤٢، الحجرات: ٩).

يدخل في سعة هذه الآية عادلوا كل طبقة. يقول الله تعالى عن المخالفين للعدل:

﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ٥٧).

﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى: ٤٠).

الظلم يعني إخضاع حق إنسان لآخر، سواء كان هذا الحق للنفس ذاتها، أو لعامة الناس أو لله تعالى. والهدف من هذه الآيات الكريمة هو أن الحكومة وفروضها لها مكانة الدين في الإسلام، ومن يؤديها بحسن وإخلاص فله الثواب، ومن يُقصر فيها فهو مذنب. وأدائها بحسن وإخلاص يعني أدائها طبقا لأوامر وأحكام الله تعالى. يقول الله تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٧).

وقد صُرح بهذا الأمر في الأحاديث النبوية أيضا. قال رسول الله (ﷺ) **ألا أيها الناس لا يقبل الله صلاة إمام حكم غير ما أنزل الله** (المستدرك، ج ٤، صـ ٨٩، كتاب الأحكام).

واضح أن الصلاة عبارة عن انقياد وطاعة كاملة من قِبَل المصلي لله تعالى، ومن ثم فإن من يُظهر هذه الطاعة الكاملة والانقياد التام من ناحية، يخالف ذلك صراحة من ناحية أخرى؛ فهو منافق، وعليه فإن صلاته أي إظهار الطاعة لا يعني شيئا عند الله تعالى.

وفي هذا الأمر يجب وضع هذه الأحاديث الشريفة أيضا في الاعتبار التي يتضح منها أن الحكومة والإمارة فرض ديني، وإن من يؤدي هذه الفريضة

بحسن وإخلاص طبقا للأوامر والأحكام الإلهية فله ظل الرحمة الإلهية في الآخرة، ومن يفشل في هذا الامتحان، فله ذلك العذاب الذي عُين له في الآخرة.

قال رسول الله (ﷺ):

«الإمامُ الأعظم الذي على الناس راعٍ وهو مسؤول عن رعيته». [1]

يتضح من هذا جليا أن الأمير والإمام أو الحكام عليهم عبء ثقيل من المسئوليات والمهام الكبيرة وإن الإمارة والخلافة الإسلامية ليست حديقة ربيع التاج والعرش، ولا لهو ولعب الدنيا، وإنما هي مسئوليات شائكة، من مر منها بسلام فاز بسعادة الدنيا وحسن السيرة، وبسعادة وراحة الآخرة الأبدية. ومن يتعثر فيها، فهو ذليل وسيئ السمعة في هذه الدنيا وله في الآخرة الخزي والذل.

قال رسول الله (ﷺ):

«ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها نسجته إلا لم يجد رائحة الجنة» (صحيحي البخاري ومسلم).

مرض الصحابي سيدنا معقل بن يسار مرض الموت، وجاءه يعوده سفاك البصرة الأمير عبيد الله بن زياد، فقال الصحابي للأمير: أريد أن أخبرك بأمر

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٦٩٨٠) حدَّثنا إسماعيلُ حدَّثني مالك عن عبد اللهَ بن دينارٍ عن عبد الله بن عمرَ رضيَ اللهُ عنهما أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال:«ألا كلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيتهِ فالإمامُ الأعظم الذي على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته، والرجُلُ راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عن رعيتهِ، والمرأة راعيةٌ على أهل بيت زوجها وولدِهِ وهي مسئولة عنهم، وعبدُ الرجل راعٍ على مال سيدهِ وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيتِهِ». (المترجم).

من رسول الله وإن لو أعرف أنه ما زال هناك بقية في حياتي ما قلته لك. فلقد سمعت رسول الله (ﷺ) يقول:

«مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إلاَّ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» (صحيح مسلم، كتاب الإمارة).[١]

يثبت من هذا أن مسئولية الإمارة والحكم كم هي كبيرة وخطيرة في شريعة الإسلام. كان هناك صحابي يدعى عائذ بن عمر رضي الله عنه، ولم ينتظر مرض الموت، وذهب بنفسه إلى بلاد عبيد الله بن زياد وقال له بشفقة وحب: بُني ! لقد سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: **«إن شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ** (صحيح مسلم، كتاب الإمارة) **فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ» فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ. فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ نُخَالَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ. فَقَالَ: وَهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ؟ إِنَّمَا كَانَتِ النُّخَالَةُ بَعْدَهُمْ، وَفِي غَيْرِهِمْ.** [٢]

---

[١] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق: (٤٦٨٥) وحدثنا شَيْبَان بْنُ فَرُّوخَ. حَدَّثَنَا أَبُو الأَشْهَبِ عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: عَادَ عُبَيْدُ اللّهِ بْنُ زِيَادٍ، مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ الْمُزَنِيَّ. فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ. فَقَالَ مَعْقِلٌ: إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثاً سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللّهِ. لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ لِي حَيَاةً مَا حَدَّثْتُكَ. إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إلاَّ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».(المترجم).

[٢] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٤٦٨٩) حدثنا شَيْبَانُ بْنُ فَرُّوخَ. حَدَّثَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ. حَدَّثَنَا الْحَسَنُ أَنَّ عَائِذَ ابْنَ عَمْرٍو وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّهِ، دَخَلَ عَلَىٰ عُبَيْدِ اللّهِ بْنِ زِيَادٍ، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: «إِن شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ. فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ» فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ. فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ نُخَالَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ. فَقَالَ: وَهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ؟ إِنَّمَا كَانَتِ النُّخَالَةُ بَعْدَهُمْ، وَفِي غَيْرِهِمْ. (المترجم).

قال رسول الله (ﷺ): "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون بعدي خلفاء فيكثرون. قالوا يا رسول الله فما تأمرنا ؟ قال: فُوا ببيعهِ الأول فالأوّلِ، أعطوهم حقّهم، **فإنّ الله سائلُهم عمّا استرعاهم»**. (صحيح البخاري).[1]

دعا النبي (ﷺ) في حق أمراء أمته فقال:

«اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَشَقَّ عَلَيْهِمْ. فَاشْقُقْ عَلَيْهِ. وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ» (صحيح مسلم).[2]

تشمل سعة قول النبي (ﷺ) هذا كل المسئولين والقادة من الملك وحتى أقل جندي، كما تشمل كل إنسان تقع عليه أي مسئولية في الدولة. وفي حديث شريف

---

(١) وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٣٣٨٠) حدّثني محمدُ بن بشّارٍ حدَّثنا محمدُ بن جَعفرٍ حدَّثنا شُعبةُ عن فُراتٍ القزّازِ قال: سمعتُ أبا حازمٍ قال: قاعَدْتُ أبا هريرةَ خَمسَ سنين، فسمعتُه يُحدِّثُ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «كانت بنو إسرائيلَ تَسوسُهمُ الأنبياءُ، كلما هلكَ نَبيٌّ خَلَفه نبيّ، وإنهُ لا نبيَّ بعدي، وسيكونُ خُلَفاءُ فيكثُرون. قالوا: فما تأمُرنا ؟ قال: فُوا ببيعهِ الأولِ فالأوّلِ، أعطوهم حقّهم، فإنَّ الله سائلُهم عمّا استرعاهم». (المترجم).

(٢) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم: (٤٦٧٨) حدّثني هَـٰرُونُ بْنُ سَعِيدٍ الأَيْلِيُّ. حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ. حَدَّثَنِي حَرْمَلَةُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ شُمَاسَةَ، قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ أَسْأَلُهَا عَنْ شَيْءٍ. فَقَالَتْ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ. فَقَالَتْ: كَيْفَ كَانَ صَاحِبُكُمْ لَكُمْ فِي غَزَاتِكُمْ هَـٰذِهِ؟ فَقَالَ: مَا نَقِمْنَا مِنْهُ شَيْئاً. إِنْ كَانَ لَيَمُوتُ لِلرَّجُلِ مِنَّا الْبَعِيرُ، فَيُعْطِيهِ الْبَعِيرَ. وَالْعَبْدُ، فَيُعْطِيهِ الْعَبْدَ. وَيَحْتَاجُ إِلَى النَّفَقَةِ، فَيُعْطِيهِ النَّفَقَةَ. فَقَالَتْ: أَمَا إِنَّهُ لاَ يَمْنَعُنِي الَّذِي فَعَلَ فِي مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، أَخِي، أَنْ أُخْبِرَكَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللّهِ، يَقُولُ فِي بَيْتِي هَـٰذَا: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَشَقَّ عَلَيْهِمْ. فَاشْقُقْ عَلَيْهِ. وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ».(المترجم).

آخر تتسع هذه الدائرة أكثر فأكثر، إذ يقول الرسول (ﷺ): **«كلُّكم راعٍ ومَسئولٌ عن رَعيَّتِه: فالأميرُ الذي على الناسِ فهو راعٍ عليهم وهو مسئولٌ عنهم، والرَّجُلُ راعٍ على أهلِ بَيتِه وهو مسئولٌ عنهم، والمرأةُ راعيةٌ على بَيتِ بَعْلِها ووَلَدِه وهي مسئولةٌ عنهم، والعَبدُ راعٍ على مالِ سيِّدِه وهو مَسئول عنه. ألا فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسئولٌ عن رعيَّتِه»**. (صحيح مسلم والبخاري).[1]

معنى لفظ الرعية

من المناسب هنا أن نُعرّف بلفظ الرعية، والذي يُستخدم بكثرة في لغتنا، ومن حيث المسئولية أصبح بعيداً عن حقيقته تماما. ورد لفظ المراعي والرعية مراراً وتكراراً في الأحاديث الشريفة، وهما مشتقان من الفعل "رعى"، والذي يعني رعى الحيوانات، والراعي هو (من يرعاها)، والرعية هو الشيء الذي يرعاه الراعي ويحرسه. يتضح من هذا أن رعية أي أحد هي من تُولى تربيته وحمايته وصيانته لأي راع ومسئول. فالحقيقة هي أن حيثية ومكانة الأمير هي أنه راع عطوف ورءوف ورقيب، والذي يأخذ قطيعه ويذهب إلى المراعي الخضراء، ويوفر ما يشبعه، ويحميه من السباع، وينجيه من المصائب والكوارث. وطبقا لهذا الشرح والتفسير لابد من التدبر في لفظ الرعية في قول

---

(1) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (٢٥٠٦) حدّثنا مُسدَّدٌ حدَّثنا يحيىٰ عن عُبَيدِ الله قال: حدَّثني نافعٌ عن عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: «**كلُّكم** راعٍ ومسئول عن رَعيَّتِه: **فالأميرُ الذي** على النـاسِ فهـو راعٍ عليهم وهو مسئول عنهم، والرَّجُلُ راعٍ **على** أهلِ بَيتِه **وهو مسئول عنهم**، والمرأةُ راعيةٌ على بَيتِ بَعْلِها ووَلَدِه وهي مسئولةٌ عنهم، والعَبدُ راعٍ **على مالِ** سيِّدِه وهو مَسئول عنه. ألا فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسئول عن رعيَّتِه». (المترجم).

النبي (ﷺ) كم دل على معان ملؤها [illegible] والحب، وكم يستخدمه الأمراء الظالمون والسفاكون عمليا في معان تدل على الذل والوضاعة، في حين أن في هذا اللفظ يستتر سجل كبير لمسئولياتهم. والإمام العادل الذي يقوم بفرائضه ومهامه بحسن وإخلاص يبشره النبي (ﷺ) بهذه البشرى، إذ يقول النبي (ﷺ):

«إِنَّ الْمُقْسِطِينَ، عِنْدَ اللّهِ، عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ. عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَـٰنِ عَزَّ وَجَلَّ. وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا». (صحيح مسلم، كتاب الإمارة).[١]

يتضح من هذه الرفعة والدرجة العالية التي يحصل عليها الحكام العادلون والأمراء والسلاطين المنصفون يوم القيامة أن الحكومة العادلة والسلطنة المنصفة لكم هي عبادة كبيرة. ورد في جامع الترمذي أن الرسول (ﷺ) قال:

«إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِساً، إِمَامٌ عَادِلٌ. وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلى اللهِ، وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَجْلِساً إِمَامٌ جَائِرٌ» (الترمذي، أبواب الأحكام).[٢]

---

[١] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق: (٤٦٧٧) حدّثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَ ابْنُ نُمَيْرٍ. قَالُوا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرٍو يَعْنِي ابْنَ دِينَارٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ أَوْسٍ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ ابْنُ نُمَيْرٍ وَ أَبُو بَكْرٍ: يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ. وَفِي حَدِيثِ زُهَيْرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ، عِنْدَ اللّهِ، عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ. عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَـٰنِ عَزَّ وَجَلَّ. وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا». (المترجم).

[٢] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن الترمذي: (١٣٢٧) حدثنا عَلِيُّ بنُ الْمُنْذِرِ الْكُوفِيُّ. حدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ عَنْ فُضَيْلِ بن مَرْزُوقٍ، عَنْ عَطِيَّةَ، عَنْ أَبي سَعِيدٍ، قَالَ:

وعلى العكس من هذا الإمام والحاكم والأمير الذي يبتعد عن العدل والإنصاف ولا يعمل لخير رعيته يكون بعيداً أيضا عن رحمة الله تعالى. قال النبي (ﷺ):

"ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم إلا لم يدخل معهم الجنة" (صحيح مسلم، كتاب الإمارة).[1]

"ما من والٍ يلي رعيةً من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة" (صحيح البخاري، كتاب الأحكام).[2]

قَالَ رَسُولُ الله: «إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلى الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَدْناهُمْ مِنْهُ مَجْلِساً، إِمَامٌ عَادِلٌ. وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلى الله، وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَجْلِساً إِمَامٌ جَائِرٌ».

قال وفِي الْبَابِ عَنْ عبدالله بن أَبِي أَوْفَى.

قال أبو عيسى حديثُ أبي سَعِيدٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ، غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفهُ إلاَّ مِنْ هٰذَا الْوَجْهِ. (المترجم).

(١) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم، كتاب الإمارة: (٣٢٢) وحدَّثنا أَبُو غَسَّانَ الْمِسْمَعِيُّ وَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى وَ إِسْحٰقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ إِسْحٰقُ: أَخْبَرَنَا، وَقَالَ الآخَرَانِ: حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ أَنَّ عُبَيْدَ اللّهِ بْنَ زِيَادٍ عَادَ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ فِي مَرَضِهِ. فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ: إِنِّي مُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ لَوْلاَ أَنِّي فِي الْمَوْتِ لَمْ أُحَدِّثْكَ بِهِ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: «مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لاَ يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ إِلاَّ لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ».(المترجم).

(٢) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعيةً فلم ينصح: (٦٩٩٣) حدَّثنا إسحاقُ بن منصور أخبرنا حسينٌ الجعفيُّ قال زائدةُ ذكرَهُ هشام: عن الحسن قال: «أتينا معقلَ بن يسارٍ نعودُهُ فدخل علينا عُبيدُ اللّه، فقال له معقلٌ: أُحدِّثك حَديثاً سمعته من رسولِ اللّه صلى الله عليه وسلم فقال: ما

«إنَّمَا الامَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ فَإِنَّ لَـهُ بِذَلِكَ أَجْرا وَإِنْ أَمَرَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ وِزْرا». (النسائي، كتاب البيعة).(١)

إن هذه الأحاديث الشريفة تثبت أن الحكومة والرياسة والسلطنة والولاية في الإسلام لها درجة وحيثية الأمور الدينية أيضا، وهـي موجبـةً للثـواب أو العذاب، والجزاء أو العقاب. مثلما توجب أمور وأعمال الدين الأخرى هذا. كما أنها لا تقل أيضا عن الأعمال وشعب العبادات الأخرى في فتح باب الجنـة أو النار أمام المسلم. وهي في شريعة الإسلام جزء لا يتجزأ من الدين، والدين هنا يعني الأحكام والقوانين الإلهية، وهذه الأحكام والقوانين الإلهية تـرتبط بـشتى نواحي الحياة الإنسانية، وعليه فإن القيام بأعمال السلطنة والولاية، والحكومـة والرياسة بتنظيم واهتمام جزء لا يتجزأ من الدين.

منذ مدة أكدت خانقاهات الصوفية وزوايا العلماء للعامة أن التدخل فـي الدولة وأمور السلطنة لهو عمل الدنيا، الأمر الذي يجب على أهل العلم وأهـل التقوى الابتعاد عنه. والبيت التالي للشاعر حافظ الشيرازي يرمـز إلـى هـذا الفكر.(٢)

من والٍ يَلي رعيةً من المسلمين فيمـوتُ وهـو غـاشٌ لهـم إلا حـرَّمَ اللَّـهُ عليـه الجنَّة».(المترجم).

(١) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن النسائى: (٤١٨٠) أَخْبَرَنَا عِمْرَانُ بْنُ بَكَّارٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَيَّاشٍ قَالَ: حَدَّثَنَا شُعَيْبٌ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو الزِّنَادِ، مِمَّا حَدَّثَـهُ عَبْـدُ الرَّحْمَنِ الأَعْرَجُ مِمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صـلى الله عليـه وسلم قَالَ: «إنَّمَا الامَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرا وَإِنْ أَمَرَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ وِزْرا». (المترجم).

(٢) *گدائی گوشه نشینی تو حافظا مخروش رموز مملکت خویش خسروان دانند*

الترجمة:

يا حافظ[١] أنت صوفي فقير، فلا تُحدث ضجة فالملك عارف بأسرار ورموز مملكته فما علاقتك بهذا.

ولكن الإسلام لا يعترف بمثل هذه الملوكية أو السلطنة فالسلطنة في نظره تعني تبليغ وتنفيذ الأحكام الإلهية، وهذا هو الهدف الأصلي لدعوة الجهاد والقتال في الإسلام ولوعد الله تعالى بالنعيم الكبير في الآخرة، وبهذا الهدف ذاته أيضا عُمرت حياة داعي الإسلام النبي (ﷺ)، وحياة الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام. والفرار من الجهاد يستوجب الغضب الإلهي والوعيد بجهنم، والثبات والصبر في ميدان الجهاد والتقوى تستوجب هذه البشرى يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (*) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الأنفال: ١٥-١٦).

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

وهذا هو السبب في أن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كانوا يقرون بأن الجهاد والقتال في سبيل الله، والعدل، وإقامة الدين، وتنفيذ أوامر الله، وكل أعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي من أكبر ما تشتمل عليها الإمامة والخلافة وما يندرج تحتها من شُعب لا يقل عن سائر العبادات والأعمال

---

[١] ويمكن أن يكون المقصود من بيت حافظ عليه الرحمة هذا هو أنه يجب على العبد أن يبحث عن أسرار أحكام الله تعالى فالملك في الدنيا لا يُطلع الآخرين على أسراره، ولو يحاول أي أحد الإطلاع عليها دون مرضاته فيقع عليه العقاب، وهكذا يجب أيضا ألا يُبحث عن أسرار ورموز الأحكام الإلهية من قِبل النفس دون تعليم من الله تعالى.

الصالحة، ومن ثم فإن سيل قطرة دم الشهادة في سبيل إقامة دين الله تغسل سجل ذنوب المؤمن في اليم، وكان صحابة رسول الله (ﷺ) يشتاقون دائما إلى الجهاد والقتال ويتمنون الشهادة في هذا الطريق. يقول الله تعالى:

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (آل عمران:١٩٥).

ورد لفظ الدين في القرآن الكريم بمعان مختلفة من بينها معنى طاعة وتنفيذ وإقامة أحكام الله تعالى وحدوده. يقول الله تعالى في سورة النور:

﴿وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّه) (النور: ٢).

وأوضح أن المقصود بدين الله تعالى هنا تنفيذ وإجراء أحكام الله تعالى وحدوده. ويقول الله تعالى في سورة البقرة:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ) (البقرة: ١٩٣).

وورد لفظ الدين بمعنى طاعة حكم الله فقط.

يقول الله تعالى في سورة الأنفال:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه﴾ (الأنفال: ٣٩).

كما ورد لفظ الدين بمعنى التسليم والطاعة الكاملة للحكم والقانون الإلهي، يعني ليس هناك سوى الله تعالى من يستحق أي طاعة ولا أي عبادة، فله وحده سبحانه الحكم في السماوات والأرض يقول الله تعالى:

﴿إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ (الأنعام: ٥٧، يوسف:٦٧).

﴿أَلاَ لَهُ الحُكْمُ﴾ (الأنعام: ٦٢).

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ (النحل: ٥٢).

ومعنى لفظ الدين هنا أيضا طاعة أحكام الله تعالى وهو الأكثر مناسبة طبقا للنسق القرآني.

حقيقة السلطنة والملوكية

والآن بعد شرح وتفسير للفظ الدين هناك حاجة لشرح بسيط للفظ الحكم أو السلطنة. يبحث الناس عامة عن الحكم أو السلطنة في قصر الراحة والتنعم المزين بالذهب، وفي ضوء التاج والزمرد والعرش، وفي كثرة الغلمان، أو يبحثون عنه في ظل سيوف الجبروت والقهر والهيبة. ولكن الحكومة أو السلطنة التي قد حث عليها الإسلام وقدمها محمد (ﷺ) كمثال عملي خالية قطعا من كل هذه الأمور والأشياء.

ترك الإسلام للألفاظ الدالة على الملوكية

ترك الإسلام الألفاظ الدالة على الملوكية، ولا يوجد في قانونه أصلا التخيل السائد لألفاظ السلطنة والحكم أو الولاية والرياسة، وترك ألفاظ السلطنة والحكومة والملوكية والإمارة والتي كانت رائجة في كل اللغات تركا تاما. وكان لفظ "الملك" أشهر هذه الألفاظ، ويعلوه لفظ "ملك الملوك" فكان يُلقب ملك ملوك إيران بكسرى وأمير الروم بقيصر، ولكن التعليم الإسلامي تجنب سائر هذه الألفاظ تماما، والتي كانت مظهراً للقهر والظلم والجبر والإكراه، ففي مادة "ملك" تصور للملكية والملوكية، الأمر الذي ينافي العقيدة الإسلامية تماما، ومن ثم ابتعد الإسلام عن هذا اللفظ، ففي تعاليم الإسلام الله تعالى هو المالك والملك الحقيقي، لذا فله هو الملك.

وقد وصف الله تعالى بهذه الصفة في آيات كثيرة من القرآن الكريم، يقول الله تعالى:

"قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ" (الناس: ١ – ٣).

"المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ" (الحشر: ٢٣).

"فَتَعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ" (المؤمنون:١١٦).

"المَلِكِ القُدُّوسِ العَزِيزِ الحَكِيمِ" (الجمعة:١).

وردت هذه الآية الكريمة ٦ مرات في القرآن الكريم، وفي كل مرة صُرح بأن الله تعالى هو (الملك الحق). وهنا حكمة جديرة بالذكر وهي أنه لم يرد لفظ "الملك" بمفرده أبدا في هذه الآيات، بل جاء مقرونا بأي صفة أو إضافة. مثلا جاء في سورة الناس "**مَلِكِ النَّاسِ**" وجاء قبل هذه الآية مباشرة "**رَبِّ النَّاسِ**" حتى تظهر أيضا ربوبيته سبحانه وتعالى. وجاء لفظ "الملك" في سورة الحشر مقرونا بصفتين "القدوس" و"السلام" حتى تظهر معه قداسته وسلامه سبحانه. وفي سورة المؤمنون جاء لفظ "الملك" مقرونا بصفة الحق. وفي سورة الجمعة جاء لفظ "الملك" مقرونا بصفات "القدوس" و"العزيز" و"الحكيم". ويبدو من هذا أنه كان قد وُجد في العقل البشري أن لفظ "الملك" يَحوي في داخله الظلم والسفك، والقهر والجبر وعدم الرحمة والقسوة، ولم يكن من الممكن إزالة هذا المفهوم دون إضافة أي صفة جديدة إلى هذا اللفظ، لذا ففي أي موضع من القرآن استخدم الله سبحانه وتعالى هذا اللفظ لنفسه، ألحق به صفة من الصفات.

منع استخدام لقب ملك الملوك

كان يقال في اللغة العربية ملك الأملاك أو ملك الملوك وفي الفارسية شاهنشاه أي ملك الملوك، وكان هذا اللقب يُستخدم للملوك مبالغة في كل اللغات. وفي الإسلام ملك الملوك واحد فقط، ألا وهو الله عز وجل. قال (ﷺ) قولا جلياً.

«إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّىٰ مَلِكَ الأَمْلاكِ» (صحيح البخاري، كتاب الآداب).[١]

يتضح أنه دائماً ما تبقى حقيقةٌ ومعانٍ مستترةٌ بداخل الألفاظ. يقال في لغة الإسلام (اللغة العربية) على عامل الحكومة "الخليفة"، ويقال للحكومة "الخلافة". ويطلق مسمى الخليفة في اللغة العربية على النائب، ومعناه الواضح هو أنه بنفسه ليس حاكما وإنما هو نائب عن آخر في هذا الحكم. والسؤال هو ينوب عمن، وخليفة لمن؟

وردت قصة سيدنا آدم عليه السلام في كل من القرآن الكريم والتوراة، ولكن النتيجة في كليهما مختلفة، فما ورد في التوراة يتعلق فقط بتاريخ بداية خلق آدم عليه السلام، **ولكن ما ورد في القرآن الكريم هو حجر أساس لعقيدة وسياسة الإسلام، فيبدو من هذه القصة أن الإنسان في الإسلام مكلف، وأن الجنة مقامُه الأصلي، وسر الثواب والعقاب، وحاجة بعثة الأنبياء والرسل، والفائدة من بعثتهم من ناحية، ومن ناحية أخرى تُوضح هذه القصة تعين المرتبة والمكانة الأصلية للإنسان بين المخلوقات، ومسئولياته وفروضه في الدنيا، وصورة تنفيذ**

---

[١] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٥٥٦٥) ـ حدّثنا سَعِيدُ بْنُ عَمْرٍو الأَشْعَثِيُّ وَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ و أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. ـ وَاللَّفْظُ لأَحْمَدَ ـ (قَالَ الأَشْعَثِيُّ: أَخْبَرَنَا. وقَالَ الآخَرَانِ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنِ الأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّىٰ مَلِكَ الأَمْلاكِ» زَادَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي رِوَايَتِهِ «لاَ مَالِكَ إِلاَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». قَالَ الأَشْعَثِيُّ: قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ. وقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: سَأَلْتُ أَبَا عَمْرٍو عَنْ أَخْنَعَ؟ فقَالَ: أَوْضَعَ. (المترجم).

الأحكام الإلهية، وسلوكه مع مخلوقات الله تعالى. و الـشيء الأول هـو عقائـد الإسلام الأساسية، والثاني هو المبادئ والتعاليم الأساسية للسياسة الإسلامية.[1]

بدأت هذه القصة في القرآن الكريم بقوله تعالى:

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً" (البقرة: ٣٠).

كان سيدنا آدم عليه السلام هو هذا الخليفة، والذي نال شرف إنابة البشر جميعا، لذا كُرم أبناء سيدنا آدم عليه السلام بهذا الشرف في مواضع أخـرى - يقول الله تعالى:

"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَـرِّ وَالْبَحْـرِ وَرَزَقْنَـاهُم مِّـنَ الطَّيِّبَـاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً" (الإسراء: ٧٠).

وبناء على هذا الشرف والتكريم كان آدم عليه السلام نائبا عن بنـي آدم (البشر) وعبر الله تعالى عنه (عليه السلام) وعن بني آدم (البشر) بصيغة الجمع في قوله تعالى:

"اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة: ٣٨).

وجاء في سورة الأعراف قوله تعالى:

"وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّـا تَـشْكُرُونَ * وَلَقَـدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَـمْ يَكُـن مِّنَ السَّاجِدِينَ" (الأعراف: ١٠ - ١١).

---

[1] كتبت إبّان حركة الخلافة سنة ١٩٢٠م مقالة فـي مجلـة المعـارف بعنـوان "أيـة الاستخلاف"، ووضحت فيها هذا الأمر. وهذه المقالة جديرة اليوم بوضعها في الاعتبار.

يتضح من هذه الآيات أن التكريم والشرف الذي ناله سيدنا آدم عليه السلام ناله بنو آدم جميعا باعتبارهم ورثته عليه السلام، لذا فإن خلافة ونيابة الله في الأرض التي كُرم بها آدم عليه السلام نالها البشر جميعا. يقول الله تعالى في سورة الأنعام:

"وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" (الأنعام: ١٦٥).

وهنا يطرح سؤال نفسه وهو أن هذه الخلافة أو النيابة التي كُرِّم بها بنو آدم من قِبَل من؟ ورد في القرآن الكريم أنه يكرم قوم بعد قوم بهذه النيابة أو الخلافة، مثلما جعل الله تعالى قوم عاد خلفاء لقوم نوح عليه السلام. يقول الله تعالى:

"وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ" (الأعراف: ٦٩).

ثم جعل قوم ثمود خلفاء من بعد عاد

"وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ" (الأعراف: ٧٤).

يُحذر سيدنا هود عليه السلام قومه "عاد" بأنهم إن لم يطيعوا الله تعالى؛ (يستخلف الله قوما غيرهم).[1] يقول الله تعالى:

"وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ" (هود: ٥٧).

ويقول الله على لسان سيدنا محمد (ﷺ):

"إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ" (الأنعام: ١٣٣).

وقد وعد الله المسلمين بقوله تعالى:

---

[1] المترجم.

"**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**" (النور: ٥٥).

وقد جاء في أربع آيات من القرآن الكريم بأن الله تعالى جعل أقواما خلائف لآخرين. يقول الله تعالى في سورة الأنعام:

"**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ**" (الأنعام: ١٦٥).

ويقول سبحانه في سورة يونس:

"**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**" (يونس: ١٣ – ١٤).

ثم قال الله تعالى بعد هلاك قوم نوح عليه السلام:

"**فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ**" (يونس: ٧٣).

وفي سورة فاطر جعل الله تعالى سائر البشر خلائف في الأرض. يقول الله تعالى:

"**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ**" (فاطر: ٣٩).

أنعم الله تعالى على سيدنا داود عليه السلام بالخلافة في الأرض. يقول الله تعالى:

"**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ**" (ص: ٢٦).

ولفظ "خليفة" هنا مشتق من الفعل "خلف" ويعني "الخلف" لذا يقال خليفة لمن يأتي عقب أو خلف أحد غير موجود ومن قِبَله وممثلا له، سواءً كان عدم وجوده بسبب موته أو بسبب غيابه، أو بسبب غيابه عن العيون ظاهريا. يقول الله تعالى:

"**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ**" (الأعراف: ١٦٩، مريم: ٥٩).

هذه صورة الخلافة بعد الموت. وفي الآية التالية (صورة الخلافة بسبب الغياب)[1] إذ قال موسى عليه السلام لهارون عليه السلام وهو ذاهب إلى جبل الطور:

"اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي" (الأعراف: ١٤٢).

والآية التالية تُوضح صورة الخلافة في الحياة. يقول الله تعالى:

"وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ" (الزخرف: ٦٠).

ورد لفظ "الخلافة" في الآيات الثلاث السابقة في ثلاث معان بفروق بسيطة. في الآية الأولى ورد في معنى مجيء شخصٍ (خليفة) بعد موت آخر. وفي الثانية مجيء خليفة بسب ذهاب خليفة آخر إلى مكان ما، أما في الآية الثالثة فيختلف المفسرون في معنى الخلافة التي وردت فيها. يقول بعض المفسرين أنها تعني لو يشاء الله تعالى لجعل مكانكم ملائكة تخلفكم. وقال البعض لآتي بملائكة مكانكم على الأرض. والفريق الثالث يقول: لجعل مكانكم ملائكة يخلف بعضهم بعضا على الأرض.

كتب الإمام راغب الأصفهاني في كتاب "المفردات" أن المعنى الأصلي (للخلافة في هذه الآية) هو النيابة والخلافة، ولكن لهذه النيابة أو الخلافة ثلاث صور وهي:

«الخلافة النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف» (ص ١٠٠، مصر).

ثم نقل الإمام راغب آيات كثيرة تُوضح أن الصورة الثالثة راجحة عنده، وهذا هو المعنى (الصورة) المناسب لنيابة الله تعالى. أخرج المفتي "الألوسي"

---

(١) المترجم.

في "روح المعاني" ثلاثة أقوال مختلفة عن المعاني الثلاثة في أي آية ورد فيها هذا اللفظ، ولم يفصل هو نفسه في ترجيح أي قول، الأمر الذي يتضح منه أنه في أي آية يُفهم ويُراد أي معنى للخلافة. يأتي في خاطري هذه المقولة اليومية وهي أنه حين يُظهر أي متكلم أن هذا الشخص خليفة أو نائبا لفلان، فيكون المقصود هنا خلافة ونيابة فلان فعلاً، وإذا لم يُصرح المتكلم بهذا، فيقصد به خلافة ونيابة المتكلم نفسه.

وعليه فإن كل آية في القرآن الكريم صُرح فيها بهذه الخلافة، يُراد منها خلافته، وفي الآيات التي لم يُصرح فيها تكون الخلافة إذا لمتكلم القرآن الكريم أي الله عز وجل. على سبيل المثال قوله تعالى:

"وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ" (الحديد: ٧).

لم يذكر في هذه الآية الكريمة خلافة من، لذا اتجه المفسرون إلى كلا المعنيين، فقال البعض: أن الله تعالى جعل واحداً بعد آخر خليفة في هذا المال، مثل خلافة الابن بعد أبيه. وقال بعض آخر: أن المال في الحقيقة ملك لله تعالى، ومن أعطاه سبحانه وتعالى ماله فهو خليفته وأمينه سبحانه في هذا المال وهو ينفقه من قِبله سبحانه في أمور الخير. وبناء على المبدأ الذي قدمته سابقا يتضح هنا أن المعنى الثاني هو الصحيح.[١] وقد رُجح هذا المعنى الأول في معاجم الكشاف والبيضاوي وروح المعاني وغيرهم. جاء في الكشاف:

إن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها وإنما مولكم إياها وخولكم للاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها.

كما جاء في البيضاوي:

---

[١] أي أن المال ملك لله تعالى، ومن يُنعم الله تعالى عليه بهذا المال فهو خليفة ونائبا عن الله تعالى في هذا المال ينفقه نيابة عنه سبحانه في كل أمور الخير. (المترجم).

من الأموال التي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيها.

وجاء في روح المعاني:

جعلكم سبحانه خلفاء عنه عز وجل في التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة.

يتضح من هذا أن ملكية الأموال عند هؤلاء المفسرين هي في الحقيقة لله تعالى، والبشر وكلاء وخلفاء الله تعالى بإذنه سبحانه في التصرف في هذه الأموال.

والآن نرجع ثانية إلى الآية الأصلية والتي هي عنوان هذا الباب، وهي: **"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" (البقرة: ٣٠).**

كتب المفسرون جميعا في تفسير هذه الآية الكريمة كلا المعنيين السابقين واحداً تلو الآخر، ولم يفصلوا في أي رأي. ورد في الطبري هذان القولان، أحدهما ذكر خلافة إنسان بعد آخر. والثاني هو أنه الله تعالى يذكر خلافته. ويكتب (الطبري) رواية عن سيدنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) وسيدنا عبد الله بن العباس رضي الله عنهما

إني جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بين خلقي

كما كتب قبله مفهوم تفسير ابن زيد:

إن الله تعالى أخبر الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة له يحكم فيها بين خلقه بحكمه. (ص ١٠٤، مصر).

ويُعتبر تصريح القاضي البيضاوي في هذا الأمر أكثر حكمة:

والمراد به آدم عليه السلام لأنه كان خليفة الله تعالى في أرضه وكذلك كل نبي استخلفهم في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ

أمره فيهم لا حاجة به تعالى إلى من ينوبه بل لقصور قبضه وتلقي أمره بغير وسط.

ولكن يتضح من الآيات القرآنية السابقة، والتي جعل الله تعالى فيها بني آدم جميعا خلفاء أنه بواسطة الأنبياء والرسل عليهم السلام حصل متبعوهم على سند هذه الخلافة الإلهية، ونال البشر جميعاً هذا التكريم.

وهذه الأسباب تُرجح تفسير لفظ الخلافة في الآية القرآنية والمذكور سابقا:

١. إن سائر المفسرين كتبوا هذا المعنى منذ البداية.

٢. يثبت من الروايات ومن إشارات القرآن الكريم أن الله كان يخلق في الدنيا مخلوقا بعد الآخر، وعليه فإن خلق آدم عليه السلام لم يكن أمراً جديداً، ولكن لم يفز أي مخلوق قبله بما فاز به آدم عليه السلام من شأن واهتمام بالغ في خلقه عليه السلام، وبخلافته لله تعالى، وبسجود الملائكة له وبدخول الجنة، ثم عدوله عن الحكم وعيشه في الدنيا، وبإرسال سلسلة من الأنبياء والرسل وغيرها من الفضائل والصفات الأخرى. وهذا الاهتمام دليل على أن الخلافة لم تكن لمخلوق سابق، بل للخالق سبحانه وتعالى.

٣. إن المبدأ الذي اتضح من الآيات التي كتبت سابقا تفصيلا والمراد منه أن تصريح المتكلم بذكر شخص معين بالخلافة أو النيابة في كلامه يُفهم منه أن الخلافة أو النيابة تكون لهذا الشخص المذكور، وإذ خلى الكلام من أي توضيح وتصريح يُفهم منه أن الخلافة تكون لهذا المتكلم لا محالة مثلما يقول أي ملك: جعلت زيداً خليفة. فهنا ورد تصريح وتوضيح في الكلام وفهم من السياق خلافة من المقصودة. فعليه يفهم ويُراد نيابة من صُرح به (زيد) أما إذا خلى الكلام كلية من أي توضيح وتصريح فيكون المراد

إذا هو خلافة الملك لنفسه.[1] وعليه يتضح أنه في هذه الآية الكريمة التي يُفهم فيها جَعْل آدم عليه السلام خليفة. ولم يُذكر أحد قبله أو بعده. يكـون المقصود هو جَعْلُ الله آدم عليه السلام خليفة له بلا أدنى ريب.

٤. وهناك آيات قرآنية أخرى تؤكد هذا المعنى وتوضح فوز آدم عليه السلام وسائر البشر من بعده بهذا الشرف الكريم:

"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَـرِّ وَالْبَحْـرِ وَرَزَقْنَـاهُم مِّـنَ الطَّيِّبَـاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً" (الإسراء: ٧٠).

وقال الله تعالى في آية ثانية

"لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" (التين: ٤).

ثم خلق الله تعالى ما في السماوات والأرض للإنسان، وسخره له. يقـول الله تعالى:

"وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (الجاثية: ١٣).

وهذه هي حقيقة الخلافة الإلهية. وقد ورد في آيات قرآنية كثيرة تفصيلاً أن سائر المخلوقات تابعة للإنسان ومُسخرة له ومن أجله خلقت. وهـذه بعـض الآيات الأخرى التي تؤكد هذا:

"خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً" (البقرة:٢٩).

"وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ البَحْرَ" (النحل: ١٤).

"اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ" (الجاثية: ١٢).

---

[1] توضيح هذا هو أنه إذا قال الملك: جعلت زيداً خليفة، فزيد هنا خليفة للملك، لأن الملك صرح باسمه في كلامه. أما إذا لم يُصرح الملك بأي اسم، فتكـون الخلافـة لنفـسه. (المترجم).

"وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ" (إبراهيم: ٣٢).
"وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ" (إبراهيم: ٣٢).

يثبت من هذه الآيات الكريمة أن الإنسان هو الأصلي من هذا الكون، وقد كُرم بقيادة سائر المخلوقات. وهذا هو المراد من الخلافة الإلهية. يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

"إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً" (الأحزاب: ٧٢).

يتضح من هذه الآية الكريمة أن الإنسان هو الذي حمل الأمانة والنيابة الإلهية من بين سائر المخلوقات، إذاً ما هذه الأمانة الإلهية؟ هذه هي صورة أخرى لبيان هذه النيابة والخلافة. والنائب في الحقيقة لا يملك أي شيء بل هو وكيل وأمين فقط من قبل المالك الأصلي، لذا فإن أي شيء عند الإنسان ما هو إلا أمانة للمالك. ومن حصل عليها حتى يقوم بغرض النيابة، (فعليه أن يعرف) أن علمه وسائر صفاته الأخرى راجعة كلها إلى الله تعالى، وهي استعارة له لعدة أيام من خزينته سبحانه وتعالى. ورد في الحديث الشريف: « فإنَّ الله خَلَقَ آدَمَ على صُورَتِهِ» [1]. وهذا الحديث يشير إلى هذا المعنى، كما يشرح أيضا القول المشهور **تخلقوا بأخلاق الله.**

---

[1] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح ابن حبان: (٥٥٠٨) أخبرنا أبو خليفةَ، قال: حدثنا إبراهيمُ بنُ بَشَّار، قال: حَدَّثنا سفيانُ، عن أبي الزِّناد، عن الأعرجِ عن أبي هُريرةَ أنَّ النبيَّ قال: «إذا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَجْتَنِبِ الوَجْهَ، فإنَّ الله خَلَقَ آدَمَ على صُورَتِهِ».(٢:٣)

قال أبو حاتِم: يريدُ به صُورةَ المضروب، لأن الضاربَ إذا ضرب وجهَ أخيه المسلم ضرب وجهاً خَلَق الله آدَمَ على صُورته. **(المترجم).**

يتضح من هذا التفصيل أن نظرية سلطنة ورياسة الإسلام مبنية على مبدأ يقود الإنسانية إلى أعلى نقطة (من الرقي والتطور) وبداخله ارتباط قوي بين الأمور الدينية والدنيوية، والمادية والروحانية، والسياسية والأخلاقية.

والوجه الآخر لهذا المبدأ هو أنه على الهدف الأصلي من خلق الكون وسيد المخلوقات (الإنسان) أن يقر بعبوديته وطاعته وخضوعه للمالك الأصلي.

قال الله تعالى في كتابه الحكيم عن غرض خلق الإنسان:

"وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ"

فحيثية الإنسان هي حيثية الوكيل الذي عليه أن ينفذ أوامر مالكه فقط. في يد فرمان وأمر الشريعة الإلهية، ومسئوليته الكبرى أن يطيع أوامر الله سبحانه وتعالى، ويعمل على إطاعة الدنيا بأسرها لله تعالى وتنفيذ أوامره؛ فهو تابع فقط لمرضاة مالكه سبحانه وعبد لأحكامه وأوامره.

بعثة الأمة الإسلامية

رغم أن سائر البشر قد كُرموا بهذه الخلافة الإلهية بناء على الاعتقاد بالخلافة، إلا أن سعداء الحظ هم الذين يؤمنون بها ويقرون بمسئولية طاعة الله تعالى وتنفيذ أوامره سبحانه وتعالى كما أنهم مع عظمة هذه الخلافة يقرون بعبوديتهم لله سبحانه وتعالى وخضوعهم له عز وجل. إن الرسل والأنبياء عليهم السلام هم الممثلون الأصليون لهذه الخلافة وهذه العبودية، وتدخل أممهم أيضا في تبعيتهم، ولكن الآن لما كان محمد رسول الله (ﷺ) خاتم الأنبياء إلى يوم القيامة، وليس هناك نبي بعده حتى تقوم الساعة، فالأمة المحمدية أيضا ممثلة للخلافة الإلهية تبعا لنبيهم الكريم، ولكونها آخر أمة في الدنيا فسوف تبقى ممثلة لهذه الخلافة الإلهية حتى يوم القيامة، لذا لُقبت في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بلقب "آخر الأمم" و"خاتم الأمم" عبر الله تعالى عن الأمة المحمدية في القرآن الكريم بلفظ آخرين. إذ يقول جل شأنه:

"ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ" (الواقعة: ٣٩-٤٠).

"وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ" (الجمعة: ٣).

يتضح من هذا أنه لن تُبعث أي أمة أخرى بعد الأمة المحمدية لأنه لن يكون هناك أي نبي آخر (بعد محمد (ﷺ). وقد ورد في الأحاديث النبوية الشريفة تصريحات بهذا. فقد جاء في صحيح البخاري: «مَثَلُ المسلمينَ واليهودِ والنصارَى كمثَلِ رجُلٍ استأجَرَ قوماً يَعملونَ له عملاً يوماً إلى الليلِ على أجر معلوم، فعمِلوا لهُ نصفَ النهار، فقالوا: لا حاجةَ لنا إلى أجركَ الذي شرَطتَ لنا وما عمِلنا باطل. فقال لهم: لا تفعَلوا، أكمِلوا بقيةَ عملكم وخُذوا أجرَكم كاملاً، فأبَوا وتَركوا واستأجَرَ آخَرينَ بعدَهم

فقال: أكمِلوا بقيَّةَ يومِكم هذا ولكم الذي شَرطْتُ لهم مَن الأجرِ فعمِلوا، حتى إذا كان حينُ صلاةِ العصرِ قالوا: لك ما عمِلنا باطل، ولك الأجرُ الذي جَعلتَ لنا فيه. فقال لهم: أكمِلوا بقيَّةَ عملكم فإنَّ ما بقيَ منَ النهارِ شيءٌ يَسيرٌ، فأبوا، فاستأجرَ قَوماً أن يعملوا له بقيةَ يومِهم، فعمِلوا بقيةَ يومِهم حتّى غابت الشمسُ، واستكمَلوا أجرَ الفريقينِ كليهما فذلكَ مَثلُهم ومَثَلُ ما قبلوا من هذا النُورِ».[1] ورد هذا الحديث الشريف بروايات مختلفة في صحيح البخاري، وسنن الترمذي، والموطأ للإمام مالك، والمستدرك للحاكم وغيرهم. (الكنز ٢٣،٢٦).

إن المراد من لفظ اليوم في هذا الحديث الشريف هو الزمان، وعليه يتضح أن الأمة الإسلامية هي آخر الأمم. ورد في صحيحي البخاري [2] ومسلم، وسنن النسائي في شرح هذا الحديث الشريف.

---

[1] وهذا نص الحديث في صحيح البخاري: (٢٢٣٧) حدّثنا محمدُ بنُ العَلاءِ حدثنا أبو أُسامةَ عن بُرَيدٍ عن أبي برْدةَ عن أبي موسى رضيَ اللهُ عنه عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «مَثَلُ المسلمينَ واليهودِ والنصارَى كمثَلِ رجُلٍ استأجَرَ قوماً يَعملونَ له عملاً يوماً إلى الليلِ على أجر معلوم، فعمِلوا لهُ نصفَ النهار، فقالوا: لا حاجةَ لنا إلى أجركَ الذي شَرَطتَ لنا وما عمِلنا باطل. فقال لهم: لا تَفعَلوا، أكمِلوا بقيةَ عملكم وخُذوا أجرَكم كاملاً، فأبَوا وتَركوا واستأجَرَ آخَرينَ بعدَهم فقال: أكمِلوا بقيَّةَ يومِكم هذا ولكم الذي شَرطْتُ لهم مَن الأجرِ فعمِلوا، حتى إذا كان حينُ صلاةِ العصرِ قالوا: لك ما عمِلنا باطل، ولك الأجرُ الذي جَعلتَ لنا فيه. فقال لهم: أكمِلوا بقيَّةَ عملكم فإنَّ ما بقيَ منَ النهارِ شيءٌ يَسيرٌ، فأبوا، فاستأجرَ قَوماً أن يعملوا له بقيةَ يومِهم، فعملوا بقيةَ يومِهم حتّى غابت الشمسُ، واستكمَلوا أجرَ الفريقينِ كليهما فذلكَ مَثلُهم ومَثَلُ ما قبلوا من هذا النُورِ» (المترجم).

[2] صحيح البخاري، كتاب التعبير.

نحن الآخرون السابقون[1]

أي أننا – المسلمين– آخر أمم الدنيا بأسرها من حيث الظهـور، ولكننـا السابقون في الأجر والثواب يوم القيامة. وردت هذه الفقرة من الحديث الشريف أيضا في المستدرك للحاكم، وسنن النسائي، والبيهقي. (الكنز ٢٦، ٢٣).

ورد في سنن ابن ماجة أن النبي (ﷺ) قال:

«نحن آخر الأمم» (الكنز ٦، ٢٣٠).

خلاصة القول هو أنه قد ثبت من هذه الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة أن الأمة المحمدية آخر أمم الدنيا قاطبة، إذ أنها أمة آخـر نبـي (ﷺ).

وهذه خصوصية وميزة أخرى لهذه الأمة فاعتبارها آخر أمـة وحاملـة لأمانة آخر نبوة، لذا سيبقى فيها فريق من أهل الحق الغالب والمنصور دائما إلى يوم القيامة، والذي يظل يختم شهادة الله تعالى على الدنيا، ويكون حجة قاطعـة على غير المؤمنين. ويُوجد إثبات صريح لهذا الفصل والميزة في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة.

وعد الله تعالى أن القرآن الكريم سيبقى محفوظا إلـى يـوم القيامـة. إذا يتضح أن المسلمين هم حفظته. وحين يعد الله تعالى بأي أمر، فهذا لا يعني بأنه

---

[1] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (٨٦٥) حدّثنا أبو اليمانِ قال: أخبرَنا شعيبٌ قال: حدَّثنا أبو الزِّنادِ أنَّ عبدَالرحمٰنِ بنَ هُرْمُزَ الأعرجَ مولىٰ ربيعةَ بـنِ الحارثِ حدَّثَهُ أنه سمعَ أبا هريرةَ رضيَ اللّهُ عنه أنه سمعَ رسولَ اللهِ صلى الله عليـه وسلم يقول: «نحنُ الآخِرونَ السابقونَ يومَ القيامةِ، بَيْدَ أنهم أُوتوا الكتابَ من قَبلنا، ثمَّ هٰذا يومُهمُ الذي فُرِضَ عليهم فاختلَفوا فيهِ، فهدانا اللّهُ له، فالناسُ لنا فيه تَبَعٌ: اليهودُ غـداً، والنصارَى بعدَ غدٍ». (المترجم).

سبحانه وتعالى يُتم ويُحقق وعده دون وسائط وأسباب، فرغم أن قدرته عز وجل وسعت كل شيء إلا أنه سبحانه وتعالى جعل هناك أسبابا وعللا لوعوده (لتنفيذ وعوده عز وجل). وعد الله تعالى العبادة بالرزق، ولكنـــه عـــز وجـــل أوقـــف حصوله على الأسباب والتدابير. وعد الله تعالى المـــسلمين بالخلافـــة، وأوقـــف الحصول عليها أيضا على الجهاد، ثم أتم وعده سبحانه. وهكذا إن الوعد الـــذي وعده الله تعالى بحفظ القرآن الكريم [1] فهو يتمه سبحانه أيضا عن طريق أسباب وعلل وتدابير، لذا سيجعل الله تعالى حملة القرآن الكريم لدوام حفظه وبقائه إلى أن تقوم الساعة وبأيديهم هم بحفظه في صدورهم سيُتم هـــذا الوعـــد ســـبحانه. وسوف يتم هذا الوعد إتماما حقيقياً حين تكون هناك غلبة وسيطرة لفريق مـــن الأمة المحمدية في الدنيا. يقول الله تعالى:

"وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ" (الأعراف: ١٨١).

اعتبر المفسرون أن هذه الأمة هي الأمة المحمدية، وبينوا أن حالهم هـــذا يكون في الحال والمستقبل. يعني أنه سيبقى فريق من الأمـــة المحمديـــة قائمـــا بالحق.[2]

يخاطب الله تعالى سيدنا عيسى عليه السلام في القرآن الكريم ويقول له:

"وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" (آل عمران: ٥٥).

إن اليهود هم المنكرون الأصليون لسيدنا عيسى عليه السلام، رغم وجود الكفار الآخرين الذين اتبعوهم في هذا والمسلمون هـــم متبعـــوه عليـــه الـــسلام الأصليون[3]، ولكن يمكن القول بأن المسيحيين متبعوه أيضا مقابلة باليهود رغم

---

[1] قال تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (الحجر: ٩) (المترجم).

[2] تفسير الخازن، تفسير الآية رقم ١٨١ من سورة الأعراف.

[3] تفسير ابن جرير، تفسير الآية رقم ٥٥ من سورة آل عمران.

أنهم في ضلال [1] على أية حال يتضح من هذه الآية الكريمة أن المسيحيين سيبقون مع المسلمين إلى يوم القيامة. ولا عجب في أن يكون هناك صراع بين هذين العدوين أي الحق والباطل إلى يوم القيامة، حتى يفوز المسلمون بالغلبة والسيطرة العامة بنزول عيسى عليه السلام، وهذا هو المراد من أحاديث نزول المسيح عليه السلام.

وردت تصريحات كثيرة عن إشارات القرآن الكريم هذه في الأحاديث النبوية:

«لا يزالُ من أُمَّتي أمةٌ قائمةٌ بأمرِ الله لا يضرُّهم مَن خذَلَهم ولا من خالَفَهم، حتى يأتيَهم أمرُ اللهِ وهم على ذلك». (صحيح البخاري، باب علامات النبوة). [2]

«لا يَزالُ ناسٌ من أمَّتي ظاهرينَ، حتى يأتيهم أمرُ اللهِ وهم ظاهرون». (صحيح البخاري، باب علامات النبوة). [3]

---

(1) تفسير روح المعاني، تفسير الآية رقم ٥٥ من سورة آل عمران.

(2) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (٣٥٦١) حدثنا الحُميديُّ حدَّثنا الوَليدُ قال: حدَّثني ابنُ جابر قال: حدَّثني عُميرُ بن هانىء أنه سمعَ معاويةَ يقول: «سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: لا يزالُ من أُمَّتي أمةٌ قائمةٌ بأمرِ الله لا يضرُّهم مَن خذَلَهم ولا من خالَفَهم، حتى يأتيَهم أمرُ اللهِ وهم على ذلك». قال عُمَير: فقال مالكُ بنُ يُخامِرَ: قال مُعاذٌ: «وهم بالشام»، فقال معاوية: هذا مالكٌ يزعمُ أنه سمعَ مُعاذاً يقول: «وهم بالشام». (المترجم).

(3) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (٣٥٦٠) حدثنا عبدُ اللهِ بنُ أبي الأسودِ حدَّثنا يحيى عن إسماعيلَ حدَّثنا قيسٌ سمعتُ المغيرةَ بن شُعبةَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «لا يَزالُ ناسٌ من أمَّتي ظاهرينَ، حتى يأتيهم أمرُ اللهِ وهم ظاهرون». (المترجم).

«لا يزال من أمَّتي قومٌ ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمرُ اللَّـه» (صحيح البخاري، كتاب التوحيد).(١)

«لا يزالُ من أمَّتي أمةٌ قائمة بأمرِ اللّهِ لا يضرُّهم من كذَّبَهم ولا من خذلهم حتى يأتيَ أمرُ اللَّه وهم على ذلك» (صحيح البخاري، كتاب التوحيد).(٢)

«لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ. لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ. حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ» (٣) (صحيح مسلم، كتاب الإمارة).

«لَنْ يَبْرَحَ هَـذَا الدِّينُ قَائِماً، يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ». (١) (صحيح مسلم، كتاب الإمارة).

---

(١) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (٧٢٩٣) حدَّثَنا شهابُ بن عبَّاد حدَّثَنا إبراهيمُ بن حميدٍ عن إسماعيل عن قيسٍ عن المغيرة بن شعبةَ قال: «سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: لا يزال من أمَّتي قومٌ ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمرُ اللَّه». (المترجم).

(٢) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (٧٢٩٤) حدَّثَنا الحميديُّ حدَّثَنا الوليد بن مُسلم حدَّثَنا ابن جابر حدثني عميرُ بن هانىءٍ أنه سمعَ معاوية قال: «سمعت النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: لا يزالُ من أمَّتي أمةٌ قائمة بأمرِ اللّهِ لا يضرُّهم من كذَّبَهم ولا من خذلهم حتى يأتيَ أمرُ اللَّه وهم على ذلك».

فقال مالكُ بنُ يُخامِرَ: سمعتُ مُعاذاً يقولُ: وهم بالشام، فقال معاوية: هذا مالكٌ يزعمُ أنه سمعَ معاذاً يقول: وهم بالشام. (المترجم).

(٣) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم: (٤٩٠٦) حدّثنا سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ وَ أَبُو الرَّبِيعِ الْعَتَكِيُّ وَ قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ. قَالُوا: حَدَّثَنَا حَمَّادٌ وَهُوَ ابْنُ زَيْدٍ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ أَبِي قِلاَبَةَ عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ. لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ. حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ». وَلَيْسَ فِي حَدِيثِ قُتَيْبَةَ «وَهُمْ كَذَلِكَ». (المترجم).

«لاَ تزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ». [٢] (صحيح مسلم، كتاب الإمارة).

«لاَ تزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللّهِ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَـذَلَهُمْ أَوْ خَـالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَـى النَّـاسِ» [٣] (صـحيح مـسلم، كتـاب الإمارة).

«وَلاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَىٰ مَنْ نَاوَأَهُمْ، إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [٤] (صحيح مسلم، كتاب الإمارة).

---

(١) صحيح مسلم: (٤٩٠٩) وحدّثنا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى وَ مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ. قَالاَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّـدُ بْنُ جَعْفَرٍ. حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ «لَنْ يَبْرَحَ هَـذَا الدِّينُ قَائِماً، يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُـسْلِمِينَ، حَتَّـىٰ تَقُـومَ الـسَّاعَةُ». (المترجم).

(٢) صحيح مسلم: (٣٥٠) حدّثنا الْوَلِيدُ بْنُ شُجَاعٍ وَ هَـارُونُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ وَ حَجَّـاجُ بْـنُ الشَّاعِرِ قَالُوا: حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ وَهُوَ ابْنُ مُحَمَّدٍ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّـهُ سَمِعَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِـي يُقَـاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ: فَيَنْزِلُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَـالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ: لاَ. إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ. تَكْرِمَةَ الله هٰذِهِ الأُمَّةَ». (المترجم).

(٣) صحيح مسلم: (٤٩١١) حدّثنا مَنْصُورُ بْنُ أَبِي مُزَاحِمٍ. حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ حَمْزَةَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ هَانِىءٍ قَالَ: سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْمِنْبَرِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللّهِ، لاَ يَـضُرُّهُمْ مَـنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ». (المترجم).

(٤) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم: (٤٩١٢) وحدّثني إِسْحَـٰقُ بْـنُ مَنْصُورٍ. أَخْبَرَنَا كَثِيرُ بْنُ هِشَامٍ. حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ وَهُوَ ابْنُ بُرْقَانَ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ الأَصَمِّ قَالَ: سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، ذَكَرَ حَدِيثاً رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ. لَمْ أَسْمَعْهُ رَوَىٰ عَـنِ النَّبِـيِّ

«لاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ، وَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ» [1] (صحيح مسلم، كتاب الإمارة).

وهذه هي الأحاديث التي وردت في الصحيحين فقط، كما أن هناك أحاديث تدل على هذا المعنى في كتب الأحاديث الأخرى والتي من بينها المستدرك للحاكم، وجامع سنن الترمذي، وسنن النسائي، وسنن أبي داود، وسنن ابن ماجه، وسنن ابن حبان.[2] يتضح من هذا أن النبي (ﷺ) أخبر بهذه النبوءة بهذا الوضوح والقوة كي يُريح صدورنا ويطمئننا بأنه ستبقى دائما طائفة من

عَلَىٰ مِنْبَرِهِ حَدِيثاً غَيْرَهُ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ. وَلاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَىٰ مَنْ نَاوَأَهُمْ، إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ». (المترجم).

[1] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم: (٤٩١٣) حدّثني أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ وَهْبٍ. حَدَّثَنَا عَمِّي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ. حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ. حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ. حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ شُمَاسَةَ الْمَهْرِيُّ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ مَسْلَمَةَ بْنِ مُخَلَّدٍ، وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ عَلَىٰ شِرَارِ الْخَلْقِ. هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ. لاَ يَدْعُونَ اللَّهَ بِشَيْءٍ إِلاَّ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ. فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ. فَقَالَ لَهُ مَسْلَمَةُ: يَا عُقْبَةُ اسْمَعْ مَا يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ. فَقَالَ عُقْبَةُ: هُوَ أَعْلَمُ. وَأَمَّا أَنَا فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «لاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ، وَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ». فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَجَلْ. ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحاً كَرِيحِ الْمِسْكِ. مَسُّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ. فَلاَ تَتْرُكُ نَفْساً فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الإِيمَانِ إِلاَّ قَبَضَتْهُ. ثُمَّ يَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ، عَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ. (المترجم).

[2] انظر كنز العمال، ج ٢، صـ ٢٣١، ٢٣٥.

المسلمين تقاتل على الحق إلى يوم القيامة بما أُتيت من غلبة وقوة ظاهرية وباطنية حتى تقوم وتبقى رسالة الحق في الدنيا إلى يوم القيامة. ومعنى هذا بوضوح هو أنه لن يُبعث أي نبي آخر في المستقبل، وإن الغرض الذي كان يقوم به الأنبياء أو الرسل عليهم السلام تقوم به جماعة من المسلمين في كل زمان. ورد في حديث نبوي شريف[١] أن علماء الأمة المحمدية ورثة الأنبياء[٢]. واضح أن هذه الوراثة ليست وراثة وظيفة ومقام النبوة، لأن النبوة خُتمت بمحمد

---

[١] ورد هذا الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل، وغيره من كتب الحديث الأخرى بروايات مختلفة، لذا أخذ به المحدثون. انظر المقاصد الحسنة، السخاوي، وكشف الخفاء، عجلوني، صـ ٦٤.

[٢] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن الترمذي: (٢٧٥٢) حدَّثنا مَحْمُودُ بنِ خِدَاشٍ الْبَغْدَادِيُّ، أخبرنا مُحمَّدُ بنُ يَزِيدَ الوَاسِطِيُّ، أَخْبَرنَا عَاصِمُ بنُ رَجَاءِ بنِ حَيوَةَ، عن قَيْسِ بنِ كَثِيرٍ، قالَ: «قَدِمَ رَجُلٌ منَ المَدِينَةِ عَلَى أَبي الدَّرْدَاءِ وَهُوَ بِدِمَشْقَ فَقَالَ مَا أَقْدَمَكَ يَا أَخِي؟ فقالَ حَدِيثٌ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عن رَسُولِ الله، قال: أَمَا جِئْتَ لِحَاجَةٍ؟ قالَ لاَ. قالَ أَمَا قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ؟ قالَ لاَ. قالَ مَا جِئتُ إلاَّ في طَلَبِ هَذَا الْحَدِيثِ. قالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله يَقُولُ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فِيه عِلْماً سَلَكَ الله له طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًى لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ في السَّمٰوَاتِ وَمَنْ في الأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ في المَاءِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إنَّ الأنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً، إنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِه فَقَدْ أَخَذَ بِحَظٍ وَافِرٍ.

قال أبو عِيسَى: وَلاَ نَعْرِفُ هَذَا الْحَدِيثَ إلاَّ مِنْ حَدِيثِ عَاصِمِ بنِ رَجَاءِ بنِ حَيوَةَ، وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ عِنْدِي بِمُتَّصِلٍ هَكَذَا حدثنا مَحْمُودُ بنُ خِدَاشٍ بهذا الإسناد، وَإِنَّمَا يُرْوَى هَذَا الْحَدِيثُ عن عَاصِمِ بنِ رَجَاءِ بنِ حَيْوَةَ، عن الوليد بنِ جَمِيلٍ، عن كَثِيرِ بنِ قَيْسٍ عن أَبي الدَّرْدَاءِ، عن النبيِّ وَهَذَا أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ مَحْمُودِ بنِ خِدَاشٍ ورايُ محمد بن إِسْمَاعِيل هذا اصح. (المترجم).

(ﷺ)، وإنما سيفوزون حسب استعدادهم ومقدرتهم بفرائض وفضائل النبوة. وهي تبليغ الدعوة، وهداية الخلق، والدعوة إلى الحق، وإقامة الدين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ودفع الشكوك والشبهات، وإبطال المبطلين، ورد البدع وغيرها، ويقومون بأداء هذه المهمة كاملة.

وفضلا عن علماء الأمة يفوز الصالحون أيضا بهذه الدرجة والمرتبة، ففي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه في يوم القيامة حين تنجو الأمم بأسرها من أول مصيبة في يوم القيامة بشفاعة الرسول (ﷺ) فستشهد هذه الأمم بلسان واحد عن الأمة المحمدية قائلة:

"كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها" (مسند الطيالسي، ص ٣٥٤ عن ابن عباس، ومسند الإمام أحمد وأبو يعلى).[١]

---

(١) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في مسند الإمام أحمد: (٢٦٩٥) حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا حسن ثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي نضرة قال: « خطبنا ابن عباس على هذا المنبر منبر البصرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه لم يكن نبي إلا له دعوة تنجزها في الدنيا، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، آدم فمن دونه تحت لوائي، قال: ويطول يوم القيامة على الناس حتى يقول بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى آدم أبي البشر فيشفع لنا إلى ربه عز وجل فليقض بيننا، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون: يا آدم، أنت الذي خلقك الله بيده، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، فاشفع لنا إلى ربك فليقض بيننا، فيقول: إني لست هناكم، إني قد أُخرجت من الجنة بخطيئتي، وإنه لا يهمني اليوم إلا نفسي، ولكن ائتوا نوحاً رأس النبيين، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، اشفع لنا إلى ربك فليقض بيننا، فيقول: إني لست هناكم، إني قد دعوت دعوة غرقت أهل الأرض وإنه لا يهمني اليوم إلا نفسي، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الله عليه السلام. قال: فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، اشفع لنا

إلى ربك فليقض بيننا، فيقول: إني لست هناكم إني قد كذبت في الإسلام ثلاث كـــذبات، وإنه لا يهمني اليوم إلا نفسي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن حاول بهن إلا عن دين الله قوله: { إني سقيم } وقوله { بل فعله كبيرهم هذا }، وقوله لامرأتـــه: إنهـــا أختي، ولكن ائتوا موسى عليه السلام، الذي اصطفاه الله برسالته وكلامه فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وكلمك فاشفع لنا إلى ربك فلـــيقض بيننا، فيقول: إني لست هناكم، إني قتلت نفساً بغير نفس، وإنه لا يهمني اليوم إلا نفسي، ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيـــسى أنـــت روح الله وكلمته فاشفع لنا إلى ربك فليقض بيننا، فيقول: إني لست هناكم قد اتُّخِذت إلهاً من دون الله، وإنه لا يهمني اليوم إلا نفسي، ثم قال: أرأيتم لو كان متاع في وعاء قد ختم عليه، أكان يقدر على ما في الوعاء حتى يفض الخاتم ؟ فيقولون: لا، فيقول: إن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، قد حضر اليوم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فيأتوني فيقولون: يا محمد، اشفع لنا إلى ربك فلـــيقض بيننا، فأقول: نعم، أنا لها، حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى، فإذا أراد الله عز وجل أن يصدع بين خلقه نادى منادٍ: أين أحمد وأمته ؟ فنحن الآخرون الأوّلون، فنحن آخر الأمم وأوّل من يحاسب، فتفرج لنا الأمم عن طريقنا فنمضي غرّاً محجلين من أثر الطهـــور، وتقول الأمم: كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها، قال: ثم آتي باب الجنة فآخذ بحلقة باب الجنة فأقرع الباب فيقال: من أنت ؟ فأقول: محمد فيفتح لي فأرى ربي عز وجـــل وهو على كرسيه أو سريره، فأخرّ له ساجداً وأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد كان قبلي ولا يحمده بها أحد بعدي، فيقال: ارفع رأسك، وقل تُسْمَع، وسَلْ تُعْطَه، واشفع تـــشفَّع، قال: فأرفع رأسي فأقول: أي ربّ، أمتي، أمتي فيقال لي: أَخْرِجْ من النار من كان فـــي قلبه مثقال كذا وكذا، فأخرجهم ثم أعود فأخر ساجداً، وأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد كان قبلي، ولا يحمده بها أحد بعدي، فقال لي: ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أي رب، أمتي أمتي، فيقال: أَخْرِجْ من النار من كان في قلبه مثقال كذا وكذا، فأُخْرِجُهم، قال: وقال في الثالثة مثل هذا أيضاً ». (المترجم)

جاء شرح لهذا في حديث نبوي شريف وهو أن الأمة المحمدية فازت بمرتبة شهداء على الأمة، فكما فاز بها الأنبياء والرسل عليهم السلام فازت هذه الأمة بمرتبة شهداء على الناس. جاء في أحاديث صحيحة أن الأمة المحمدية ستكون شاهدة على سائر الأمم يوم القيامة.[1] وربما يرجع السبب في هذا إلى أن الأمة المحمدية هي الأمة التي آمنت بصدق سائر الأنبياء والرسل. نقل الترمذي عن سيدنا عبادة بن الصامت هذه الرواية. أعطيت هذه الأمة ما لم يُعطى لأحد غيرها من بين ما أُنعم عليها أن قال الله تعالى لها:

"ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" (غافر: ٦٠).

في حين أن هذه المرتبة قد حصل عليها من قبلهم الأنباء والرسل فقط. والنعمة الثانية هي أن قيل لها.

"وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ" (الحج: ٧٨).

وهذا ما قيل إلا للأنبياء والرسل. والنعمة الثالثة أن قيل لها:

"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ" (البقرة: ١٤٣).

وهذا أيضا ما قيل لأحد من قبل إلا للأنبياء والرسل وهو أنكم شهداء على أممكم.

يتضح من هذا التفصيل أن فضائل الأمة المحمدية ونعمها النبوية التي وردت في هذه الرواية تؤيد في حقيقة الأمر الآيات القرآنية، فقد جاء في آيات قرآنية كثيرة أن الأمة المحمدية مُنحت فضيلة "شهادة على الناس" و"شهادة على الأمم."

---

[1] جمع الحافظ ابن كثير هذه الروايات في تفسير "لتكونوا شهداء على الناس" في الجزء الثاني من القرآن الكريم.

ويعني لفظ "شهيد" و"شاهد" في اللغه "حاضر" أي حضور شخص عند آخر، أو بقائه حاضرا عنده لأغراض مختلفة. منها على سبيل المثال لتأييده ونصرته، لدوام التعرف على حاله، لرعايته والاعتناء به، لشهادة أي واقعة تتعلق به ولتأييد أية دعوى منه، ولأمره بالمعروف ولنهيه عن المنكر، لذا بناء على أصول المعاجم يستخدم لفظ "شهيد" و"شاهد" في هذه المعاني الثانوية حسب السياق، وهو ما يتضح من آيات الذكر الحكيم التالية:

١. الاستخدام في معنى النصر والمؤيد:

"وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ" (البقرة:٢٣).

وهذه آية أخرى تؤكد هذا المعنى

"وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً" (الإسراء٨٨).

٢. في معنى المطلع على كل حال وكيفية:

"إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" (الحج:١٧).

وهناك آيات قرآنية أخرى في هذا المعنى

٣. في معنى العناية والرعاية:

"وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّادُمْتُ فِيهِمْ" (المائدة: ١١٧).

٤. في معنى الشاهد ومؤيد الدعوى:

"فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً" (النساء: ٤١).

٥. في معنى الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر:

"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً" (البقرة:١٤٣).

وهذه آية قرآنية ثانية تؤيد هذا المعنى:

"كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ"

(آل عمران: ١١٠).

يتضح من هذا التفصيل أن الأمة المحمدية والتي هي آخر أمة بُعثت لتقوم بأعمال الأنبياء في هذه الدنيا كآخر شاهد لله تعالى، فهي شاهدة على دعوى الأنبياء، ومؤيدة ومناصرة وشاهدة لهم، بُعثت لتكون رقيبة وقيّمة على سائر الأمم في الدنيا. ومسئوليتها هي أن تقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس حتى تقوم الساعة. والآن قد انتهت سلسلة إرسال الأنبياء والرسل عليهم السلام، واكتمل الدين الإلهي وتكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه، وكلف سبحانه الأمة المحمدية بفرض ومهمة تبليغ هذا الدين ونشره. فأصبحت مسئوليتها الآن هي أن تقوم بفرائض ومهام إعلاء كلمة الله تعالى في الدنيا بأسرها، وإشاعة الحق، وتبليغ الدين، وإرسال العدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن تقوم الساعة. والرسول محمد (ﷺ) إمامها وهاديها، وهي بنفسها إمام كافة الأمم، وفرض عليها أن تقوم بمهام ومسئولية الإمامة والهداية، لذا تتضح أفضليتها هذه يوم القيامة في صورة شهادتها على كافة أمم الأنبياء والرسل عليهم السلام كما جاء في صحيح البخاري:

"قال رسول الله (ﷺ): يُدعىٰ نوحٌ يومَ القيامةِ فيقول: لبَّيك وَسَعدَيك يا ربِّ، فيقول: هل بلَّغتَ؟ فيقول: نعم. فيقال لأمتِه: هل بلَّغَكُم؟ فيقولون: ما أتانا من نَذير، فيقول: من يشهدُ لك؟ فيقول: محمدٌ وأمتُه. فيشهدون أنه قد بلَّغ. ثم قرأ رسول الله (ﷺ) هذه الآية الكريمة:

"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً" (البقرة:١٤٣). (صحيح البخاري تفسير سورة البقرة).[1]

---

(١) وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (٤٣٧٣) حدَّثنا يوسفُ بن راشد حدَّثنا جَريرٌ و أبو أُسامةَ واللفظُ لجريرٍ عن الأعمشِ عن أبي صالح ح وقال أبو

نقل الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة أحاديث أخرى متعـددة عن أحمد بن حنبل في مسنده والحاكم في مستدركه وغيرهما يثبت فيها أن سيدنا نوح عليه السلام قد ذُكر هنا كمثال، إذ أن الأمة المحمدية ستشهد علـى سـائر الأمم في الدنيا، وسبب هذا جلي وواضح وهو أن هذه الأمة هي الأمة الوحيـدة في الدنيا التي تشهد بصدق كافة الأنبياء والرسل عليهم السلام وكتبهم وصحفهم، وبدون هذه الشهادة لا يمكن لأيٍ أحد أن يدخل في هذه الأمة المحمدية، لأن هذا جزء من إيمانها، وهذا الإيمان الذي يعني الشهادة وسيظهر في صورة الـشهادة يوم القيامة على تأييد صدق الأنبياء والرسل عليهم السلام أمام أممهم.

ونزلت آية كريمة في سورة الحج تُؤكد على آية سورة البقرة هذه. يقول الله تعالى:

"هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَـمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَـى النَّاسِ" (الحج: ٧٨).

وردت في هذه الآيات القرآنية الثلاث ثلاثة أوصاف للأمة المحمدية، وهي أنها أمة وسطا «أمة وسطا»، وخير أمة، واختارها الله «**هو اجتبـاكم**»، فهـذه

ــامة: حدثنا أبو صالح عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه قال: «قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: يُدعىٰ نوحٌ يومَ القيامةِ فيقول: لبَّيك وَسَعدَيك يا ربِّ، فيقول: هـل بلَّغتَ؟ فيقول: نعم. فيقال لأمتِه: هل بلَّغَكُم؟ فيقولون: ما أتانا من نَذير، فيقول: من يشهدُ لك؟ فيقول: محمدٌ وأمتُه. فيشهدون أنه قد بلَّغ، ويكونَ الرسولُ عليكم شَهيداً فذلك قولـه جلَّ ذكرُه: {وكذلك جعلناكم أمةً وَسطاً لتكونوا شُهَداءَ على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً}. (البقرة: ١٤٣) والوَسطُ: العدل». (المترجم).

الأوصاف الثلاثة شاهدة على أفضلية هذه الامة، ليس هذا فحسب بل إن وصف (اجتباكم) أي اختاركم وفضلكم لم يُطْلق إلا على الأنبياء والرسل عليهم السلام.

والسبب الثاني لشهادة هذه الأمة المحمدية على كافة الأمم هو أن محمداً رسول الله (ﷺ) شاهد عدل هذه الأمة، وبُعث كآخر نبي إلى يوم القيامة، لذا فكل أمم الدنيا مهما تنسب نفسها لأي نبي سابق فهي تابعة لدعوة النبي (ﷺ)، وقد دعاهم النبي (ﷺ) في حياته إلى الإسلام، وبعده (ﷺ) فُرض على الأمة المحمدية مهمة تبليغ ودعوة هذه الرسالة الإلهية إلى يوم القيامة جيل بعد جيل طالما بقت الدنيا. وهذه هي مسئولية الأمة المحمدية إلى يوم القيامة وهي التبليغ والدعوة لدين الله تعالى في كل بلد، وكل شعب، وفي كل أرجاء المعمورة. وهذا هو ما يُطلق عليه في اصطلاح بعض العلماء ببعثة الأمة المحمدية، والذي قال عنه شاه ولي الله الدهلوي المحدث المعروف التالي:

"إن أفضل نبي بين سائر الأنبياء والرسل هو من له نوع آخر من البعثة. وتفصيل هذا هو حين يُقدر الله تعالى أن يكون هذا النبي وسيلة لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ويجعل من قومه أمة تُصلح غيرها من الأمم، فتشمل بعثة هذا النبي الأولى بعثة ثانية" (باب حقيقة النبوة).

ومراد شاه ولي الله هو أن بعثة النبي الأولى تُصلح وتُطهر قومه وتجعلهم نموذجا لأحكام وتعليمات وآداب هذا النبي، ثم يأخذ هذا القوم رسالة نبيهم كاملة وينشرونها بين الأقوام الأخرى في الدنيا، وتهتدي بهم أقوام يُبعثون إلى أقوام أخرى وهكذا تستمر هذه السلسلة حتى يوم القيامة.

يقول شاه ولي الله رحمة الله عليه إن نبأ البعثة الأولى للنبي واضح في هذه الآية الكريمة:

"**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ**" (الجمعة: ٢).

أما بيان بعثة الأمة فهو واضح جلى في قوله تعالى:

"كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ" (آل عمران: ١١٠).

وصرح عن هذه البعثة في حديث صحيح، يقول فيه الرسول (ﷺ) لصحابته الكرام:

«فإنما بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين»[(١)]

يثبت من هذا أن الأمة المحمدية حاملة لرسالة حق، ومأمورة من قبل رسولها بالدعوة والتبليغ، وبُعثت لخدمة إصلاح وتزكية أمم الدنيا الأخرى، ولتبليغ ونشر رسالة نبيها في كل أرجاء الدنيا، إذ قال النبي (ﷺ) في حجة الوداع آخر أمر له:

«فليبلغ الشاهد الغائب» [(٢)]

---

(١) وهذا نص الحديث كما ورد فى صحيح البخاري، باب يسروا ولا تعسروا، كتاب الأدب: (٥٩٨٦) حدّثنا أبو اليَمانِ أخبرَنا شُعيبٌ عن الزُّهريِّ ح. وقال الليث: حدثني يونسُ عن ابن شهابٍ أخبرَني عُبيدُ الله بن عبد الله بن عُتبةَ أن أبا هريرةَ أخبرَه «أنَّ أعرابياً بال في المسجد، فثار إليه الناسُ ليَقَعوا به، فقال لهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: دَعوهُ وأهريقوا على بولهِ ذَنوباً من ماء أو سَجْلاً من ماء ــ فإنما بُعِثتم مُيسِّرين ولم تُبعثوا مُعسرين». (المترجم).

(٢) وهذا نص الحديث كما ورد فى مسند أحمد بن حنبل: (٢٠٠٠٠) حدّثنا عبد الله حدَّثني أبي حدثنا محمد بن أبي عدي عن ابن عون عن محمد يعني ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبي بكرة قال: لما كان ذلك اليوم قعد النبي صلى الله عليه وسلم على بعير وأخذ رجل بزمامة أو بخطامه فقال: أي يوم يومكم هذا قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه قال: أليس بالنحر قال: قلنا بلى قال: فأي شهر شهركم هذا قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه فقال: أليس بذي الحجة قال: قلنا بلى قال: فأي بلد بلدكم هذا قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه فقال:

وهذا التبليغ وهذه الدعوة لا تقتصر على عهد النبي (ﷺ) فقط، بل جارية وسارية حتى تقوم الساعة. قيل يُبلغ الشاهد الغائب على مر العصور. وهذا هو المراد أيضا من قوله عز وجل:

"فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ" (التوبة: ١٢٢).

وهكذا تستمر بعثة الدعاة حتى يوم القيامة.

وهذا هو المراد من هذه الآية القرآنية الكريمة كما ذكر شاه ولي الله الدهلوي:

"كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" (آل عمران: ١١٠).

يتضح من هذا أن الأمة تنال هذا الشرف بشرط تمسكها دائما بفرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم الحياد عنها أبداً، وإيمانا بالله، وأن تعمر قلوبهم بالإيمان بالله عز وجل ويفدون بأنفسهم في نشر الخير ودفع الشر، ولهذا ورد هذا الحكم والأمر قبل عدة آيات فقط من هذه السورة الكريمة. إذ يقول الله تعالى:

"وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ" (آل عمران: ١٠٤).

يثبت من هذا أن فلاح الأمة المحمدية مضمر ومستتر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتبليغ والدعوة، الأمر الذي يقود أقواما وأمما

أليس بالبلدة قال: قلنا بلى قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا فليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغه من هو أوعى له منه قال محمد: فقال رجل: فقد كان ذاك. (المترجم).

جديدة إلى الإسلام في كل عصر ويعملون على بقاء ودوام الإسلام وشريعته وصولته وعلو شأنه. ولكن منذ أعتبر المسلمون أن الأمة تعني القوم[1]، عقمت الأمة، وأغلق باب دخول أقوام وأمم أخرى فيها، ولكن إن شاء الله سيتحقق هذا الوعد الإلهي وهو أنه إذا أغفل قوم عن أداء فرضه ومهام مسئوليته فسوف يأتي قوم آخر يقوم بهذا الفرض ويؤدي مسئوليته. يقول الله تعالى:

"إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً" (التوبة: ٣٩).

ويقول الله تعالى في سورة المائدة:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ" (المائدة: ٥٤).

اتضح أن صفات القوم الذين سيأخذون المكان الجديد يتصفون بصفات هي أنهم يحبون الله تعالى ويحبهم الله سبحانه، ويتعاملون بالحسنى مع إخوانهم

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى النزعة القومية التي انتشرت بين المسلمين بسبب الاستعمار الغربي، خاصة أولئك المستشرقين الذين عمدوا إلى غرس فكر النزعة القومية بين عامة المسلمين حتى يتفككوا، وتضعف قوتهم، وتفتر عزيمتهم، ويصبحوا صيداً سهلاً لأعدائهم في كل مكان. والحقيقة هي أن فكر النزعة القومية أخذ ينتشر في بلاد الغرب كله في القرن الثامن عشر الميلادي، ثم أخذ يقوى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فحاول كل شعب من أوروبا وغيرها من دول الغرب يهتم بقوميته، ويعمل على إحياء تراثه في كل شئ. وهنا أدرك اليهود في مختلف أوربا أنهم دون هوية، ومن ثم يعملون على إيجاد هوية ونزعة قومية لهم، وانتهى بهم الأمر إلى تأسيس وطن مستقل في فلسطين. (المترجم).

في الدين، وأعزة على الكافرين، ويكونون دائما على أهبة الاستعداد للجهاد في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم في إظهار الحق وإرساء العدل.

ورد تفصيلا في الآيات الأخيرة من سورة الحج فرائض الأمة التي شُرِفت بهذه البعثة والشاهدة على الأمم الأخرى. يقول الله تعالى:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ" (الحج: ٧٧ – ٧٨).

وهذه هي صفات وعلامات الأمة التي هي مختارة ومجتباة وشاهدة على سائر الأمم كما يتضح من هذه الآيات القرآنية الحكيمة:

١. الحرص الكامل على أداء الصلاة.

٢. الحرص الكامل على أداء الزكاة.

٣. الإيمان بالله إيمانا كاملا والتوكل عليه سبحانه وتعالى.

٤. اعتياد الركوع والسجود وعبادة الله.

٥. الحرص على فعل أمور الخير كلها.

٦. الجهاد في سبيل الله حق جهاده.

إن القوم الذين سيتصفون بهذه العلامات والخصال من بين أمة محمد (ﷺ)، هم الذين يصدقون هذه النبوءات بإذن الله تعالى والذين مر سابقا الحديث عن بقائهم واستقرارهم وغلبتهم وشكيمتهم، وبهم يُحقق الله تعالى وعده الحق.

القوة العاملة أو القوة الآمرة

إذا أرادت أي جماعة بناء وتأسيس جماعة منظمة فتقتضي الفطرة الإنسانية ضرورة وجود القوة العاملة أو القوة الآمرة كي تحافظ عليها وتحميها وتنفذ قوانينها وتنشرها، لذا لا توجد أي جماعة منذ أن بدأ التاريخ الإنساني ليس لها أي قائد أو سيد، فحين كان المجتمع الإنساني مجرد أسرة واحدة كان كبير هذه الأسرة زعيمها ورئيسها، وكان كل أمر منه قانونا. وحين اتخذت الأسرة شكل الجماعة فأصبح سيدها حاكما وآمراً لها، وحين كثرت الجماعة واتخذت شكل القوم والشعب، فظهر الملوك والأمراء، والذين اعتبروا أن هذا التكريم والشرف وهذه المكانة وسيلة للتكبر والغرور على القوم واعتبروه ميراثا لهم، ووصفوا أنفسهم بأنهم فوق قوى البشر. ونتج عن هذا الوهم الادعاء بأنهم أولاد الآلهة ومن ثم فعبادتهم فرض على رعاياهم، ومنهم من جعل نفسه ابن الشمس، ومنهم من جعل نفسه ابن القمر أي منهم من قال بأنه نور إله الشمس، ومنهم من قال بأنه قطعة من القمر، وكانوا جميعهم يقولون بأنهم أنبياء ورسل الملائكة والقوة الربانية.

كان النمرود جبار العراق، وكان فراعنة مصر يطلقون على أنفسهم لقب رع أي يقولون بأنهم أنبياء ورسل إله الشمس، وكان من بينهم ذلك الفرعون الذي كان في عهد سيدنا موسى عليه السلام والذي قال لقومه: "**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**". وكان ملك الصين يقول على نفسه بأنه ابن الإله، لذا أطلق عليه الإيرانيون في لغتهم مسمى "بغپور" أي ابن الإله، وأطلق عليه العرب "ابن ماء السماء" ولا

لهذا الحكم، ويكون لسانه فرمانا له، وشاهدت الدنيا ملوكًا كثيرين من هذا النوع.

٣. والحكم الأميري هو أن يجتمع أفراد البلد الأثرياء ذوو الوقار ويحكمون بلدهم. وحدث هذا في اليونان.

٤. لو يُعطى أي شخص قوته السياسية وقوة وضع القانون في أيدي أفراد منتخبين من بلده ويقتصر هو على مرتبة الملك الظاهري فقط، فهذا هو الحكم الدستوري كما في انجلترا حيث لا يتمتع الملك بأي نفوذ.

٥. الحكم الزعيمي. هو ذلك الحكم الذي يحكم فيه أي شخص البلد بسبب يرجع إلى قوته الذاتية، أو هو عضو في جماعة ويُمثل روحها ويحكم البلد باعتباره ممثلا لهذه الجماعة ومن أمثلة هذا هتلر في ألمانيا، وموسوليني في إيطاليا فرغم أنهما لم يكونا ملكين إلا أن حكمهما كان يعتبر حكما ملكيا والفرق فقط هو أن هذا الحكم لم يكن يُمثل أي أسرة بل كان يمثل جماعة.

٦. ولو يجتمع أفراد كل طبقات البلد وينتخبوا رئيسا لهم لمدة معينة ويحكم طبقا لقواعد وأصول معينة فهذا هو الحكم الجمهوري. وأمثلة هذا الحكم نجدها في فرنسا وأمريكا. ورئيس الجمهورية في فرنسا يقل نفوذه مثلما يقل نفوذ الملك في إنجلترا، ومسئولية الحكم في إنجلترا تقع على رئيس مجلس الوزراء، أما في أمريكا فهي تقع على رئيس الجمهورية، ولا توجد فيها سلسلة الوزراء بل هناك معاونون من شُعب مختلفة من السكرتارية وهناك شكل من هذه الجمهورية في جمهورية روسيا الاشتراكية والتي تشتمل على ممثلين جمعيات مختلفة الفلاحين والعمال.

يبدو من النظرة الإجمالية على تاريخ حكومات العالم المختلفة في السطور السابقة أن البشر كم من طرق ومناهج وأساليب ووصفات استخدموها حتى الآن لعلاج أمراضهم السياسية.

حين تدبر (علماء الغرب) في نظام الحكم الإسلامي تدبروا فيه حسب بيئة وطبيعة الفترة التي يدرسونها وحاولوا إثبات مطابقته لهذه البيئة والفترة، فأطلق سياسيو أوروبا على الخلافة الإسلامية مسمى الحكومة الدينية، وأطلق عليها قدماء العلماء الذين قد تعودوا على الحكومات الشخصية مسمى الحكومة الشخصية، وحين رأى المحدثون نظام حكم الإنجليز أطلقوا عليها مسمى الحكم الدستوري، ثم حين وقعت أنظارهم على الجمهوريين لم يتوانوا في إطلاق مسمى الجمهورية عليها، وبعد الحرب الماضية حين انتشرت الاشتراكية. فتجرءوا وأطلقوا عليها مسمى الاشتراكية، ثم حين أخذ الحكم الزعيمي الحالي (الدكتاتورية) يُثبت من قوته أخذوا يتجهون غلى إثبات أنها حكم زعيمي (دكتاتوري).

والحقيقة هي أن تصور الحكم الإسلامي الذي قام بناء على نظام الحكم الذي أرساه الإسلام في مراحله الأولى ونوعية التعاليم التي قدمها يبدو فيه في وقت واحد خصائص ومظاهر الحكم الديني، والشخصي، والدستوري، والجمهوري، والزعيمي، ولهذا يُعبر كل واحد عنه حسب مزاجه ومشربه، في حين أن الواقع هو أنه نظام حكم جاء به محمد رسول الله (ﷺ). وقدمه الإسلام نفسه، وليس حكما دينيا، أو شخصيا، أو دستوريا، أو جمهوريا، أو زعيميا، بل هو نظام حكم تجتمع فيه فضائل وخصائص كل هذه الحكومات، ولكنه خال تماما من مسائها ومثالبها، ومن ثم يبدو للناظرين على أنه حكم ديني أحياناً، وأحيانا شخصي، وأحيانا زعيمي وأحيانا دستوري، وأحيانا جمهوري، وأحيانا

اشتراكي، ولكن حين يُنظر إليه من خلال وجهته الأصلية ويُتدبر في كل خصائصه يبدو في شكل وقالب مستقل تماما عن كل هذه الأنظمة والحكومات.

إن الحكم الإسلامي يقوم كلية على الأحكام الدينية، ولكن أميره أو خليفته ليس إله، وليس نبيا أو رسولا من الإله، وليس مظهراً للإله، وليس المتكلم مع الإله، وليس من يحصل على الأحكام مباشرة من الإله، وليس فيه أي تقديس إلهي، ولا هو معين من قبل الإله؛ بل هو إنسان قد اختاره المسلمون برغبتهم أو الخليفة السابقة ليكون قائداً للأمة ومن أجل تنفيذ شريعة الله سبحانه وتعالى، وباعتبار أن الحكم الإسلامي مبني على أحكام الله تعالى المبلغة عن رسول الله (ﷺ)، يمكن القول بأنه حكم إلهي.[1] في الحكم الإسلامي اعتراف وتسليم بأرباب الشورى وأهل الحل والعقد، وتأكيد على الشورى، ومن ثم يمكن القول بأنه حكم دستوري تجاوزاً. ولما كان انتخاب الخليفة يتم من قبل أفراد الأمة كلها، وليس هناك مثقال ذرة تميز بينه وبين عامة أفراد الأمة في حق الحكومة ومنافعها؛ فيمكن للناس أن يُطلقوا عليه الحكم الجمهوري. ولما كانت طاعة أحكام وأوامر الخليفة الشرعية واجبة على الأمة، وليس الخليفة مجبوراً قطعا على الإيمان والتسليم بمشورة الأمة؛ فيمكن القول بأنه حكم شخصي. ولما كان أي حكم صواب وجائز للخليفة واجب التنفيذ على الأمة دون تردد، فيمكن القول بأنه حكم زعيمي أي دكتاتوري، ولكن بناء على وجهات النظر المختلفة هذه واضح أن أية نظرية من النظريات التي صنعها سياسيو الغرب ليست صادقة تماما على نظام الحكم الإسلامي.

---

[1] يُوضح المؤلف هنا نظريات سياسيو الغرب في نظام الحكومة الإسلامية. (المترجم).

الحقيقة هي أن نظر السياسيين قد غرق في قضايا الأشـكال الظاهريـة للحكم وما أنتج شيئا، فالشكل الظاهري للحكومة في نظر الإسـلام أي طريقـة الانتخاب وترتيب أرباب الشورى، وتحديد فرائضهم وحقوقهم وانتخابهم وطريقة إبداء رأيهم وغيرها من المسائل التي تتعلق بهذا الأمر ليست ذات أهمية، إذ أن حقيقة الأمر هي تقوى أمير ورئيس الحكومة ووزرائه وعمالـه أي إحـساسهم وإيمانهم القلبي بمسئوليتهم أمام الله تعالى، ويقينهم بحقيقة أن أي جزء من الحكم ليس ملكا لأي شخص أو أي أسرة، بل هو ملك لله تعالى وفرض على الحكومة تنفيذ أحكامه وأوامره سبحانه وأن عامة المسلمين متساوون في أحكام وفرائض الحق تبارك وتعالى، وأنهم جيمعا سواسية في أنهم عبادا له وتـابعين لأوامـره وأحكامه سبحانه وتعالى.

إن مبدأ عامة الحكومات هو تكبيل أقوال وأفعـال الـسلاطين والحكـام وعمال السلطنة بسلسلة من القوانين حتى لا يحيدوا عن الحق والعدل، أما الحكم الإسلامي فهو يتصف بأنه يملك قلوب حكامه وعماله حتى لا يحيدوا عن الحـق والعدل بفضل التقوى والخوف من عذاب الآخرة وطاعة أحكام الله تعـالى. إن عامة الحكومات يتضح لها في كل يوم أن قوانينها لا أثر لها ومن هنا تُـصدر قوانين ثانية، ثم ثالثة، ورابعة، وهكذا تستمر في تشكيل وإصدار سلـسلة مـن القوانين حتى تمنع كل أنواع الجرائم والمساوئ والشرور، ولكن المجرم يظـل أيضا يُحطم هذه القوانين تحطيما بدهائه ومكره، ولا يتم الهدف المنشود للسلطنة. وعلى العكس من هذا تماما الحكم الإسلامي – إذا كان مطابقا لأصول وضوابط الإسلام – فهو يقضي تماما على كل الجـرائم و المـساوئ بـسبب تقـوى الله والخوف من عذاب الآخرة. والأمثلة على هذا كثيرة لا حصر لها في عهد النبوة والخلافة الراشدة وفي حكومات بعض الحكام العادلين. ولكن من أجل هذا لابـد

من استمرارية دعوة الأمة إلى الإيمان والعمل الصالح، فيصبح التربية والتعليم والدعوة والتبليغ تبقى وتدوم الأمة، مثلما تحرص مختلف الدول على حسن التربية والتعليم والتبليغ والدعوة بناء على ما يسمى اليوم بالتمدن والتحضر أو نظريات الفلاسفة أو السياسيين أو علماء الاقتصاد، وعلى هذا المعيار يقوم نظام مستقل للتربية والتعليم في كل دولة. ومن هنا فإنه بادئ ذي بدء هناك حاجة ماسة إلى إجراء التربية والتعليم الإسلامي من أجل بقاء واستقرار نظام الحكم الإسلامي.

المبدأ الأساسي الثاني للحكم الإسلامي

الحاكم الحقيقي هو الله تعالى فقط

قال الله تعالى: «إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ» (يوسف: ٦٧).

يبين الحق تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة أن الحكم ليس لأي أحد إلا الله تعالى، لذا فالحاكم الحقيقي في الإسلام هو الله تعالى. ولكن الأحكام الإلهية على قسمين، أحدهما تشريعي، وهو تلك الأحكام التي نزلت عن طريق الأنبياء عليهم السلام وأصبحت شريعة. والقسم الثاني هو الأحكام الكونية. أي تلك الأحكام التي أودعت في الكائنات فطريا، فالله تعالى هو الحاكم الحقيقي فقط باعتبار هذين القسمين. وحكمه وحده سبحانه هو الجاري والساري. مر في الدنيا ملوك مثل النمرود وفرعون ادعوا الملوكية، ولكنهم حنوا الرأس أمام الأحكام الإلهية الكونية، واضطروا إلى تسليم الروح (الموت) ويقع سلاطين الدنيا في مثل هذه الشُبهة وهي أنهم حين يُخضعون عباد الله تعالى لأحكامهم التشريعية وأوامرهم فيغترون ويعتقدون في أنهم أيضا آمرين للأحكام الكونية. وجاء الإسلام وقطع هذا الشك وهذه الشُبهة، وأقر بأن سلاطين وحكام الدنيا ليس لهم اختيار في الأحكام التشريعية ولا في الأحكام الكونية، فملوكية السماوات والأرض وما فيهن لله تعالى وحده وله وحده سبحانه الحكم في الأمر الكوني أو التشريعي. وورد هذا المعنى في آيات كثيرة من آيات الذكر الحكيم. يقول الله تعالى:

"إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ" (يوسف: ٦٧).

"أَلاَ لَهُ الحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ" (الأنعام: ٦٢).

"**لَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**" **(القصص:٨٨).**

وأوضح تماما عجز الإنسان في الحكم الكوني والفطري، فهو لا يمكن له أن يُنقص أو يزيد مثقال ذرة في الأرض أو السماء، وفي التــراب أو الريــاح، وفي الماء أو النار، وفي الجسم أو الروح، ولا يستطيع أن يُبدل في خــصائص الأشياء ولا يمكن أن يُغير في صفاتها، كما أنه لا يمكن له أن يُضيف أو يُنقص ذرة في قوانينها وقواعدها، فالجميع عاجز وخاضع أمام الأحكام الإلهية. حــين ادعى ملك في عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام الإلوهية، فأسكته عليه السلام بهذه الحجة والدليل. قال الله تعالى:

"**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**" **(البقرة: ٢٥٨).**

إن الحكم والسلطان لله تعالى وحده، وإن من يُطلق عليهم مسمى الحــاكم في الدنيا فهو (الحكم) في حقيقة الأمر عطاء ونعمة من الله تعالى لهؤلاء الناس. يقول الله تعالى:

"**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ**" (آل عمران: ٢٦).

لذا فعلى طريق الحق هو من يؤمن بأنه تابع وخاضع لأحكام الله تعــالى التشريعية كخضوعه لأحكامه سبحانه وتعالى الكونية، وهو من يدرك أيــضا أن الله تعالى آتاه الملك أو الحكم حتى يُقيم حدود الله وأحكامه سبحانه وتعالى فــي الدنيا طبقا لشريعته عز وجل. والنتيجة الحتمية لهذا الاعتقاد واليقين هي الإيمان والتسليم بأن حق إجراء وإصدار الأحكام ووضع القوانين لله تعالى وحده فقــط. أما الكليات والقواعد التي ذكرها الله تعالى في قوانين وأحكام شــريعته يمكــن للعلماء والمجتهدين في الدين استنباط الأحكام الجزئية الجديدة بتتبع هذه الكليات.

"مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ" (الأنعام: ٥٧).

وجاءت في سورة يوسف حين حث يعقوب عليه السلام أبنائه على دخول مصر من أبواب مختلفة حتى لا يُصابوا بأي أذى. ثم يقول إن هذا لهو تدبير بشري ولكن الله يفعل ما يشاء :
"وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ" (يوسف: ٦٧).

أما الآية الثانية "ألا له الخلق والأمر" فقد جاءت في هذا الموضع:
"إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ" (الأعراف: ٥٤).

واضح جلي أن هذا الأمر يتعلق بالخلق والتكوين كما يمكن أيضا أن يشتمل على الأمور التشريعية إلى حد ما بناء على السعة اللغوية للفظي "أمر" و"حكم" ولكن حين توجد أدلة صريحة أخرى في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف على هذه الدعوة فلم نترك هذه الأدلة الصريحة ونقتنع بالأدلة الإجمالية.

إن العبادة لا تعني فقط اتخاذ أي أحد معبوداً، وإنما تُطلق على أي أحد تُطاع أحكامه مثل طاعة أحكام الله رغم أنه لا يُطلق عليه باللسان لفظ "معبود"، ولا تُؤدى عبادته ظاهريا. يقول الله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام.
"لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ" (مريم: ٤٤).

ويقول الله تعالى في آية أخرى:
"أن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ" (يس: ٦٠).

اتضح من هاتين الآيتين الكريمتين أن الطاعة لله تعالى وحده. وهنا يطرح سؤال نفسه وهو كيف يكون حكم طاعة الأنبياء عليهم السلام والأئمة والخلفاء صحيحا في الإسلام؟ الجواب هو أنه لا ريب في أن الطاعة في الإسلام حق لله تعالى وحده، ولكن طاعة الآخرين تكون تنفيذاً للأحكام الإلهية طبقا للحكم الإلهي. يقول الله تعالى:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء: ٥٩).

إن طاعة أولي الأمر – سواء كان المراد منها العلماء أو الحكام – هي تنفيذ أوامرهم طبقا لحكم الله وشريعته، كما أن طاعة الرسول (ﷺ) أيضا من أجل تنفيذ الأحكام الإلهية. يقول الله تعالى:

﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾)النساء: ٨٠).

وقد جاء في السورة الكريمة ذاتها قبل هذه الآية قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٦٤).

كان اليهود والنصارى قد تركوا الأحكام الإلهية وجعلوا من طاعة رهبانهم وكهنتهم وقساوستهم دينا، وكانوا ينفذون أحكامهم وكأنها مأخوذة ومستنبطة من حكم الله تعالى، ليس هذا فحسب بل كانوا يمتثلون لها على أنها أحكام مستقلة، لذا قال الله تعالى عنهم في القرآن الكريم بأنهم مشركون، وأمر بأخذ الجزية منهم أو قتالهم. قال الله تعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ (التوبة: ٢٩).

إن وصف أهل الكتاب بعدم إيمانهم في هذه الآية الكريمة ليس بسبب عدم تمسكهم بالحكم الإلهي فقط بل لأنهم أعطوا عباد الله درجة ومرتبة الله. فقد صرح الله تعالى بعد ذلك في السورة ذاتها:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً﴾ (التوبة: ٣١).

اتخذوا من أحبارهم ورهبانهم أربابا لأنهم كانوا يُقرون بأن أحكام هؤلاء الأحبار والرهبان أحكاما لله، إذ كان هؤلاء الأحبار والرهبان يدَّعون بأن الله تعالى يُطلعهم غيبيا على أحكامه والفصل في المعاملات. وقد حث الإسلام أهل الكتاب في سورة آل عمران على ترك هذا الشرك. يقول الله تعالى:
﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤).

والطاعة هي السبب في اتخاذ (الأحبار والرهبان أربابا من دون الله). ورد في الترمذي ومسند أحمد بن حنبل أنه حين جاء عدي بن حاتم المسيحي والأمير العربي إلى النبي (ﷺ)، وقرأ أمامه النبي (ﷺ) آية سورة التوبة سالفة الذكر[١]؛ فقال عدي" :أنهم لا يتخذونهم أرباباً. فقال النبي ﷺ "بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، **فذلك عبادتهم إياهم.**[٢] ورد في رواية الترمذي أن النبي (ﷺ) قال: « أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئاً اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئاً حَرَّمُوهُ».[٣]

---

(١) **﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً﴾** (التوبة: ٣١) (المترجم).

(٢) تفسير ابن كثير.

(٣) الترمذي، تفسير آية التوبة. وهذا نصه: (٣١٩٩) حدثنا الحُسَيْنُ بنُ يَزِيدَ الْكُوفِيُّ، أخبرنا عَبْدُ السَّلاَمِ بنُ حَرْبٍ عن غُطَيْفِ بنِ أَعيَنَ عن مُصْعَبِ بنِ سَعْدٍ عن عَدِيِّ بنِ حَاتِمٍ، قال: «أَتَيْتُ النَّبيَّ وَفي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فقال: يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ في سُورَةِ بَرَاءَةَ: {اتَّخَذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ الله}،

اتضح من هذا الحديث الشريف أن جعل أي شيء حلالا أو حراما ليس من عمل أي إنسان، بل هو حق الله تعالى وحده، ويُطلق على هذا مسمى وضع الحكم وإن شراكة أي أحد في هذا التحليل أو التحريم هو الشرك بعينه وهكذا فإن طاعة حكم أي أحد غير الله أو طاعة حكم أحد مع حكم الله دون أمر إلهي شرك أيضا، ولهذا السبب زجر الله تعالى هؤلاء العرب واليهود والمنافقين، الذي كانوا يأخذون مسائلهم وقضاياهم إلى قضاة اليهود بسبب ضعف إيمانهم أو من أجل الهروب من حزم القانون الإلهي، أو يذهبون إلى كُهان العرب للفصل فيها، وعبر عن فعلهم هذا بالنفاق الصريح، لذا قال تعالى بعد ذكر أسس الحكم والعدل وفق طاعة الأحكام:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ (النساء: ٦٠).

يعني لفظ "الطاغوت" في المعجم **كل معبود من دون الله** وأراد به المفسرون حسب سبب النزول أحيانا الكهنة، والسحرة، وأحيانا أرادوا به قضاء اليهود، ومن ثم نتج عن هذا المفهوم أن إعطاء أحكام أي أحد غير الله تعالى درجة القانون وإطاعتها، ورغبة الفصل والحكم طبقا لها "طاغوت". ورد هذا اللفظ في القرآن في سبعة مواضع [١]، ويُراد به في كل موضع الحاكم الباطل والمعبود الباطل.

قال: أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئاً اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئاً حَرَّمُوهُ».

قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ غريبٌ لا نَعْرِفُهُ إلاَّ مِن حديثِ عبدِ السَّلاَمِ بنِ حَرْبٍ. وَغُطَيْفُ بنُ أَعْيَنَ لَيْسَ بِمَعْرُوفٍ في الحديثِ. (المترجم).

(١) وهذه هي المواضع التي ورد فيها هذا اللفظ:

إن ترك القوانين الإلهية والحكم طبقا لأي قانون آخر فسق ويقال لمرتكب هذا الذنب فاسق. يقول الله تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٧).

عبر الله تعالى عن هذه الأحكام باسم آخر وهو الحدود. والحدود هي تلك العلامات التي يجب على الإنسان ألا يتعداها، والتجرؤ على تعديها ولو بذرة عصيان وإثم، وأخبر الله تعالى بهذه الحدود، ومُنزلة من عنده سبحانه. قال الله تعالى في كتابه العزيز بعد ذكر الأحكام الإلهية في سورة البقرة، والنساء، والطلاق:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ (الطلاق: ١).

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً﴾ (الطلاق: ١).

ويقول سبحانه وتعالى في آخر سورة النساء بعد تفصيل ذكر قواعد وضوابط الوصية:

أ. ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾ (البقرة: ٢٥٦).

ب. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

ج. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ (النساء: ٥١).

د. ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ (النساء: ٦٠).

هـ. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ (النساء: ٧٦).

و. ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ (المائدة: ٦٠).

ز. ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦).

ح. ﴿الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ (الزمر: ١٧).(المترجم).

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (النساء: ١٣، ١٤).

اتضح من هذه الآية الكريمة أن العمل بهذه الحدود طاعة لله تعالى ورسوله، وجزائها الفوز بنعمة الجنة. والانحراف عنها وتعديها عصيان لله تعالى ورسوله، وتكون نتيجته دخول النار خالداً فيها وله عذاب مهين. وطاعة الرسول (ﷺ) في الحقيقة طاعة لله عز وجل.

إن حقيقة القانون والشرع هي التحليل والتحريم، وهذا الحق خاص بالله تعالى وحده. وإذا وضع الإنسان أي قانون من قِبل نفسه، وحرَّم شيئا أو حلله دون سند إلهي فهذا هو "الافتراء على الله" يقول الله تعالى:

﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النحل: ١١٦ – ١١٧).

إن الله تعالى في هذه الآية الكريمة لم يُخصص لنفسه شريعة هذا الحلال والحرام فقط، بل أنبأ أيضا بأن الذين يتركون الشريعة الإلهية ويصنعون شريعة لأنفسهم يتمتعون قليلا ولكن لهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

كان رسول الله (ﷺ) مظهراً للشريعة الإلهية، كما كان يُخبر العباد ويطلعهم على الأحكام الإلهية، ومن هنا فكل حكم له حكم إلهي، ولكنه (ﷺ) حين حرَّم شيئا على نفسه ذات مرة دون حكم إلهي؛ فجاءه هذا العتاب الإلهي. يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ (التحريم: ١).

يثبت من هذا أن هذا الحق لم يحصل عليه النبي (ﷺ) ذاته، في حين أن كل شخص يحق له أن يترك استخدام أي شيء مباح لسبب فيه مصلحة ذاتية له، ولكن النبي (ﷺ) حين فعل هذا، منعه الحق تبارك وتعالى من استخدام هذا الحق لنفسه، لأنه لو تم هذا لتسبب في وجود خسارتين:

إحداهما: هي أن أي فعل للنبي (ﷺ) غير مخصوص له (ﷺ) يأخذ حكم الشرع لأمته (ﷺ) طبقا للحكم الإلهي وبناء على هذه القاعدة بسبب تركه (ﷺ) هذا يجعل أمته تعتبر الشيء الحلال لها حراما.

والثانية: تُثبت أن للنبي (ﷺ) الحق في التشريع دون إذن إلهي وهذا غير صحيح، لذا فحيثية التشريع النبوي هي أنه مُبلغ للشريعة الإلهية، وشارح للقانون الرباني ومظهر له. يقول الله تعالى:

﴿وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة: ٢٩).

أما عن تحريم الرسول في هذه الآية الكريمة فهو باعتبار أن الرسول مُبلغ لأوامر الله تعالى، وطاعة الرسول هي طاعة لله تعالى بعينها، كما أن طاعة أولي الأمر طاعة للرسول بعينها، لأنهم يُقدمون الأحكام المبلغة عن الرسول (ﷺ).

في فترة تدوين العلوم في الإسلام أصبحت هذه المسألة – الحاكم شرع الله تعالى – مسألة أصول، لذا فهناك بحوث وتحقيقات في هذه المسألة في كتب أصول الفقه وعلم العقائد.

وردت هذه المسألة في علم أصول الفقه بحيثية أن الله تعالى وحده هو واضع القانون، وبأمره ونهيه هو سبحانه وتعالى عرف العباد والفرض والواجب، والحلال والحرام.

يكتب العلامة الآمدي (ت ٦٣١هـ) في كتابه "الإحكام في أصول الأحكام":

«أعلم أنه لا حاكم سوى الله تعالى، ولا حكم إلا ما حكم به، ويتفرع عليه أن العقل لا يحسن ولا يقبح ولا يوجب شكر المنعم وأنه لا حكم قبل ورود الشرع» (١١٣، ١، مصر).

والمراد من هذا هو أن الله تعالى وحده هو الواضع لأحكام الشريعة والقانون الشرعي، حكمه حكم، وقانونه قانون، ومن ثم لم يكن من الممكن قبل نزول الشرع بناء على العقل وحده إطلاق الثواب أو العقاب من يُصدر أي حكم في صورة الفرض، والواجب، والسنة، والمستحب، أو الحرام، والغير جائز، والمكروه، ولا يستطيع العقل بسعيه هو وحده أن يقول على أي أمر له حسن أو قبيح باعتبار الثواب أو العذاب. يكتب العلاّمة ابن همامٍ الحنفي (ت ٨٦١هـ) في كتابة التحرير:

«الحاكم لا خلاف أنه رب العالمين» (ص، ٨٩٢، ٢).

يُوضح العلامة الألوسى في شرح كتاب منهاج الأصول للقاضي البيضاوي (ت ٦١٥هـ).

"هناك معان للحسن والقبح وكون الشيء حسنا أو قبيحا أحدهما هو أن الطبيعة والفطرة تقبل هذا الشيء، أو تنفر منه. مثلا إخراج الغرقى من الماء شيء حسن، والأخذ من مال أي أحد ظلما قبح. ولهما معنى ثان وهو أن أحدهما صفة للكمال، والثاني صفة النقص. فالعالم حسن، والجهل قبح وباعتبار هذين المعنيين لا اختلاف في الفصل بين الحسن والقبيح بناء على العقل. ولكن هناك اختلاف في أي فعل يقتضي الثواب وفي أي فعل آخر يقتضي العذاب؟ وهذا يتضح من الشريعة فقط. ذهب الأشاعرة (وعامة أهل السنة) إلى أن الحكم

بالثواب أو العقاب المترتب على الحسن أو القبيح ليس موقوفا علـــى الـــشرع. ويقول المعتزلة أن العقل يمكن له الفصل في هذا، ولا يُنتظـــر لـــورود الحكـــم الإلهي للفصل في هذا الأمر لأنه واجب في حق الله تعالى مراعاة نفع وضـــرر العباد، وبنزول الشرع يستحكم قرار وحكم العقـــل". (حاشـــية ص ٩٠، كتـــاب التحرير لابن همام).

قالت المعتزلة شيئا مخالفا في الحقيقة وهو أنه يمكن التوصل إلى الحكـــم عن طريق حكم الشريعة، وبالعقل تستحكم مصلحته بناء على القياس والتجربـــة عند أهل العقل، وهذا هو مسلك حق عند الماتريدية (الحنفية) من بين أهل السنة المتأخرين. ويكتب مولانا "محب البهاري (ت ١١٩٩هـ) في "مسلم الثبوت".

"الحكم لله تعالى وحده فقط، ولا يوجد اختلاف في أن الفصل والحكم على موافقة أو مخالفة الكمال والنقص والأغراض والمنافع الدنيوية بالعقـــل، ولكـــن الخلاف في أن أي فعل يقوم به الإنسان يستحق المدح أو الذم عند الله هل يمكن إدراكه عن طريق العقل أم عن طريق الشرع فقط؟. عند الأشاعرة يُدرك هـــذا عن طريق الشرع فقط، فما أخبر به الله عز وجل بأنه خير، فهو خير. وما أخبر به سبحانه وتعالى بأنه شر فهو شر، ولو أن الله تعالى يُخبر عن شيء خـــلاف هذا، فإما أن يكون هذا الشيء خيراً أو شراً. وعنـــدنا نحـــن (أي الماتريديـــة) والمعتزلة أنه يُدرك بالعقل. وهناك فرق بين الماتريديـــة والمعتزلـــة وهـــو أن المعتزلة والإمامية والكرامية وغيرهم يقولون بأن ما يرجحه العقل واجب علـــى الله أن يحكم بما يطابقه. وعندنا (الماتريدية) إن ما يرجحه العقل يستحق حكم الله الحكيم العليم، ولكن طالما أن الله تعالى لم يحكم بأي حكم، فلا يمكن للعقـــل أن يُصدر أي حكم". (المقالة الثانية في الإحكام).

نسب بعض أهل الأصول إلى المعتزلة بأنهم يعتقدون بأن الحاكم والقانون هو العقل. وقد نفى هذا مولانا بحر العلوم في شرحه لهذه المسألة في كتاب "مسلم الثبوت" إذ يقول:

"الحكم لله تعالى وحده فقط، وهذا هو إجماع الأمة كلها، وإن ما دوّنه بعض مشايخنا في كتبهم وهو: أن هذا الأمر عندنا وعند المعتزلة أن العقل هو الحاكم والمشرع خطأ، إذ أن أي مسلم لا يجرؤ على القول بمثل هذا، يقول المعتزلة أن العقل يمكن له أن يعرف بعض هذه الأحكام الإلهية سواء ورد فيها الشرع أم لم يرد، وهذا ثابت عند أكابر مشايخنا".

"لا يختلف أحدهما عن الآخر في أن الحاكم والقانون هو الشرع فقط بعد بعثة النبي وتبليغ دعوته أما الاختلاف فهو فيما يتعلق بالزمن والحالة فإن لم يُبعث النبي أو لم تصل دعوته إلى أحد، فعند الأشاعرة ليس مكلفا في مثل هذا الوقت بأي حكم، وهنا فلا يكون الكفر حراما ولا الإيمان واجبا. وعند المعتزلة إن الحكم في هذا الوقت الذي يصدر عن العقل يُعتقد بأنه مرتبط بالحكم الإلهي" (ص ١٦، إرشاد الفحول، مصر).

والآن وفي نهاية هذا الحديث ننقل القول الفصل في هذا الأمر لمولانا شاه إسماعيل الشهيد رحمه الله كخلاصة لهذه الآراء:

"ليس هناك أي حاكم سوى الله تعالى، له سبحانه تعالى الخَلْق، وله سبحانه وتعلى الحكم، وليس للعقل ولا لأي مخلوق أي شأن في أن يُثبت أي حكم، وإن ما أمر به الله تعالى مع الوجوب أو الاستحباب هو في الحقيقة حسن، فهو لذاته حسن أو بناء على أي صفة من صفاته أو ما يُنسب إليه سبحانه. وهكذا فإن ما نهى عنه سبحانه وتعالى هو القبيح، فكان هناك عدل وإنصاف في عالم الحقيقة مع حسن وقبح الأفعال قبل الأمر والنهي، وبناء على هذا أمر ونهى

الله تعالى، وأحيانا يتعرف العقل على حسنها وقبحها. وهناك يُطلق على هذا الحسن والقبح عقلي، ولكن إذا لم يكن هناك أي حكم قبل ورود الشرع فهذا الحسن والقبح في حق العباد مبني فقط على الشرع الإلهي". (ص ١٢).[١]

---

(١) صـ ١٢، رسالة أصول الفقه (المترجم).

إن رسالة أصول الفقه هذه لمولانا شاه إسماعيل الشهيد [1] في الحقيقة

[1] الشهيد شاه محمد إسماعيل بن شاه عبد الغني بن شاه ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي المشهور بـ " شاه إسماعيل الشهيد " المجاهد، محدث مشهور. ولد في ١٢ ربيع الثاني ٢٩ ١١٩٣/ إبريل ١٧٧٩ بمدينة دهلي بالهند. (حيات ولي، حيات طيبة، ولي الله). وفى رواية أخرى ولد فى ٢٨ شوال ٦ /١١٩٦أكتوبر ١٧٨١ ببلدة " پهلت " التابعة لمدينة " مظفر نگر ".(دائرة المعارف الإسلامية الأردية، المجلد الثاني ص ٧٤٩) وينتمي إلى أسرة عريقة فى العلم وخدمة الدين ببلاد الهند؛ فجده شاه ولي الله الدهلوي، وأعمامه هم شاه عبد العزيز (ت ١٨٢٣/١٢٣٧)، وشاه رفيع الدين (-١٢٣٣ ١١٦٣/١٧٤٩/١٨١٨)، وشاه عبد القادر (١١٦٧/١٧٥٤ - ١٢٣٠ /١٨١٥) وأمه " فاطمة " (حيات ولي)، وفى رواية أخرى " فضيلت النساء " بنت مولوى علاء الدين(دائرة المعارف الإسلامية بالأردية، المجلد ٢ ص ٧٤٩).

قرأ القرآن الكريم على أبيه، كما أخذ عنه النحو والصرف وأتم حفظ القرآن وهو فى الثامنة من عمره. توفي والده وهو صبي فانتقل إلى كفالة عمه الشيخ عبد القادر المذكور، وواصل تعليمه على يديه، كما لازم أعمامه فترة طويلة وأخذ عنهم حتى صار بحراً زاخراً فى العلوم النقلية والعقلية ولم يبلغ العشرين من عمره. وتفرغ للدعوة والإرشاد، وجاب معظم بلاد الهند، ودعا الناس إلى طرح البدع ومحدثات الأمور، وصحح المعتقدات الخاطئة لدى العامة من المسلمين بسبب عدم الفهم الصحيح لتعاليم الدين، أو التأثر بالديانات الهندية. وكان يقيم حلقات وعظ وإرشاد فى المسجد الجامع بدهلي يومي الجمعة والاثنين من كل أسبوع، وكان له جمهور غفير يحرص على حضور جلساته وخطبه؛ لعلمه وفصاحته. وكان مدار دعوته على الحديث والسنة النبوية الصحيحة، والبعد عن البدع والشرك فأقبل الناس عليه.

وفى سنة ١٢٣٣ / ١٨١٨ ترك الشهيد سيد أحمد بريلوي (١٢٠٠/١٧٨٦- ١٢٢٨/١٨٣١) وظيفته فى جيش " نواب أمير خان " حاكم مدينة " تونك "، وقدم دهلي وتفرغ للدعوة والإرشاد، فالتقى به الشيخ إسماعيل الشهيد وبايعه، وسافر معه إلى

الحرمين الشريفين سنة ١٢٣٧/١٨٢٢، فحج وزار، ورجع معه إلى الهند، وساح البلاد والقرى بأمره سنتين للدعوة إلى جهاد طائفة السيخ فى إقليم البنجاب، فانضم الكثيرون إلى حركة الجهاد بقيادة " سيد أحمد " بريلوى حتى بلغ عددهم سبعة آلاف وفى سنة ١٢٤١ /١٨٢٦ نهضوا لمحاربة طائفة السيخ بعد أن أمعنت فى إيذاء المسلمين، فألحقوا بالسيخ العديد من الهزائم. وكان الشيخ إسماعيل كالوزير لسيد أحمد المذكور، يجهز له الجيوش، ويقتحم المعارك بنفسه حتى استشهد فى موقعة " بالاكوت " بأرض " ياغستان " فى ٢٤ من ذي القعدة ١٢٤٦ / ٦ مايو ١٨٣١.

وأما مختاراته فى المسائل الشرعية، فمنها أنه ذهب إلى أن رفع اليدين فى الصلاة عند الافتتاح والركوع والقيام منه والقيام إلى الثلاثة سنة غير مؤكدة من سنن الهدي فيثاب فاعله بقدر ما فعل، إن دائماً فبحسبه، وإن مرة فبمثله، ولا يلام تاركه، وإن تركه طوال عمره. ومنها أن رفع المسبحة فى أثناء التشهد عند التلفظ بكلمة التوحيد ثابت، بحيث لا مرد له. والجهر بالتأمين أولى من خفضه، لأن رواية جهره أكثر وأوضح، وترك الجهر بالتسمية أولى من الجهر بها؛ لأن رواية ترك جهرها أكثر وأوضح من جهرها. ووضع اليد على الأخرى أولى من الإرسال. والإرسال لم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم؛ بل ثبت الوضع كما روى مالك فى " الموطأ " وغيره. والوضع تحت السرة وفوق السرة متساويان، والقنوت وتركه متساويان.

ومما ذهب إليه أن تجزى الاجتهاد وتجزى التقليد لا بأس به، وأن التزام تقليد شخص معين لم يجمع على لزوم الاستمرار عليه، وما اشتهر من منع التقاط الرخص أيضا خلاف واتباع الأئمة الأربعة أيضاً مما لم يجمع على منعه،واتباع مذهب الحنفية ليس تقليد شخص معين، فوحدة هذا المذهب اختيارية، وكذلك وحدة المذاهب الأربعة أيضاً، فلا يلزم على متبعيه نقصان كما لا يلزم على متبع المذهب الحنفي. والحاصل أنه لا يجوز التزام تقليد شخص معين مع تمكن الرجوع إلى الروايات الدالة خلاف قول الإمام المقلد (بالفتح). والتقليد المطلق جائز وإلا لزم تكليف كل عامي، وإن قول الصحابي من السنة فى حكم الرفع، وفهم الصحابي ليس بحجة لاسيما إذا كان مخالفا

لأجلة الصحابة رضى الله تعالى عنهم. والشيخ بهذا ينهج نهج جده شاه ولى الله الدهلوي فى رفض تقليد أيِ مذهب فقهي بعينه وسلوك مسلك التوسط بين الإفـراط والتفـريط، ووجوب التمسك بالكتاب والسنة.

كان الشيخ إسماعيل زاهداً ورعاً لا يشغله شئ سوى الدعوة ونشرها على أوسـع نطاق. كان يسير مترجلاً فى تجواله لنشر الدعوة قائلاً: كلما زاد التعـب والجهـد زاد الثواب من الله تعالى. ولعلمه لقبه عمه الشيخ عبد العزيز المذكور فى رسالة له بـــ " حجة الإسلام "، كما قال " من يرد رؤية علم عهد شبابي؛ فلينظر إلى إسماعيل "، ويقول أيضاً " إن إسماعيل وإسحاق (حفيده) نعمة من الله، ويقرأ قوله تعالى " الحمد لله الـذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق " (سورة إبراهيم الآية ١٤).

خلف الشهيد إسماعيل مؤلفات كثيرة بالعربية والأردية والفارسية منهـا: **١ــ رد الإشراك والبدع. باللغة العربية**، ألفه فى بابين. وهو مجموعة مـن الآيـات القرآنيـة والأحاديث الشريفة التي ترد على البدع والشر والعادات التي تخالف الـشرع. **٢ ــ رسالة أصول الفقه. باللغة العربية. ٣ ــ تنوير العينين فى إثبات رفع اليدين. باللغة العربية**. جمع فيه الأحاديث التي تثبت رفع اليدين. ونشر عدة مـرات، ودونـت بـين سطوره ترجمة أردية. **٤ ــ عبقات**. بالعربية. وهو فى حقائق التـصوف، ولازالـت تصدر منه طبعات حتى اليوم. **٥ــ تقوية الإيمان** (باللغة الأردية) وهو ترجمة البـاب الأول من كتابه " رد الإشراك " المذكور. ولا يزال ينشر حتى الآن، لدرجة أنه لا يمكن حصر طبعاته. ونشر أول مرة من مطبعة دار السلام بـدهلي سـنة / ١٨٤٧ ١٢٦٣، وترجمه مولوى " شهامت على " إلى اللغة الإنجليزية سنة / ١٨٥٢ ١٢٦٨، كما نـشر مولوى محمد سلطان: الترجمة والشرح الأردي للباب الثاني من " رد الإشراك" المذكور باسم " تذكير الإخوان ". **٦ ــ منصب إمامت** (باللغة الفارسية) وهو رسـالة جامعـة ومحققة فى تحقيق منصب النبوة والإمامة. وهو مما لم يسبق إليه. ونشرت ترجمة لـه بالأردية. **٧ ــ إيضاح الحق الصريح فى أحكام الميت والضريح** (باللغـة الفارسـية) ونشر للمرة الأولى مع ترجمته الأردية بمدينة دهلي ١٢٩٧ / ١٨٨٠. وعنـه يقـ...

تهذيب لأصول الفقه [1]، فيها كتب عن مسائل كبيرة لهذا الفن في جمل وجيزة. وإن ما قاله صاحبنا (شاه إسماعيل) في الاقتباس السابق يعني "أن الحاكم وواضع القانون في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى"، ولم يثبت هذا الحق لأي من المخلوقات، وأن ما أمر به الله سبحانه وتعالى أو نهى عنه فهو مبني على الحكمة ومصلحة ونفع العباد، وحين يُدرك العقل هذه الحكمة وهذه المصلحة،

بعض مشاهير العلم إنه " لم يكتب أفضل منه فى رد البدع ". ونشرته المكتبة الأشرفية بدهلي سنة ١٣٥٦ / ١٩٣٧ مع ترجمة أردية حديثة. ٨ ــ **رسالة يك روزى** (باللغة الفارسية) كان مولانا فضل الحق خير آبادي قد اعترض على " تقوية الإيمان " المذكور؛ فقام شاه إسماعيل بالرد عليه فى إحدى جلساته الدينية، وأعد هذا الرد فى ١٢٤١/١٨٢٥، ونشر للمرة الأولى مع رسالة " إيضاح الحق ". ٩ ــ **تنقيد الجواب در اثبات رفع اليدين.** (بالفارسية) ١٠ ــ **الصراط المستقيم** (باللغة الفارسية) جمع فيه ما صح عن شيخه الشهيد سيد أحمد المذكور قولاً وفعلاً، وفيه باب من تأليف صديقه الشيخ عبد الحي بن هبة الله الصديقي البرهانوي. ١١ ــ **و له رسالة فى " مبحث إمكان النظير وامتناع النظير** " باللغة الفارسية. ١٢ ــ **وله رسالة فى المنطق** قال عنها سيد أحمد خان فى " آثار الصناديد ": " إن له رسالة فى المنطق ذكر فيها أن الشكل الرابع من أجلى البد يهيات والشكل الأول خلافه، وأقام على ذلك الإدعاء من البراهين ما لم يجرؤ على دفعها أحد من معاصريه. ١٣ ــ **وله مزدوجة باللغة العربية** بعنوان " سلك نور " ومنشورة، وقصيدة فى المديح النبوي، وأخرى فى مدح شيخه سيد أحمد المذكور. هذا فضلاً عن خطبه التي جمع معظمها فى شكل كتب، ورسائله الإخوانية الكثيرة. (المترجم).

[1] التهذيب من المنطق هو اسم لمتن وجيز، فيه أحكام كبيرة في فقرات وجيزة عن دفاتر من المسائل.

فيقال عن هذا هنا أنه عقلي. ولكن القول بأنه عقلي لا يعني أن العقل مُشرع وآمر لهذا القانون.

اقتضت الحاجة لمثل هذا التفصيل حتى يتضح أن رجال قانوننا الماهرين قد آمنوا إيمانا كاملا منذ البداية وحتى النهاية بهذا المبدأ وهو أن حق التشريع في الإسلام لله تعالى وحده فقط، فهو وحده الحاكم، والآمر، والمشرع.

وهنا يعتري البعض هذا الشك وهذه الشبهة وهي أن هذا القانون والشرع نزل في زمن قديم وفي وقت خاص معين، فكيف يكون مناسباً لكل حاجات الزمن والأحوال الجديدة حتى يوم القيامة والجواب على هذا هو أنه أولا أن للقانون مبادئ وأصول، وكليات. وثانيا: أن للقانون فروع وجزئيات. وإن مبادئ وأصول وكليات أي قانون في الدنيا متساوية تماما سواء كانت عقلية أم تجريبية، لا يعتريها أي تغيير أو تبديل، والتغيير والتبديل والتجديد يعني ظهور صور حديثة، وهذا يكون في الوقائع والحوادث، وهو ما تضمنته الكليات بداخلها. على سبيل المثال فن الطب فمنذ أن ظهر فن الطب وكلياته وأصوله قديمة وغير متبدلة، وإن ما يظهر من أمراض الآن يوجد لها ذكر وبيان في كتب الطب طبقا للأصول والكليات القديمة. إليك هذا المثال هو أن عقوبة القتل الغير حق قد تحددت في الشرع وهو القصاص، أو الدية والكفارة وغيرها، وكان القتل من قبل بالسيف والسهم أما الآن فقد تغير وأصبح يحدث عن طريق البندقية، والطبنجة، والمدفع، والرصاصة، والمسدس وغيرها من الآلات المختلفة الحديثة، ولكن تغير وسائل القتل واختلافها لا يُوجد أي فرق في شكل وصورة نفس المسألة. وإذا حدث تلف أو هلاك لأي أحد بسبب ركوبة أي شخص آخر، فإجابته موجودة في الشرع، كانت الركوبة من قبل محددة في شكل الحيوانات، والآن تنوعت صورها وأشكالها من سيارات، ودراجات بخارية، وقطارات

وغيرها، وحين تقع بسببها أي حادثة أو أي تلف وهلاك فلن يكـون هنـاك أي فرق في الأصول الكلية.

والشبهة الثانية التي يمكن أن تعتري أي أحد هي أنه إذا كان هذا المبـدأ صحيحاً فهل الحكم الذي يُصدره أي مجتهد باجتهاده فـي أي عـصر حـسب الأصول الحديثة والمتغيرة يكون حكما جديداً أم لا؟ والإجابة على هذا هـي أن المجتهد هو من يعي تماما أصول وفروع الأحكام، ويعـرف الأصـول الكليـة للأحكام وعللها وأسبابها ومصالحها وأغراضها عن طريـق الكتـاب والـسنة، ويفصل في الصور الجزئية الجديدة بما يطابقهما، وعليه فإن اجتهاده وقياسه هنا ليس اختراعا أو تشريعا لحكم جديد، بل هو توضيح. أي أنه لا يخترع أي حكم بل يُوضح أن هذا هو جواب هذه الصورة الجديدة اعتماداً واستناداً على الأحكام الإلهية المحددة، فهو يُوضح أن الجزئية الفلانية الجديدة تندرج تحت الأصـول الكلية. وعلى هذه الأصول والضوابط أعد فقهائنا دفاتر الفتاوى، والتـي يمكـن الإجابة على أي حاجة في أي زمان طبقا لها، وعليه أُسست حكومات عظيمـة الشأن ومحاكم للمسلمين في مختلف بقاع الأرض، ومازالت قائمة حتى الآن.

تمت بفضل الله تعالى ترجمة الجزء السابع رمضان ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م

القاهرة الجديدة، يـوسف عـامر

الفهرس

تقديم (المترجم)	٣ : ١٦
المعاملات	١٧
حدود المعاملات	١٧
المراد بالمعاملات	١٨
إشكالية هذا العمل	٢٠
الأديان الأخرى والمعاملات	٢١
مصادر المعاملات	٢٢
عجز المشرعين	٢٢
فشل الجمهورية	٢٣
عجز الإنسانية عن تشريع قانون عادل وصحيح	٢٣
الحاجة إلى القانون الإلهي	٢٤
الكتاب والميزان	٢٤
ثبات القانون الإلهي	٢٦
ثبات الحقوق الطبيعية والمعاملات	٢٧
الاعتقاد والفكرة الأساسية للقانون	٢٨
أساس القانون الإلهي وشموليته	٢٩
فرق جوهري	٣٠
مكانة وأهمية الحكم في الإسلام	٣٢
نظام الحكم في عهد النبوة	٥٩
العلاقة بين الدين والدولة	١٤٥
معنى لفظ الرعية	١٥٥
حقيقة السلطنة والملوكية	١٦١

ترك الإسلام للألفاظ الدالة على الملوكية ١٦١
منع استخدام لقب ملك الملوك ١٦٢
بعثة الأمة الإسلامية ١٧٥
القوة العاملة أو القوة الآمرة ١٩٥
المبدأ الأساسي الثاني للحكم الإسلامي
الحاكم الحقيقي هو الله تعالى فقط ٢٠٣

رقم الإيداع : ٢١٩٧٥ / ٢٠٠٥